ثلاثية

علاء الديب

أطفال بلا دموع | قمر على المستنقع | عيون البنفسج



ثلاثية

علاء الديب

الطبعة الأولى ١٩٨٩، ١٩٩٣، ١٩٩٩
طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ١٥٣٣٥/ ٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2492-2

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

ثلاثية

علاء الديب

أطفال بلا دموع | قمر على المستنقع | عيون البنفسج

دار الشروق

المحتويات

أطفال بلا دموع

الفصل الأول

بصمات العيون

المنظر الأول يأتي وحده، وينصرف وحده، أفشل في كل مرة أريد أن أصرفه بإرادتي واختياري، كوبري عتيـق من حديد وخشب، في آخر رصيف المحطة من الناحية القبلية، ذرات غبار متصاعد، ظلال شجرة عجوز تقاوم ضوء النهار المتكسر، أربعون عاما يأتي المكان إلى رأسي غامضا حارقا لا يكتمل، للمحطة جانبان: ناحية مهجورة والأخرى مطروقة، فيها شباك التذاكر، ومظلة للانتظار. ودكة خشبية خضراء..» وبلاط ملون قديم، قضبان صدئة مكومة، وفلنكات متآكلة. معبد مهجور لقبائل منقرضة.

يأتي المنظر وحده، وينصرف وحده، بعد أن ينزع قلبي، ويترك في مكانه دوامة هواء.

أرى وجهي في مرآة قديمة، ذقن نابتة وعينان مرعوبتان، لا أستطيع أن أبقى طويلا في غرفة البنسيون، أصعد وأنزل درجات السلم المظلمة العريضة، كلما ألمح المصعد المعطل، قبل الدور الثالث،

أفكر أنني فيه، أنا في داخله محبوس، يغطيني كما يغطي زجاجه وخشبه وحباله تراب ودلايات من خيوط عنكبوت.

أهرول في الشوارع، أطارد شرودي، أصطدم بنهايات الشوارع، تبتلعني، تلفظني، نهايات، بلا نهايات.

أدخل مقهى، مطعما، دكان بقال، أشتري زجاجة خمر، قرش حشيش، أهرب من لا أحد، أصعد شوارع، سلالم، أنزل إلى حدائق جرداء، أعود إلى غرفة البنسيون، أرى وجهي في المرآة القديمة، ذقن نابت، عينان مرعوبتان، خوف قديم، نفس قاحلة، خاوية جرداء، أصنام متهاوية، طريق كباش متتالية حمقاء. أصبحت خارج الزمن. السبت اليوم بلا إثبات، خارج المكان أيضا، هل أنا في مصر، في القاهرة، أم أنني في الجامعة في مدينة دلوك!

وراء هذه النوافذ والأبواب المغلقة كتلة حمقاء من البشر لا تعنيني، ولا تخيفني، أحتقرها، أضيع لو عرفتها، أحب أن أكون مثلها ولا أستطيع، أهرب منها وأتلصص عليها، أراها دمىً مصنوعة من ذلك الحشو البترولي الخفيف، تضرس أسناني لو لمسته أو كسرته.

* * *

ليلة غريبة، مخيفة جدًا، تذكرها مرعب، كنت وحيدًا، متى لم أكن وحيدًا؟ ها هى تعود ولا أستطيع أن أصرفها، قبل الواحدة والنصف بقليل، كنت أنتظر عرض آخر الأنباء من إذاعة القاهرة. فجأة أحسست أنها قادمة، الجدران تتحرك تجاهي خانقة. أزمتي القلبية الجديدة، أهم هدايا رحلة الإعارة الأخيرة حقائبي وأشيائي

تتناثر في الحجرة، لا أستطيع أن أمسكها أو أعيدها إلى مكانها. باب غرفة البنسيون الزجاجي يشف عن ضوء غامض، بعيد لا أستطيع أنا أن أخرج، لن يدخل أحد، لا صوت في المكان، مع أنني أعرف أنهم جميعا هناك. مؤامرة ناجحة ضدي، سينطفئ النور. ويدخل شبح غامض ليقبض على كل شيء، ليست نقودي هى المستهدفة، لكن أنا شخصيًا، أنا وإجازتي الأخيرة في القاهرة، لِمَ لمْ أنزل في فندق كبير، حتى أستطيع أن أستدعي طبيبًا، شيء ما يشدني دائما إلى دائرة العجز والفقر والإحباط. لا أعرف أن أتصرف حقا كالأغنياء، أضأت جميع اللمبات في الغرفة، أشعلت سيجارة ولم أدخنها، صببت كأسا كبيرة من الويسكي، أخرجت قميصًا جديدًا، ارتديته، قميص من قمصان الهدايا التي لم تصل إلى مستحقيها، انتعلت أي شيء في قدمي، وجمعت بعض نقودي، ومفاتيحي، وجوازالسفر، وتركت نور الغرفة مضاء، أراقب المصعد المعطل وأهرب منه. تنفسي يسبقني وضربات قلبي أسمعها في أذني، ليس هناك جديد أخافه لقد قال الدكتور هناك بلكنة أجنبية: ستأتي كثيرًا، تعلم أن تعيش معها، استحلب هذه الحبة عند الضرورة، ضع العلبة في جيبك، وفي مكتبك وإلي جوار الفراش.

اكتشفت أنا أنني أستطيع أن أستعمل تدريبات القلم والأوراق وقراءة القرآن، أنا دكتور في الأدب العربي، ولكن الكتابة.. الكتابة هي التي صارت بعيدة عني، صارت الأبحاث، والرسائل والمحاضرات والمقالات، شيئًا آخر غير الكتابة التي أقصدها، صارت حسابا، وتكتيكا، وتوظيف أوقات وأموال، استثمارًا جديدًا أما الكتابة القديمة فقد كانت مهجورة، مهجورة منذ سنين، من يقدر الآن على الطهارة

التي تتطلبها الكتابة، طهارة تحتاج إلى وضوء، وصلاة، وجلباب أبيض نظيف، وجسد مغسول وروح حرة. هى تحتاج إلى قدرة، واحتشاد، ويقين.. أين كل هذا مني الآن؟! أن أخط رموزًا سحرية على ورق أو على رمل أو على مآقي العيون.

لذلك جعلت من بعض أوراقي المتناثرة وصيتي، بعض الأوراق المنتقاة، وكراس قديم من كراريس وزارة المعارف. هى وصيتي ومفروض أن أضع فيها كل ما عندي من حكمة، هى صوتي، صوتي الذي أنكره عندما يخرج من حلقي معدنيا غريبا لا أعرفه، علاج نفسي وعصبي ووجودي. أحب أن أكتب فيها نقصي، وضعفي، وجرائمي التي أحاول أن أكتبها لكي أغفرها لنفسي. من غير هذه الأوراق يرحمني. يعينني على احتمال أزمتي القلبية الجديدة.. وكل هذا الجنون؟

* * *

في شوارع وسط البلد لم يكن أحد يسير غيري، فكرت في أن أبحث عن تليفون. أتصل بطبيب أو صديق أو أتصل بها هى، زوجتي، الأستاذة الدكتورة سناء فرج، ولكنها ليست في القاهرة، والمعارف والأصدقاء يسقطون من ذهني كأنهم فقاعات هواء، أريد أن أظل وحدي، أصرع هذا الليل، أو يصرعني، ما أجمل ليل القاهرة الخالي، شوارعها الساحرة، وبيوتها ذات الطعم والرائحة.

في الشارع الفسيح، ينتظم تنفسي، يعود قلبي إلى اتزانه ووجوده العادي، أرى ملابس العسكري الأبيض وسلاحة وهو نائم. عنده على الأقل شقة صغيرة أو غرفة، وخمسة أولاد على الأقل. مرتبه

لا يمكن أن يتجاوز المائة، عند زوجته قطعة عزيزة من الذهب، عند الأولاد ملابس جديدة، وهم يجتمعون على أرز وطبيخ ولحم، وهو في بيته يتجشأ، ويرتدي سروالاً نظيفًا.

صرت غريبا وحيدًا يا دكتور، دكتور منير عبد الحميد فكار. أستاذ الأدب العربي في جامعة المطل بمدينة «دلوك» أنت لا شيء قطة ضالة تجري ليلاً في شوارع وسط القاهرة ساحبة في فمها كيسًا كبيرًا به نقود، اجرِ.. اجرِ فلن تستطيع أن تدخل من تحت عقب الباب أو أن تدلف إلى غرفة العسكري حيث ينام الأولاد. في المقهى الصغير الذي وجدته مواربا في باب اللوق، طلبت حلبة باللبن وشيشة وكرسي دخان، كان المقهى نظيفا مفروشا بنشارة الخشب الخضراء، كهل محطم وشاب مسطول وصوت نار، وتمثيلية إذاعية دينية لا يسمعها أحد.

راقبني الجرسون بعد أن وضع الطلبات، لعله يتذكرني أو يتفحصني، ولعلني أذكره، لكن ماذا يهم الآن؟ شيء في ملامح الكهل الذي يقاوم النوم يذكرني بوجه أبي، أعتقد أنني لن أراه هذه المرة، قد يكون بصره الآن قد كف تمامًا فلا يراني، بعث هذا الخاطر في نفسي بعض الارتياح، كان مذاق الحلبة لاسعا والسكر فيها كثيرًا.

عيناك عليّ ولا تراني، كم أحب الآن أن أتنكر في زي جديد لماذا لم أخلع هذا القميص والبنطلون، أرتدي عباءة من العباءات الجديدة التي في الشنطة البنية مثلاً، لها سيالة كبيرة، وجيب عريض على الصدر، وعلى حوافيها نقوش لامعة. إن ملمس قماشها الرخيص يبعث فيّ شعورًا بالراحة واللامبالاة أو الجلباب البلدي القديم، هدية أم عصام مثلاً.

فركت أقدامي، وراقبت أصابع قدمي العاريتين في الصندل الجلدي، منذ زمن لم أشعر بهذا الصمت يسري في كياني، كأن المطالب كفت وانتهى الصراع.

عندما جاء الجرسون يأخذ الأكواب، ويغير حجر الدخان، طلبت حلبة جديدة، وعادت إلى ذهني محطة القطار في قريتي كفر شوق في المنيا، عادت تأخذ مكانها الرئيسي المعتاد في خيالات الذهول، الكوبري دائما محور الصورة، والشجرة العجوز تقاوم ضوء النهار المتكسر، ورجب بائع الدوم والحلوى والجوافة، عجوز حتى في ذلك الوقت، هو ما زال حيا في الإسكندرية، هكذا سمعت. يبيع السوداني أمام الملاهي، لا بد أن أراه، هو الذي حكى لي حكاية رقصة الديك، هو الذي حكاها، وأخرجها، وصنع لها الديكور، والموسيقي سمعتها منه، وسألت أمي عنها وأبي، وكانت الإجابات، إضافات، حتى الصمت والاستنكار والإنكار كانت تزيد القصة في رأسي اشتعالا.

رجب صاحب قصة الديك، ولكن أنا الذي سأكتبها أكتبها كما لا يعرف أحد أن يكتبها، هى قصة لم أكتبها، ولن أكتبها، لأنكم لا تستأهلونها، لو كتبتها لتغير وجه الأدب العربي المعاصر. من هو فوكنر ومن بروست وديستيوفسكي، وماذا يقصد نجيب محفوظ؟ ماذا يعرفون عن الجنون والفقر وحلم الثراء والكنز، ماذا يعرفون عن أساطير الصعيد والجبل ولياليه ورجاله، وعن القرى المحنية من ملايين السنين وما يحدث في داخلها بين الرجال والنساء، وبين العيال وجدران الحظائر، والحمير في الظهر الأحمر، والجاموس

الأسود ذي الأرداف، لن أكتبها ولو وضعوا الشمس في يميني، لم لا تكف عن مطاردتي حتى في هذا المقهى الخالي الأليف؟

* * *

عيناك عليّ ولا تراني، ولكنها تترك فوقي بصمات العيون. دخل بعض الزبائن يشربون شايًا بالحليب، ويأكلون فطيرًا طريًا، ويسارعون إلى كرسي الدخان، عافت نفسي الحلبة المليئة بالسكر والدخان نافذ الرائحة، دفعت الحساب، وخرجت أحمل في رأسي، وطني الثاني، أفكر في جامعة المطل، ومدينة دلوك.. ووطني الثاني كله، حيث أكل عيشي ورزقي، ومنفاي الاختياري الجميل، المليء بالنقود، والزوايا الزجاجية، ورائحة الرمل، والنفط، والرجال المعلبين المصبوبين في جلابيب بيضاء نظيفة أحبائي وأشقائي، ولكنني لا أشتاق إليهم ولا للمكان، الشوق لكفر شوق وحدها، قريتي المستحيلة، التي لم يعد لها وجود، أخاف أن أفكر في ذلك المكان الذي أعيش فيه الآن، كل الأشياء هناك تبدو غير حقيقية، مؤقتة: بيتي الخالي. أو المليء. الجامعة في الظهر أو ليلاً، الشوارع الخالية الواسعة النظيفة ملا يين الريالات والدينارات... والدولارات... بلاد هى وطني الثاني كما أقول دائما في المحاضرات، لكنها ليست بلادًا، لا أعرف أن كانت لهم أغان غير تلك التي تصرخ بها أجهزة التسجيل. كانت لهم أغان بالقطع، بالضرورة. بلاد درست وطمستها الرمال والنقود والنفط، رصفوا فوق بلادهم طرقا طويلة وكباري وعنجهية فارغة، هل هناك حواري وأزقة وكفور، وفلاح على رأس غيط، وعامل متحمس أخرق، وعذراء على ترعة، وشمس في رأس غابة نخيل، وشهداء، وكنائس، ووطن يبكي؟

لو أن السيدة الدكتورة سناء فرج صمدت قليلاً معي ـ واحتملت ما سمته السجن الذي كنت أضعها فيه، سجني النازي المرعب، الهواء معي هناك كان عذابًا «عذاب يا أخي»، الحمد لله أنني كنت عذابًا لك يا جبانة، امرأة لا تصلح لشيء، لا لهذا ولا لذاك، الحمد لله أنني انتهيت من هذا العذاب، لم أكن معك سوى أعرج مكتئب سخيف، مثلك لا يعرف الحياة أبدا، كان يمكن أن يكون لنا يا مجنونة حياتان. ولكن ماذا تعرفين أنت عن الحياة. يا بنت الكوربة في مصر الجديدة. يا بنت النادي، والبودرة، والصور الملصقة في الألبوم. أخذت ما يكفيك، من القمصان الملونة والكريمات، والأوهام التي تتناثر مع لعاب فمك ودموعك وأنت هائجة تصلين لحلم كافر رعديد.. أخلص، الرحمة.. طلقني يا أخي.

قبل أن تنطق الأفراس الحمقاء، والفهود والنمور، والأوتوبيسات التي لا تصدق أنها ما تزال فارغة، حاولت أن أهرب من كل هذا خلف شيش البنسيون الكبير، الذي يخترقه ضوء صحي قاهري صاخب، لم أنم وظلت عيناي مفتوحتين مجهدتين وبهما التهاب خفيف.. سأستلقي حتى يدقوا الباب، قرب الظهر لتنظيف الحجرة، وسوف أرفض، وأطلب إفطارًا ثقيلاً.

تركتكم جميعًا، تخلصت منكم جميعًا، وصرت الآن وحدي، مرة أخرى وحدي باختياري وإلي الأبد.

اجتزت وحدي مفازة جهنمية. عبرت وحدي، وتركت أهلي قتلى وصرعى ومشوهين، خرجت لأرض جرداء وحدي، يتقافز أهلي في صحوي وأحلامي، جثثا وأطرافًا ممزقة، أنا قاتل وقتيل،

شهيدكم والسفاح، هم ندمي وحلمي، دماؤهم في فمي، وطعم جوعهم في خبزي.

لا تخش شيئًا، سينقضي اليوم مثل غيره من أيام الإجازة الجميلة، ثلاثة شهور، مثل أي ثلاثة شهور، فيها العام كله، القبح كله.. واسمها إجازة. اتصالات تليفونية، مواعيد في مقاهي، وبنوك، وتغيير عمله، ومكاتب، وبقالون، وسباكون وكمسارية، وسماسرة، وقوادون، وأساتذة مثل الببغاوات يتفاصحون، سيقول ذو الرأس الكبير والأصابع الممتدة في الوجه «انتهى كل شيء، لا أحد هنا، ولا كلام.. خلاص. ابحث لنفسك عن لقمة في مكان ما.. وأظنك تفعل.. ها ـ ها».. ولكنهم يبكون في آخر المساء.. يبكون لسبب أو لآخر. بعد زجاجات البيرة، والأقداح.. وسجاير الحشيش المختلسة، يبكون كما كانت تبكي زوجتي العزيزة، فيعاودني الاختناق وضيق الصدر، وأريد أن أشترك في جريمة اغتصاب أو أن ألقي بنفسي في الجحيم. أجمل شيء في هذا البنسيون هو ذلك الشيش الطويل يخترقه ضوء النهار. الحمد لله أنه مازال يعمل، يفتح ويغلق، للنهار ضوء خاص في الغرفة. ضوء أحلامي وأيامي التي مرت ولن تعود. هناك في مكان ما من الحقيبة السوداء، في كيس من البلاستيك عليه رسم غليون ودخان ترقد تلك الأوراق المفزعة التي أخفيها وأبحث عنها، وصيتي، وجرائمي المستورة والمعلنة، أما النقود والشيكات والحجج والإيصالات والماكينة الحاسبة، وكل الأرقام فهي هنا في هذه الحقيبة الصغيرة الكبيرة المصفحة غالية الثمن. من أين اشتريتها لا أذكر، ولكنني أتعامل معها باحترام. أنظر إليها بحب وحذر. أنا شيء. وهي شيء آخر.

* * *

لن يكون في اليوم جديد، بعد أن تنتهي ظلال الشمس على الجدران، سيضيق صدرك من جديد. «أم عصام» في الإسكندرية هى بحري وخلاصي. لن يسأل عني أحد، ولن يتصل أحد. هكذا هم يتهيبون في الأيام الأولى، وسناء وتامر ولمياء مع خالهم في مرسى مطروح، خمسة عشر يوما أو شهرا على الأقل على ألا أفسد عليهم الإجازة، هكذا قال الصوت على التليفون أيام مع أم عصام. ولن يشعر بوجودك أو غيابك أحد.

أم عصام في ضياء لحمها الأبيض أغرق صبحي وليلى الفارغ هى وطبيبي النفسي أهم ما بقي لي هنا. بعد ساعة تعد الشقة والفراندة، والمنقد، والأفيون، والفيديو وكل شيء، حتى أم الخلول والفلفل الإسكندراني المقلي.. وتضيء نورا أحمر، وتدير أم كلثوم، لا يهم الوقت فهي تحب الأيام الخالية معي، وتقدر كرمي المحسوب، وأقدر امتنانها النهم الذي لا يشبع. فمها وأردافها وأثداؤها مترعة كأنها ترضعني غباء أبيض. سمينا كل شيء اسما: أعضاءها، وأعضائي، زوجتي، وطليقها حتى لا يزعجنا أحد أو شيء بحضور مخصوص، كما اتفقنا على تجنب ذكر الأولاد أو الحديث عنهم أو الحديث عن النقود.

لن يأتي عليَّ الغروب وحيدا، ولن يسمع مني أحد لأيام. ستحل أم عصام أزمة وجودي، ولن تزيد التكاليف كثيرًا عن المعتاد، فهي ما زالت تحب الكبدة الإسكندراني والسمك، وأفلام عبد الحليم حافظ القديمة، وكئوس البراندي وأنفاس الحشيش، وتشعل الفحم، وتشعلني بفمها وبقطع الأفيون، وتمسح لي زجاج نظارتي فيبدو فجر الإسكندرية وبحرها وكأن نورًا قد محا كل أيامي الكئيبة، أضاجعها

وأنام، لأستيقظ فأجدها قد أعدت المائدة من جديد. سآخذ جلبابا وعباية وشبشبا وغيارات وأدويتي، وورقتين أو ثلاثا لنفقات الرحلة، سأفكر في شيء آخذه لها في الطريق، شيء من رائحة البلاد التي كنت فيها، شيء أحمر لا مع فيه رائحة النقود، سأقول لها أني تذكرتها وتقسم أنها تذكرتني وتنتهي المقدمات وأدفع بأصابعي في شعرها المصبوغ الناعم المنسدل.

المهم أن أترك هنا خبرا في البنسيون لكل من يسأل على، أنني خرجت ولا أحد يعرف متى أعود.

الفصل الثاني

رقصة الديك

الحمد لله أن أم عصام لا تعرف النقاش، ولا تحب تقليب الكلمات الميتة، ولا تعرف ليَّ أعناق المعاني أو الطعن بالكلمات.

غيرت البياضات وأزالت التراب من الفراندة الصغيرة التي تطل بزاوية على البحر المزدحم، وأصبح الطريق إليها وإلي البحر والسماء مفتوحا بعد عدد من الكئوس والأنفاس. يفصلني عن كل شيء زحام أشعر به في أذني ورأسي وكأنه صوت الطائرة لم يتوقف بعد، ولن يتوقف أبدا.

هى وحدها تقوم بكل شيء، في بهجة سكندرية رائقة، تجعلني أنسي ترددي ولا مبالاتي، لا تلامس القروح، ولا تشدها النقاط المعتمة كأنها فرع نور ملون على بيت بعيد. أضحك لها حتى أكاد أنسى رعبي وخواء نفسي الثقيل.

تركتني في الفراندة وانصرفت لشأن من شئونها النسائية، فأوشكت أن أغرق في البحر البعيد.

لعنة الله على فرويد، ويونج، وأدلر، وعلى كل علماء النفس وأطباء النفس، على من اخترعوا الأمراض النفسية ومن زرعوها، الإيدز أرحم من هذا الخواء، الشذوذ الجنسي مزاج أو مرض، أما هذا الخواء فقدر ملعون. سرطان يسكن الهواء الذي أتنفسه من فمي وأنفي وأذني وعيني وكل مخارجي الأخرى ملعون هذا الخواء، الفراغ الداخلي، تنين بأظفار حمراء، وأنياب حمراء، عفريت الظهر، وقاتل نساء في المساء، سراب خادع قاس ملعون. لن تعرفه حتى أصف لك حياتي، حتى تعرفني، وتعرف كيف تتوالد لحظاتي بعضها من بعض، وكيف ينتقل عقلي من شر فارغ إلى شر فارغ، حتى تعرف كم من الجرائم ارتكبت دون أن يقبض علّي أو أسيل دمًا. أنهار الأرض لا تغسل الندم والمرارة.

* * *

بعد حمام ساخن، وقهوة ثقيلة وقبل أذان المغرب تركت أم عصام لكي أنزل وحدي إلى الرمل وأعود لها في المساء.

إلى المنضدة القديمة في الركن الذي يرى البحر كان أربعة من العجائز، يراجعون أخبارًا صغيرة في جريدة معهم، ويناقشون بصوت عال بندًا قانونيًا ركيك الصياغة.

عندما تعثرت في فنان الإسكندرية الكبير، أخذني في أحضانه الواسعة ثم أبعدني بذراعيه وكأنه يتأملني، ثم فتح فمه بكلمات كثيرة، كبيرة ومتتالية، وتلمظ وهو يرتب لقاء لن يحدث، لمن أذهب؟ وعمن أبحث؟ عن هؤلاء الفقراء التعساء المحيطين، في مقاهيهم القذرة وغرفهم الضيقة.

أجلس في مقعدي وحيدًا. هو نفس المنظر الذي يأتي ولا أعرف كيف أصرفه، كوبري المحطة، رصيفها المطروق ورصيفها الخالي، الشجرة العجوز يتخللها ضوء النهار المتكسر، و «رجب» بائع الحلوى يحكي رقصة الديك، في الجبل كهف، في الكهف مغارة، في المغارة كنز لا أحد يفتح الكنز حتى يحرق بخورًا، البخور لا يحمله أحد إلا أعرابي رحال قادم من المغرب، يقف خارج القرية، ولا يدخل، يلقاه صاحب الحظ فيشتري منه البخور وإذا انتهى البخور والطامع في الكنز لم يقنع بعد تغلق المغارة عليه، ويبقي في الكهف لعام كامل، لا تخرجه سوى رقصة ديك يذبح فوق أحجار المدخل.

تصاحبت ليالي مع كاتب أغان يبحث عن الشهرة والمال في تزويق الكلام، تصاحبنا لكي نصنع رقصة الديك، وكانت النتيجة فقط، بعض زجاجات خمر فارغة، وحروقا في صالون منزله، وأوراقا لا قيمة لها، وعلاقة بيني وبينه محطمة، بقيت أنا صاحب رقصة الديك، أحملها في رأسي وأتحدى بها المنحوس والمتعوس وخائب الرجاء.

أهم شيء أفعله في الإسكندرية هو أن أرى رجب، فقد أقسم واحد من البلديات قابلته في وطني الثاني أنه شاهده ضريرا يبيع الفول السوداني أمام مدينة الملاهي بالإسكندرية، وأن طفلاً صغيرًا بساق واحدة يقوده ويبيع معه، أشك، لا أحد يعرف رجب إلا أنا، إنه هو خيالي الذي يأتي ولا أستطيع أن أصرفه، ولكنني بالتأكيد سأذهب. إن لم يكن الليلة فغدا. لو كان هو، فلن أخطئه، ولو كان أعمى فلن يراني.

* * *

رجعت إليها مبكرًا، أشعر بإرهاق وأنا لم أفعل شيئًا، درت في الشوارع ورجعت بالترام، رائحة طعامها وما فعلته في نفسها أدخلوني إلى مباهجها دون عناء يذكر، وراحت في الربع الأخير، من الليل تحكي عن رحلة العمرة الأخيرة، سألت عن حالي في نبرة تدفع إلى البكاء، أزورها من خمسة أعوام، وكل عام تزداد بهجة، وتدخل على نفسها دائمًا تحسينات. تعطيني ـ منذ أن طلقت الدكتورة كل ما في الأنثى في السرير والمخدع والمضجع وفي كراسي الأنس،

ـ ماذا يبقي لك يا دكتورة يا بنت مصر الجديدة، يا بنت المدرج وقاعة الدرس والاجتماع.

ورقة واحدة زائدة أخذتها الدكتورة في غفلة مني، فقلبت كل شيء ضدي. ورقة واحدة لا أعرفها. فتشتها جيدًا، وفحصتها وهي خارجة، تحسستها وهي تغادرني، كنت أتصورها خرجت عارية هي والأولاد، لقد أخذت أنا كل شيء، فرت، جبانة. عارية. ولكن ها هي تحمل كل الأسلحة. هي وحدها سناء فرج، صاحبة المؤامرة الكبرى ضدي، ألم تعرفني هذه المرأة، رجلا قادرًا على إرضائها، وشراء ملابسها الداخلية، وطلاء أظافرها الشيطانية. ليتني قبضت على رقبتها وأنا أضاجعها فماتت، كم مرة ماتت وانقطعت أنفاسها، ثم فتحت عينيها ونظرت إليّ في خنوع، قطة لها سبع أرواح.

حدثيني يا أم عصام عن رحلتك في الدنيا وحدك. اجعلي التي لا تفهم تفهم. قولي من أي بئر تغرفين، وكيف أنك تتجنبين الأحزان.

عندما سألتني إن كنت قد رأيت الأولاد، قلت لها: لا أريد. انتظرت حتى جاء الفجر، فدعت بجمع الشمل، قلت لها إنني أريد

أن آخذها غدًا إلى مدينة الملاهي، ففرحت فرحًا طفوليًا، وناولتني جسدها من جديد.

* * *

أنا لست ـ بالتأكيد ـ شخصًا واحدًا ـ منذ سنوات طويلة لم أعد كذلك، صار شعورا ملازما بعد انفصال الأولاد عني، ولكنني كنت ألحظه قبل ذلك، شرخ فاغر فاه، في كل لحظة، وزاوية، ومعنى أستسلم له أحيانا يقطعني كالسكين.

استيقظت شبه عار إلى جوار أم عصام، لست أنا الدكتور منير المحاضر في جامعة «دلوك» أنا ولست أنا، عيناك عليَّ ولا تراني، أين أولادي، وكتبي، وتلاميذي، أين أطروحتي، وأوراقي، ومقالاتي. وأفكاري الأدبية.

بعض تقلصات في المعدة والأمعاء، وحرقان يصعد على كل الصدر لحظات وتزول الأزمة. أعرف هذه الأعراض في الأيام الأولى من الإجازة، أعالجها بأقراص الحموضة مع مسكن خفيف، أو لا أعالجها على الإطلاق، إنها فقط تجعل المزاج متعكرًا.

النهار في شقة أم عصام ليس ساحرًا أخاذا مثل الليل، نقوش الأقمشة المفروشة على المقاعد، والصور والآيات المعلقة كأنها رموز عصر احتشدت في مخزن قبل أن تنشق للعرض. وهي قد تركتني وحدي في الشقة، لكي تشتري طعاما إسكندرانيا أصيلاً، بعد الطعام المعلب الذي كاد يذهب بما بقي فيَّ من قوة. دللتني بفنجان القهوة وما يلزمه.. وتركتني ـ دون أن تدري ـ لأصعب لحظات النهار: كبد اليوم، حيث من المفروض أن يعمل الناس، وأن يكون لهم شيء

حقيقي يفعلونه، ويرتبطون به، ويأخذون سبب وجودهم منه.

تركتني وقد تخلى عني حتى الخيال. غير قادر إلا على الحساب المتردد، بين عشرات الألوف، تصعد بسهولة إلى المائة، ثم تطيح بخيالي مآس غامضة أو كوارث، فأعود أشعر دون منطق أو مبرر بتلك السقطة التي تنزع القلب. سقوط كذلك الذي يحدث في الأحلام، وتذكر لوجوه غريبة لا تريد إلا الشر.

الرقم الحقيقي، لنقودي، لثروتي، لا أعرفه أنا نفسي، لا أحب أن أعرفه، لقد أجبت عن عشرات الأسئلة السخيفة التي سألها متطفلون حمقى بعشرات الإجابات، كلها لا تمت للحقيقة بصلة، ثروتي صارت شيئا آخر مختلفا غيري، كائنا ليس لي به علاقة، لا أحبه، ولا أكرهه، شجرة صبار غريبة مزروعة في وسط حقل مصري خصيب. نقودي هى التي تحصيني، تتبعني، تثقلني في بعض الأحيان، وأحيانا تجعلني أطير في الهواء، قاسية، مرعبة، لها منطقها ولها قانون.

لو أن لي قرية أعود إليها لعدت. لكن «كفر شوق» لم يعد له وجود إلا في خيالي، تحولوا جميعا هناك إلى أفواه، وأيد ممدودة جثث ملقاة، كسالى، لا يريدون أن يفعلوا شيئا، بعضهم يتطاول ويتهمني بالجنون في وجهي. وأكاد أعرف ما يقولونه عني في غيابي كيف أعيش وسطهم للحظات. تكرر ذهابي إليهم وهروبي. ما الذي يربطني بهم حقا سوى ذلك الاسم، ذلك الخيال. ورقصة الديك. لكنني أخذتها منهم، إنها في رأسي الآن. ورجب هو الآخر يعيش هنا على مقربة في الإسكندرية.

كيف يأكل من لا يعمل، لماذا لا يحل الفقير مشكلته؟

عندما تخلصنا من الزحام، واستقرت إلى جواري في التاكسي الكبير، أحسست أن لا شيء مما حولي يعنيني، الغروب على كورنيش الإسكندرية ساحر، وقد زايلني شعور الكدر الذي حاول أن يغزوني، عندما اقتربنا لم تكن عيون الزحام تزعجني، بل على العكس كنت أحب أن تراني، غطت أم عصام رأسها بتاج ينسدل على كتفيها وملأت نفسها بإكسسوارات تصرف العين عن وجهها وملامحها. كانت تشع طيبة وتلهفا مفرحًا سعيدًا.

هدفي الأساسي من الزيـارة لم أكـن قد أعلنتهـا به، على الرغم من أنهـا تعـرف الحكايـة، ولطالمـا حكيـت لها رقصة الديك، ولكنهـا كانـت دئمـا تنساها، أو تتصنع أنها نسيتها لكي تسمعني من جديد بعينها والحاجب. هى لا تريد أن تربط الخيوط أو النهايات، لا تريد أن توحد النسيج بيني وبين رجب، بيني وبين الكنز والكهف والمغارة. هى تراني في إطار آخر.

عند المدخل لم أجد أحدًا، قلبت في زحام المكان بحثا عنه، لكنني لم أجد سوي عربة فول سوداني قصيرة ملفوفة بقماش وحبل، مركونة إلى جوار الحائط كأنها تابوت صغير.

دخلنا وسط الأنوار الدوارة، والحركة المحبوسة المنظمة، لا شيء مفلوت سوي البشر: ألوانهم، تزاحمهم، صراخهم الأحمق وضحكهم المجنون، التصقت أم عصام بي، وهي تراقب ردود أفعالي. اخترنا أسهل دائرة قطعناها معا، وضحكنا، ونحن في الهواء، ونزلنا الأرض وقد قررنا أن نكتفي بالفرجة وبمراجيح الحياة.

في المقهى الكبير الذي يطل على مدينة الملاهي كلها جلسنا، الجرسونات الشياطين الذين يخدمون هنا يعرفون كل شيء من

الوهلة الأولى، فقد أغرقونا بطلبات لم نطلبها وزجاجات ماء باردة، وأطباق صغيرة، هل تبدو الإعارة ظاهرة على وجهي إلى هذه الدرجة؟ رغم ملابسي العادية، وأم عصـام، قد تكون حلاقة شعري أو نظارتي الثمينة، أو شيء ما في حركات يـدي، لا أظـن أن الإعـارة قد ظهرت في لغتي بعد، مع أنني كثيرا ما أضبط نفسي متلبسا. حكت لي أم عصام عن متع رحلة العمرة الأخيرة، وكيف أنها تنسى نفسها تمامًا هناك، وترى الدنيا بعيدة كهذه الأنوار التي تدور مبتعدة وترى الإسكندرية وكأن لا وجود لها، هناك تنسى شقتها تماما وتتمنى ألا ترجع إليها أبدًا، كانت عيونها لا معة واسعة جميلة، هى تنظر إليَّ من خلف كوب الليمون متساءلة: هل أصدقها؟

لا بد أنه يأتي متأخرًا، لم يكن أبدًا نشيطًا في السعي للرزق.

عربة الفول السوداني هذه عربته بكل تأكيد، صبرت ملايين السنين واقتربت اللحظات الحاسمة، لو كان هو فلن أخطئه وإن كان أعمى فلن يراني.

هذا هو ما ينقصنا الآن، أن تصاب بلوثة، وأن تجلس إلى جوار بائع فول سوداني على كورنيش الإسكندرية. أضحكت أم عصام وأنا أروي لها كيف ينطقون الأشياء هناك، كنت أريد ألا يتوقف الحديث، فكل الحركة حولي لم تكن كافية لكي تصرف قلق التوقع والانتظار، الدوائر المضيئة الدوارة لا تصرف القلق بل تركزه في دوامة مقتربة في نهايتها نار حارقة، وأنا أشد ملامح وجهي وأقاوم تقلصات أمعائي.

عندما استنفدت قدرتي على الصبر طلبت منها أن نقوم، فلا مكان أجمل من شقتها وقد جاء الليل، ابتسمت موافقة في فهم

وإشفاق. وجدته على المدخل، هو بالتأكيد، وصبي صغير مقطوع الساق يجلس إلى جواره، هو الذي يجلس إلى جوار الصبي، صبي أسود ممصوص في الرابعة أو الخامسة عشرة، ساقه خشبية ثقيلة، يمدها إلى جواره، أما رجب فلم يتحرك لا يبدو من وجهه سوى أقل القليل، رأسه، ورقبته وذقنه تحت شال رمادي كبير، على عينيه نظارة سوداء لا تعرف أين أخفى يديه ورجلية، يرتدي بنطلونا كاكيًا، وإلي جواره حذاء.

كنت واثقًا أنه هو: رجب، الديك، رقصة الديك «كفر شوق» الكنز الكهف وأنا.

أطلت الوقوف، أم عصام معلقة في ذراعي، هل يعرف صوتي لو تكلمت، أما إذا تكلم هو فسوف أقطع الشك باليقين، ولكنه لم يتكلم، نائم، أو ميت أو حجري، أو لا وجود له.

اشتريت بنصف جنيه سوداني رغم اعتراض أم عصام. ولم يتكلم أحد، حتى الصبي لم ينظر إليّ وهو يناولني الكيس.

قالت أم عصام، لا أحد يعلم، مثله آلاف في كل مكان، أنت لم تر شيئًا من وجهه لا أنفه ولا عيونه، وأنت لم تكلمه، لماذا تظن أنه هو.

كنت واثقا، ولم أكن راغبًا في استمرار الحديث.

عندما وصلنا إلى الشقة كان طعامنا باردًا. ولم يكن للأشياء نفس المذاق، أيقنت أن رحلتنا معًا قد انتهت. نامت مبكرة. واستيقظت أنا قبل الفجر، وغادرت الشقة والإسكندرية بعد أن أن تركت لها أوراقا نقدية في مكان نصف ظاهر.

سألت نفسي في الطريق: هل كان يجب أن أترك لها أكثر، ولكنني حسبتها وقلت هذا يكفي، فهو أجري عن العمل بالجامعة لمدة أسبوع.

ودخلت القاهرة ـ ظهرًا ـ منتصرًا ومهزومًا.

الفصل الثالث

حادث خلف الكلية

الانتصار والهزيمة معا، متلازمان، وقد عذبني وأقلقني ثم أراحني أن أفهم هذا. أنا لا أتحدث عن العدوان أو النكسة أو العبور، ولكنني أتحدث عن حالي ومالي وعلاقتي مع الحياة.

عندما رقدت على السرير أراقب شيش البنسيون، وضوء الظهر العالي يخترقه، تأكد لي أنني أوغلت كثيرا في صحراء الوحدة، وأنني ملاق مصرعي عطشا لا محالة. وأن كل أشيائي التي أمتلكها وأقتنيها سوف تطفو حولي وأنا وحدي أغرق في رمال ناعمة، بينما كل من عرفت في حياتي من رجال أو نساء يتحلقون في حلقة بعيدة، ويضحكون عليّ في أكمامهم.

◄

صرفتهم جميعا وخلا ذهني من الأشباح، ليست نقودي هى التي تفصلني عنكم، ولكنه استياء.. وقرف منكم، ومن حالكم وجهلكم، وقلة حيلتكم،وهوانكم على أنفسكم،وهوانكم على الناس، أصاحب الآن من هم أحسن منكم: الموت، الجنس والجنون، السندات، والحصص، والأسهم، والشقق والأرض، الودائع المغلقة، حقائق

الأرقام وأرقام الحقائق نقودي: الجن القابع في قمقم، أخرجه وأدخله، أضاجع به واقعكم المستباح.

لكن فوق قلبي دمعة ثابتة لا أفكر إلا بمنطق الأحزان حتى الجنس لم يعد يصفيني، أو يرفع ما فوق صدري من أدران بل صار يزيد إحباطي وتحسري على الفحولة الذابلة، لن أجد في الدنيا امرأة قادرة مثل أم عصام. بعد الجنس تهجم عليّ فكرة الارتخاء والعجز الجنسي، تشغل ذهني قبل الطلاق وبعد الطلاق، أفكر فيها وألخصها بحسرة عامة، وضيق متعال على الحياة ولكنها غالبًا ما تغلبني وتهيل على رأسي ترابًا.

قرأت القرآن كثيرًا في الغربة، وصليت في وطني الثاني، وحدي وفي الجوامع والشوارع في الفجر، والعصر، ووضعت في شقتي الخالية، بعد رحيل الأولاد، سجادة صلاة مزركشة، ومصحفًا كبيرًا على كرسي خشبي، واقتنيت كتب أوراد وأدعية، وغلفتها بأوراق خاصة، وأخفيتها عن عقلي وعن الزوار، وعلى الرغم من كل شيء فإن الدمعة الثابتة على قلبي لا تفارقني، ومنطق الأحزان لا ينجاب.

على الرغم من كل شيء فإنني كثيرًا ما أشعر بأنني مشرك، كافر في قلبي، مطرود من رحمة الله.

* * *

لقاء الأربعاء عند يحيي الكيال دائما لقاء كبير، يضم أقطابا ومعلمين كبارًا في كل شيء وفي كل حرفة، وكل رذيلة، تقال فيه آخر الشائعات، والحقائق، وكل الأفكار المدمرة، والأحلام المحبطة،

فضائح الحاضرين والغائبين، وأحزانهم، وبلاهاتهم ودناءاتهم الصغيرة والكبيرة، وغالبًا ما ينتهي الليل، بأن يتعرى واحد منهم، أو يرقص، يغرق في بكاء.

كنت أحب أن أشهد هذه اللقاءات وإن لم أحسب عضوًا ثابتًا فيها ذلك لأنني نادرًا ما كنت أجلس معهم على مائدة القمار كما أنني لم أعرف أبدا كيف أشترك، أو أساهم في الجلسات مساهمة مادية مؤثرة.

صداقتي التاريخية القديمة ليحيي الكيال، هى تأشيرة دخولي الوحيدة لهذا اللقاء، وهي في الحقيقة مقصدي من التردد عليه، وإن كان نادرًا ما أستطيع أن أتبادل معه حديثًا منفردًا. أريد الليلة أن أكلمه، وأن أسمع بعضا من حكمته البلهاء، التي يصوغها صياغة متقنة، فأحفظها عنه، وأرددها لنفسي في لحظات غربتي الفاجعة، لذلك أخذت معي بعض أكياس الفاكهة، وخمرة مصرية مما يشربون، ورغبة في أن أسكر وأراقب وجهه المستقر الراضي الذي يحملني إلى زمن عذب قديم.

إنه يسخر مني، ومن نقودي، ومن رحلتي المجدبة في الحياة، لكنه في النهاية يعطف، ويفهم، ويسمع إذا تكلمت.

غالبًا ما يكون مشغولا طوال السهرة بالقمار، والقمار هو الرذيلة الوحيدة التي لم تجد لها مكانا في نفسي الضعيفة، لا أحب بناء قصور على رمال. أكره الرمال، والقمار، واقع مزيف، مصنوع، وورق أزَّازْ تخمشه أصابع قطط، كلما تعلمت ألعابهم نسيتها، تستغرقني الوجوه والمشاعر، تبدو قواعد اللعب وضربات الحظ كأنها نكت سخيفة متتالية.

قلت له: اترك الورق قليلاً، ودعنا نتكلم.

ضحك وقال: قل.

لم أقل - طبعا - حتى انفض السامر، وجلس هو بين أطباق وكئوس فارغة كأنه بدوي قديم يبحث في تحويل النحاس إلى ذهب. قال لي: اذهب إلى وطنك الثاني ولا تعد، لم يعد لك شيء هنا. أو أقول لك ما هو أحسن اختر لك وطنًا ثالثًا هناك سيتحقق حلمك، وستجد نفسك الخائرة.

لا مبارزة وسيوفنا صدئة، عندها يستوي المكسب والخسارة ولا يصبح لأي لعبة بريق. إنه كالحمار لا يعرف ما بي.

يقول كما يقول غيره، ولا أجد دافعا لكي أرد عليه، يقول: أنت تجمع النقود، وأنا أعرف كيف أصرفها، لا أقول كما يقول الناس: إنك قد تغيرت، ولكنك كنت دائما هكذا..

شنقت نفسي حيًا أمامه، وهو لا يريد أن يرى سوى لساني الطويل، لا أحد يسأل عن تسرب الحياة قطرة بعد قطرة.

أوجاع الغربة كيف يعرفها هذا التيتل القابع في مقعده من المساء إلى المساء، يفتي في كل شيء، بالحق والباطل، ويراقب الولد والبنت والشايب، ويجرع كل أنواع الخمور، في يقظته المخمورة الكاذبة غياب عن حقائق الدنيا. يعيش بعيدًا عن الموت المجاني تحت أثقال القهر، وركام الفقر والإهانة، وسقوط الأطفال تحت عجلات دوارة، وانتفاخ البطن وسقوط الشعر من الجوع والجفاف.

استبدل الدنيا بغرفته هذه، والمائدة والكأس وأطنان الكلام، أغلق بابه ونوافذه وما زال يتحدث عن الأرض والبشر والسماء.. وما زلت أنا أسمع.

بعد سنوات قليلة من الإعارة طلب مني قرضًا كبيرًا، لكي يترك العمل الحكومي، ويشترك مع صديق له في مصنع صغير للملابس الجاهزة. ساعده القرض كثيرًا في إنشاء المصنع، وتولى صديقه العمل، وهو يشرف فقط ويدير، ويقدم الفتاوى والآراء، هو الآخر لا يفعل شيئًا، هو الآخر ـ مثل كل الناس ـ زائد عن الحاجة، وغير ضروري، ولا لزوم له، صار العمل يدير نفسه، ويأتي برزق وفير. بعد سنتين أو ثلاث رد القرض على أقساط، وعرض أن يدفع فائدة. الحمد لله إنني لم أقبل، وظل يحمل لي امتنانا خاصا، وظللت أشعر بأن لي في مشروع حياته نصيبًا، يكاد أن يكون هو الشخص الوحيد الذي دخل معي في معاملة مالية وخرج سليما. كلهم يتخاذلون. ويتساقطون، أو يكذبون، أو يتهربون، وبعضهم ينتهي به الأمر إلى أن يتهمني في ذمتي أو مقاصدي.

تركته قرب الفجر، بعد أن خفت بريقه، وقال كثيرًا من الحكم عن الحياة والمال والجنس، وجاملني قائلاً إنه لو استطاع السفر لزارني في وطني الثاني. إن أعماله ـ حقا ـ لا تتطلب منه الآن جهدا ولكنها تتطلب وجوده، وجوده هنا ضروري.. هكذا يعتقد هو.

نزلت، وتركته لوجوده الغائم.. الذي يتصور هو أنه ضروري. وقلت لنفسي هذا آخر لقاء أربعاء أحضره.. على الأقل هذا العام.

* * *

لأن هناك صحفيًا نشيطًا اشتهر اسمه منذ سنوات، أخذ يكتب في الجرائد والمجلات القومية وغير القومية في الداخل والخارج، فقد أضفت إلى اسمي لقب العائلة «فكار» في الحقيقة لم أكن سعيدًا بذلك، فهو اسم ثقيل في سمعي وفي قلبي. كنت أتمنى أن يظل محبوسًا في حسابات البنوك والعقود والحجج الرسمية، ولكنني أضفته في النهاية كما أضفت في البداية حرف «الدال». لكي يتأكد أنني شخص آخر غير ذلك الصحفي المناضل ذي الألف الوجه.

ومع ذلك كان السؤال يتردد آلاف المرات، من أشخاص أقابلهم صدفة في غربتي الخاوية، هل أنت منير عبد الحميد الذي قال... هل أنت منير عبد الحميد الذي كتب.. وكنت غالبًا ما أجيب بغضب وضيق صدر. لعنة الله عل الزمن الذي يتشابه فيه البقر. ما أجهلهم من دواب مطلوقة في أرض مرعاها قليل.

كنت أحاول الخروج من شوارع جاردن سيتي، قاصدا المنيرة، لكي أصل سيرا إلى وسط البلد، وألوذ بالبنسيون مكاني الوحيد.

أعرف هذه الشوارع، ولكنها ليست هى، الليل ثقيل ومخاوفي كثيرة، ومع الظل ينحسر ويمتد، يذهب عقلي كل مذهب، البيوت القديمة لا أتعرف عليها، ومعالم حبي القديم لا وجود لها.

هذه دار العلوم مكانها حديقة مغلقة.. وأكشاك معدنية ملونة. أتحسس أوراقي في جيبي، وجواز السفر، ويذهلني الزمن الذي مر.

طوال عمري أخاف من السير ليلاً دون بطاقة، فهل يغني جواز السفر عن البطاقة، كان من المفروض أن أكون مدرسًا هنا وأستاذًا،

وصاحب كتب وأفكار.. ولكنني أقف بدلاً من ذلك أمام السور الحديدي، أراقب المقاعد الخالية، وزهورا حمراء تحت نور مسرحي أصفر غريب، حديقة مخططة مرسومة، حلت مكان القلب، مكان المباني الخشبية الشامخة المنقوشة فوق عيني وروحي.

أي الأحلام قهرت؟وأي آمالي تجاوزت، أكمل لحظات العمر كانت ألمًا وسعادة ذلك الحب القديم. من بعده راقبت كل المشاعر وتفتتت في يدي كل اللحظات. كنت أيامها طالبًا في آخر سنوات دار العلوم، وكان الحب يبدو لي قديمًا خالدًا وكأنه الحقيقة الأولى لم يكن لؤلؤ اليابان الصناعي قد اخترع بعد. كان هنا لؤلؤ حقيقي إلى جواري في تجارة عين شمس.. أراها صباحًا، وظهرًا، وأحيانًا قبل قدوم المساء.

أجتهد، وأعرق، لكي ألمس أصابعها صدفة، أو كتفها تحت قماش الحرير، كنت أكتب لها شعرًا في خطابات. خطابات فيها أحكام وقضايا وتحديد مصير.

أين أوراقي هذه الآن؟!

وهل تصبر هى الآن على قراءة مقالة واحدة من مقالاتي الأخيرة في مجلة «الوطني» أو دراساتي في مجلة «الأفكار الحديثة» أو حتى «حارس الحدود». ما زلت أقول نفس الكلام، ولكنني الآن أبحث في غزل المعلقات وفي أغاني وأصوات القرن الرابع الهجري، ولا أتحدث عن عيونها، أو ارتباط الكون بوجودها، أو وجودها بنظام الكون.

داست هى كل شيء بكعب حذاء غال من جلد التمساح، لم يكن عندي ما أدافع به عن نفسي أو أثبت به وجودي.

يا لحمق أيامي القديمة، وحمقي، كم ليلة سافرت من غرفتي العارية في مصر القديمة، إلى حديقة بيتها القصر في قلب المعادي، وكم ليلة رجعت سائرًا، أفتل من عيونها، وخيوط ثيابها، وصوتها، قصائدي الفاشلة، التي سدت سقف حلقي، وغيرت طعم حياتي في فمي.

أيامها.. كانت أيام حزن الشاعر صلاح عبد الصبور، حزنه الشفاف المستورد الأنيق وأيامها.. كانت: أحلام عبد الناصر التي صنع كل منا لنفسه منها ثيابًا.

تعطرت لها في تلك الأيام برائحة كفر شوق، قريتي، بكل المنيا وكل الصعيد، وتعطرت لي، نعم تعطرت لي، بسحر طبقتها الأخاذ، أحبت الفلكلور، وعلمتها كيف يكون الموال، وكيف تسمع أغاني الصعيد، كان هذا هو الخلاص الوحيد من صعوبة الواقع، ومن العجز عن الاقتحام، وعلمتني أن أنظر فوق السور، وأحلم بها فوق سرير مستدير ونافذة زجاجية عريضة تطل على بحر وشجر، كنت فقيرًا رومنتيكيًا وكنت أعلم ذلك وأعلنه، وأحبه، وأرى كل شيء ممكنًا. أشياء كثيرة تقع وتحدث وتتحقق، ورحلتي من مصر القديمة إلى المعادي تحمل هذا المعنى، لا شيء يعوق خطواتي في قلب البيوت أو بجوار النيل، أشعار وقصص ومسارح تشغل الأحلام وتؤكد الوهم، وتمد جسرًا معلقا جميلاً بين كفر شوق التي تسكن تحت ملابسي الداخلية وبين بيتها القصر في قلب المعادي.

فجأة اقتحمت مجموعة من الكلاب سور الحديقة، وانتشرت كثيرة متقافزة في كل ممراتها، رقدت أنثى وتمرغت فوق الحشيش

الأخضر، بينما تحلق الذكور حولها في تأهب، قضى أحدهم حاجته فوق الزهور، تركها ليجري مبتعدًا وكأنه عرف مقصده. تحركت أنا الآخر مبتعدًا وأنا أستعيد في ذهني بصعوبة ما حدث يومًا ما خلف الكلية. بعد أن انتهت الدراسة. كنت أنتظر التعيين كمعيد في الكلية، وكانت كل الأوراق قد اكتملت، وأصبح تعييني أمرًا مؤكدًا. كنت قابضًا على يديها. كفاها في قبضتي. كانت تتألم وتريد أن تتخلص. ولم أكن أعي تمامًا ما تقول: لم يحدث شيء.

كانت سنوات زمالة طيبة. من الأفضل ألا أحتفظ بأوراقها.. وهي ستجمع لي أوراقي، تمت خطوبتها منذ أيام.. أيام.. وما حدث كان يجب أن يحدث. زاد ضغطي على يديها.. وأنا أحدق في وجهها الذي بدا شمعيا أصفر، ومن ورائها قرص الشمس يلهب رأسي وعيني. كنت أشم رائحة عرقي قوية نفاذة تملأ خياشيمي.. وأنا أحدق في السلسلة الفضية السميكة التي تحيط برقبتها، ظلت تتكلم وأنا أحدق فيها، طعم مر جاف في فمي.

عندما صرخت.. مجنون.. حيوان، اندفعت نحوي عيون كثيرة وأحاطت بي. ورأيت أيدي كثيرة تمتد لكي تأخذها من أمامي، واستمرت هي تتكلم وأصوات أخرى كثيرة تحملها بعيدًا عني. ولم يلتفت أحد ساعتها إلى وجودي.

* * *

كان عليّ أن أعد مقالاً جيدًا لكي أنشره في صحف أو مجلات القاهرة أثناء إجازتي هنا. النشر في أقل مجلات القاهرة شأنًا يساوي الكثير.. أنا في العادة لا أتقاضى أجري، فهو لا يشتري جوربًا أو

قميصًا، ولكن من ينشر هنا علم، وصادق، ومهم.. ولا أدري لذلك سببًا..

لهذه المقالات التي أنشرها هنا في القاهرة، تأثير السحر هناك في وطني الثاني، أجد أثرها في مكاتب الجامعة، وعند رؤساء تحرير المجلات الأدبية والثقافية الكثيرة التي تصدر هناك، حيث يبدي بعضهم رغبته في إعادة نشرها عندهم بعد تعديلات طفيفة، أجريها. وبعد النشر يأتي أجري، عشرة أضعاف الأجر المفترض في القاهرة. كنت أرى المقال مطبوعًا هنا على ورق مصقول، وقد روجع، وخلا من الأخطاء، وزين بالصور والرسوم. لكنني أشعر بأن النشر قد حقق غرضه بمجرد النشر. أرى الكلام باهتا مكدسًا، كأنه لا يعني أحدًا، كما أفاجأ كل مرة بأن أحدًا لا يقرؤه ولا يحدثني عنه.. ولا يهتم به.. كأنه قد نشر في مقبرة لامعة.

كان الوقت صباحا، وقد طلبت من عمال البنسيون أن ينكروا وجودي حتى بعد الظهر لكي أفرغ من إعداد المقال، أقول إعداده لا كتابته. فأنا لم أعد أكتب، خمسة أو ستة مراجع، مع كراريس محاضراتي، وأبدأ في تركيب المقال، أفكار من هنا ومن هناك، أهتم جدًا بالبداية ثم الخاتمة.. أما باقي الكلام فهو «مضغ لبان» أو «كلام ساكت» كما يقول أهل السودان. هناك محاذير كثيرة للوصول إلى الكتابة الناجحة بمحاذير تعلمتها، وتعودت عليها، اعتبارات جعلت من الكتابة شيئًا آخر غير الكتابة التي كنا نعرفها. فليس مهما أن تقول شيئًا جديدًا، أو لامعا، ولكن المهم أن تقول كلامًا فخم المظهر، ليس فيه فكر عميق، أو اقتراح بالتفكير، المهم أن تسير المقالة دون أن يعترض عليها كبير هنا أو صغير هناك. صارت كتابة هذه المقالات

حرفة مستقلة وصرت أتقنها: واحد من الأساتذة القلائل الذين تبدو مقالاتهم وكأنها فتح جديد أو إضافة، بينما هى في حقيقتها كلام ممضوغ رش على وجهه بعض السكر، ولا يقول شيئًا، أعود بعد أن أفرغ من المقالة لكي أخفي الاقتباسات الطويلة، وأنسب القصير منها إلى نفسي من باب التسهيل على القارئ، وعدم التعقيد، ثم أضع في النهاية أسماء مراجعي الحقيقية وسط مراجع كبيرة أعرفها.. وإن لم أكن قد استعملتها.

على الرغم من معرفتي للطريقة فإن كتابة المقالات ما زالت بالنسبة لي عملا صعبا يرهقني نفسيًا وعصبيًا.

مرة أخرى أغلقت شيش البنسيون لكي أبعد رماح النور عني، وأحتفظ في رأسي بهذا الدوار الخفيف الذي يفصلني عن الواقع، ويجعلني قادرًا على أن أخط بعض الجمل التي تتناغم وتعطيني وهما ضروريًا قديمًا بأنني أطرح فكري أو أبحث عن مستمع، ودائما ما تستغرق المقالات مني وقتا أطول مما أقدر، فتحت ظلها يسرح ذهني، وتقتحمني كل المشاهد القديمة والذكريات.

أكبر عائق عن التركيز والإنجاز هو ذلك المنظر الذي يفرض نفسه بلا استئذان:

كفر شوق، والكوبري على المحطة من خشب وحديد والشجرة العجوز التي ينكسر عليها وتحتها ضوء النهار، أصرفه من ذهني فلا ينصرف. ويأخذني، أو يأخذ جزءًا مهما مني، بعيدًا عن الكتب والمراجع، وعن الكلمات التي أخطها، يأخذني لكي أبقى ولا أعرف كيف أعود. صبي في الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة.

ثلاث سنوات أمضيتها فوق هذه المحطة وتحتها مع رجب بائع الدوم والجوافة، والأساطير، والصور المعلقة وراءه، عن أبو زيد وماري جرجس، وعنتر والخضر وليلى.. يفرش البضاعة بالنهار، ويلمها وينام إلى جوارها بالليل تنزل من حوله ذرات الغبار التي ما زلت أشمها في أنفي، ثم تهدأ وتنبعث رائحة جديدة بعد أن يرش حوله الماء مرة في الصباح وأخري قبل العصر، كان يجلس في مواجهة ميدان كبير مترب، تبدأ من بعده البلدة، ولكنه كان يستقل بقطعة الأرض حوله يرشها بالماء ويحيطها بقماش الخيم جاعلاً الشجرة العجوز بينه وبين الشمس، كنت أقيم إلى جواره أغلب النهار ولا أنصرف إلا ليلا خشية عقاب البيت، الذي يقع بعيدًا في الناحية الأخرى من البلد.

عندما أعود قبل آذان العشاء، يسألني أهلي وإخوتي: هل ما زال رجب يأكل دماغك. وأعود أسألهم عن حكاية الكهف والكنز والديك وهل حقا يأتي إلى البلد كل عام ذلك البدوي المغربي الرحال.

أجمع إجاباتهم المحفوظة المرتبة وأضيفها إلى حديث رجب، الذي يأخذني إلى قمة الجبل، يدخلني إلى عمق الكهف حيث الذهب والظلام والثعابين والمخاوف، وأغضب عندما يقولون إنه مجنون وإنه يفسد عقول العيال..

كل ليلة أعيد ترتيب الحكاية. رجب دائمًا يدخل عليها تفاصيل جديدة، عن مكان الكهف، وعن الأنواع الموجودة في الكنز، أحجار لم أسمع عنها من قبل، وألوان لا أستطيع أن أتخيلها.. ولكنها غالية الثمن جدًا ولامعة براقة.

وعندما يتحدث عن البدوي المغربي الرحال، وبخوره الذي يفتح الكنـز، وعن الأسـرار التي يعرفها لفتحه وإغلاقه، وعما يحدث بداخله.. لم أكن أعرف هل يتحدث عن ملاك أو شيطان؟ هل يحبه أو يكرهه ولكنني أنا كنت أحبه، وأتوقع قدومه، عندما يطول غيابه في الواقع أو في الحكاية.

سيأتي الآن قبل أن تموت المرأة الطامعة الطماعة التي دخلت الكهف، ولكنه لا يأتي، بعد عام ولا يأتي. المرأة التي دخلت الكهف قد تحولت بالتأكيد إلى جمجمة، وبعض عظام. عندما جاء بعد غياب طويل دخلت ابنتها بعود البخور تبحث عنها وعن الذهب لم تجد سوي رأس أمها الجمجمة، والمنديل إلى جوارها والعقد الأصفر والخلخال، ولم تر ذهبا ولا كل تلك الأحجار البراقة، عندما خرجت البنت كانت عمياء مجنونة، تحكي ما شاهدته، ذاهلة عن أهلها، تسير مسلوبة الإرادة خلف البدوي المغربي الرحال، تردد بصوت منخفض نداءه عن الكنز والبخور والديك والذهب كانت تقلد الديك، الديك البلدي الملون الذي يوقظ الموتي ويحيي العظام وهي رميم.

الحجرة ما زالت تتمتع بنور هادئ، ورماح النور وضوضاء القاهرة بعيدة. والمقال ما زال يكتب نفسه، منهج البحث التاريخي بين أحمد أمين، والمستشرق آدم متز، مقارنات محسوبة بين من يعلم ومن يشعر ويحس. أحمد أمين كان موضوع رسالتي للدكتوراه. أحبه، وأعرفه وأخاف منه، أتجنب جمله الكاشفة الخطيرة، وألوذ بذلك الجزء العملي الواقعي من فكره. أعيش عليه. لو أنه كان حيا لرماني بالحجارة كأنني امرأة زانية. لكني أتحدث عنه بتبجيل واحترام متخف مهيب.

لم يكن رجب يحكي لي قصة الديك وحدي، كنت أنا المستمع الأول، ولكن كان يأتي أحيانًا «صافي» صبي الميكانيكي، الذي يعمل في دكان العربات الوحيد، الذي فتح مؤخرًا على الطريق السريع كان يأتي هاربًا إلينا من الأسطي والدكان، ويسأل رجب أسئلة كثيرة متلاحقة، ويستفسر كثيرًا عن الوقت، واللون والمكان، ويسأل متى صعد، ومتى نزل، ثم يستفيق من الحكاية فجأة، مدركًا أنه تأخر على الأسطى والدكان، فينصرف مسرعًا، مؤكدًا أنه سوف يعود بعد قليل. عندما يجمع رجب أشياءه، ويستعد لقضاء الليل جنب بضاعته تحت رصيف المحطة كان يقول لي وهو يصرفني: «اسمع» أو لا تسمع.. لقد ابتلع الكهف زوجتي، وذهب ببصر ابنتي وعقلها، أنت و «الصافي» تعرفون كل الحقيقة، وكل التفاصيل، يومًا ما سوف ترون الكهف، وتصدقون رجب. سيكون هناك ذهب وأحجار لامعة وجماجم، وستقوم البلد وتقعد بحثا عن ديك بلدي ملون، يرقص مذبوحا فيخرجكم.

كانت المقالة قد اكتملت. عشرون فلوسكابا عندما تكتب على الماكينة أو تزيد، أضفت اسمي كاملاً: د. منير عبد الحميد فكار، وأضفت تحته: القاهرة ٨٨

* * *

يتكرر هذا اللقاء كل عام، ولا أعرف أبدًا لماذا أذهب إليه، ماذا آخذ منه: لقاء الزملاء، أساتذة القسم في القاهرة هنا. نعد له من أول الإجازة، ويشترك الجميع في دفع تكاليفه الظاهرية، يتأجل مرات، ويعاد ترتيبه مرات، مرة تحضره الزوجات، ومرة لا يحضرن.. يعقد

مرة في مكان عام، ومرة في بيت واسع من بيوت الأساتذة الذين أنهوا الإعارة واستقروا هنا.

ولكنه ظل دائمًا من أصعب أيام الإجازة وأثقلها على قلبي، رغم أنني في هذا اللقاء عضو قديم، أكثر من عشر سنوات إعارة، يعتبر الواحد منا خبيرًا، مليئا، ومرجعًا في المشاكل، ومطمعا خفيًا لنساء ورجال باحثين عن عقد عمل، أو علاقات، أو بعض النقود، أو على الأقل معلومات تساعد في الوصول إلى أي من ذلك.

في البداية كنت أحب العرض الذي أقدمه في هذا اللقاء، حضرته معي منذ سنوات، زوجتي الدكتورة سناء فرج، كنت أنسج حولها قبل اللقاء كل الخيوط.. وعندما كانت تخترق قواعدي ومنطقي، كنت أضحك بصوت عال، لكي أؤكد جنونها، وعدم معرفتها بقواعد اللعبة والحياة.

لعلني صرت أكره هذا اللقاء من الذكرى السخيفة التي كانت تعقبه دائما عندما تكون هى معي، كانت تعود إلى البيت محبطة، يائسة، لا تريد أن تأتي إلى السرير، ولا تريد أن تشرب، تريد فقط أن تجلس أمامي لكي تحاكمني، وتقارن بين هذا وذاك، بين المال، والمشاعر، وما حدث لنا وللبلد، وما حدث في أخلاق فلان وفي سلوكه، وكيف صار يتكلم هكذا.. وكأنها هى تريد أن تقف خارج كل شيء، متعالية لا يعنيها شيء، لا تريد أن تأتي لفراشي لكي ندفن توترنا معًا، بعيدًا عن الوطن الأول، والوطن الثاني.. بعيدًا عن مصير الأساتذة. ومستقبل الأولاد.. فأسهر وحدي، أراجع حساباتي في

اجتهاد وتواضع وخوف، مدركًا ما دفعت، وما يجب أن أدفع حتى أصل في النهاية إلى رقم محترم يبعث في نفسي الأمان.

الليلة نلتقي، «أساتذة القسم» تحت سفح الهرم، رجالاً فقط، هذا مجاملة لي، مراعاة لظروفي، الليلة عليَّ أنا أن أدفع الحساب كاملاً هكذا قرر الدكتور رئيس القسم في هزار سخيف على التليفون.

ذهبت مبكرًا عن الموعد بساعة لكي أتفق مع الجرسون على العدد والطعام، وعلى البيرة، والنبيذ، وعلى زجاجة الويسكي التي تقدم في الوقت المناسب، كانت النفقات مزعجة! من يصدق أنك تنفق كل هذا على مائدة طعام في القاهرة!

أخذت معي بعض الجرائد والمجلات التي وجدتها في الطريق، نادرًا ما أشتري صحفًا في القاهرة. قلبت الجرائد والمجلات باحثًا عما يمكن أن يتكلموا فيه، وما يمكن أن يثيروا حوله نكتًا أو مناقشات صرت حقا بعيدًا عن هذا المكان، أستغرب ما أقرأه وأقارنه دوما بأشياء قديمة. تستهويني صفحات الجرائم والبخت. أكره المقالات والتحليلات والتعليقات، والاستعراضية عند كتاب الأعمدة، أبحث في الجريدة عن حقيقة واحدة فلا أجدها.

تقاطر الجميع على المحل، ولم يتخلف أحد، واختلطت وجوه جديدة جائعة، مع ثوابت عريقة قاعدة، ظل جرسون المحل يخدمهم جميعًا، وهم يتكلمون في السياسة، ويطلبون أنواعًا من الطعام والمزة، وأنا أبتسم مؤكدًا أنني أفهم ما يعنون، وسأدفع ما يطلبون. كان عليّ أن أهتم أساسًا بذلك الكاهن الأبيض الكبير الذي أجلس نفسه على رأس المائدة.

عرفت بسرعة مطالبه، وأسماء الأساتذة الذين يريدني أن أتصل بهم، وحددت مواعيد لكي أستلم منه الخطابات والأوراق التي يريد أن يبعث بها إلى هناك، كما لفت نظري لما تطلبه مني زوجته والأولاد بحق العشرة القديمة والعشم، استأذنته قليلاً لكي ألتفت إلى الدكتور الصبي الجديد الذي أشيع عنه أنه مندوب المباحث أو المخابرات، وأن مستقبله فوق، في رئاسة الجامعة، أفاض الشاب بلا مناسبة في تحليل الموقف السياسي. والعلاقات العربية، وتمترس خلف أقوال محفوظة خائبة عن العلاقات الطيبة، والتبادل الحقيقي، وعندما تكلم عن المشكلة الفلسطينية والتطبيع أحس الجميع بالخطر، وانتقل الحديث إلى المرتبات والبدل وفروق العملة.

كنت أحب أن أرجع في كلامي دائمًا إلى إذاعة لندن، وكنت أجد دائمًا فيما سمعته فيها أمس شيئًا جديدًا يفاجئ الأيديولوجي والمتحمس وصاحب النظر القصير.

ولكنني رجعت في تلك الليلة إلى مقال هام قرأته فورًا في جريدة معارضة عن التعليم، وعندما أزاح الجرسون الأطباق وجاء بزجاجة الويسكي، أطلقت ذلك الرأي الذي قاله كاتب المقال وأفضت فيه فبهت الذي كفر.

انسحب البعض شاكرًا، وبقي البعض لكي يشرب، وآخرون بقوا مجاملة ولكي يشهدوا نهايات اللقاء، بعد ساعة جمعت أطراف الحديث، وعدلت من سكر، ودفعت الحساب، وسكنت جميع الأطراف في سيارات تحملهم إن لم يكن إلى بيت فإلي أقرب مكان.

وقال لي الدكتور «نظير» وهو يرافقني في السير قليلاً في شارع الهرم حتى نجد تاكسيًا يقلنا معًا إلى قلب المدينة.

ـ ليلة رائعة يا دكتور.. ولكن لو كانت الدكتورة معنا لجاوزنا عنان السماء، أين هى يا دكتور؟ وأين الأولاد؟ أجبته وأنا أكاد أطبق على رقبته.

ـ أكلتهم يا دكتور نظير، أكلتهم. ألا تري دماءهم على صدري وأسناني وفمي!

الفصل الرابع

قطة من الحي الإفرنجي

نعم في أول السنة الثانية من الإعارة، ماتت أمي، وفي إجازة آخر نفس السنة تزوجت أنا الدكتورة سناء فرج. حصولي على إجازة بمناسبة الوفاة كان أول امتحان حقيقي لعلاقاتي، فهمت كيف أعامل وأتعامل.

للعلاقات في الوطن الثاني قواعد وقوانين تعلمتها، فعلمتني أن أكون واحدًا، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة عندما تقتضي الظروف، فهمت شكلاً جديدًا للعلاقة بين الوسائل والغايات، وتدربت أن أضم صدري على مشاعري، وأن أظهر للناس دائمًا بشكل ناجح جديد، كنت فرحًا مبهورًا بالنقود التي أقبضها، أحصيها، أجمعها، أضربها في سعر التحويل، فتبدو لي نقودًا مصرية هائلة، تنقلني إلى صعيد آخر، وتضعني في ساحات لم أدخلها من قبل، كان عليَّ قبل كل شيء أن أتماسك، وأن لا أبدي فرحي أو انبهاري، بل أدفنها تحت قشرة من التعالي والتبرم والضيق بأحوال الدنيا عموما.

كانت وفاة أمي، وزواجي الذي تم بحساب تصورته دقيقًا، بدايات انطلاقي إلى مدارات الفراغ الذي أتنفسه، فقدت تدريجيًا صلتي الحقيقية بالأشياء والمعاني. تم كل شيء قطرة قطرة، وتسربت دمائي مع الشهور والسنوات، شربتها الرمال التي تفصل وطني الأول عن وطني الثاني، وتساوى ما أحبه مع ما أكرهه، وخضعت الأمور لمقاييس جديدة، صرت إناء أجوف يرتدي بدلة جديدة وقميصًا أبيض.

بعض تقلصات في أمعائي، ورغبة شديدة في إخراج بعض غازات بالتجشؤ أو غيره طعم موت في فمي، أشم رائحته، وأرى روحي تخرج من أنفي وتختبئ في أقرب مكان كصرصار مرشوش بالبودرة.. لكن في النهاية تتغير ملامح وجهي، يصبح جلدي مشدودًا شمعيًا بلا روح، يخاطبني الناس فأسمع صوتهم صدى يرن في داخلي الأجوف.

لم تقلب كل هذه المواجع الآن؟ لم أنت خائف مضطرب اليوم، وهذه البرودة والسخونة المتتالية في الأطراف، والعرق، وارتباك ضربات القلب والتنفس وزغللة العيون وتحديقها في فراغ بلا تفاصيل أو حدود. لم يعد حولي تهديد خارجي أخشاه. صارت نقودي تدافع عن نفسها وعني، فمن أين يأتي هذا الفزع الذي يلازمني، ويسكن بين اللحظات.

انتبهت إلى قامته الطويلة تسد الضوء الذي يتسرب إليّ عبر زجاج غرفتي في البنسيون الخالي، قرب منتصف النهار. كنت أتوقع مجيئه منذ أول الإجازة ابن عمي الفلاح محمود السيد فكار، هو ابن عمي،

في نفس سني، أو أصغر قليلاً. لم يستمر في التعليم، دفع به أبوه إلى الأرض، بينما أنزلني أبي إلى تيار التعليم ما زال بيننا شيء خاص، رغم مكائد البلد، وصغائر أهلها معي. رغم جلبابه، ويديه الكبيرتين، والطاقية النظيفة التي لا يغير وضعها على رأسه، فما زال بالنسبة لي حكيما متصلاً بشيء لا أملكه، يصلني بشيء لم أعد أستطيعه.

لنا يوم أو يومان معا في كل إجازة صيف أقضيها في القاهرة، قديما كان حرًا قويًا، قادرًا على اقتحام خصوصياتي، بفهم لا يشترك معه فيه أحد. لكنه صار في السنوات الأخيرة، خاصة بعد أن طلقت زوجتي وتركت أولادي يستتر وراء عطف وإشفاق على حالي، يخفي به فزعًا وخوفًا على حياته هو ومصيره.

بقيت راقدًا في فراشي، بينما جلس هو إلى المنضدة التي أكتب عليها، يقلب أوراقي وكتبي، ويستجمع شجاعته لكي يفتح موضوعًا ما، أراقبه وأنا أسير اطمئنان إليه قديم، وألفة أشتاق إليها ولا أحبها. فلاح هو، وأنا لم أعد كذلك. تعقدت بي الطرق، وتشابكت الدوائر وتفاصيل ما حدث بيني وبين أهلي، وقريتي، وبينه، قشرة جرح غائر، لا أعرف متى ولا من ينزعها.

هو وحده الذي أئتمنه على الشيك المحدد الذي أرسله شهريًا إلى والدي. يصرفه ويصرف معاش الوالد الضئيل، ويبقي الأمور سائرة إلى حد ما في البيت الذي دمرته مشاحنات، وبغضاء، وأطماع لا سبيل إلى تحقيقها. أنا لم أعد أستطيع أن أتدخل أكثر من هذا في شئون تلك الأسرة الكريمة. كلهم طمعوا في وضعي الجديد الذي صرت إليه، ولم يفكر في شئوني أحد، إخوة وأخوات أنشبوا أظافرهم في لحمي، وتصوروا أنني بئر بترول لا تنضب. هم وأولادهم صاروا

ينظرون إليَّ نظرة لا رحم فيها ولا قربي. قدمت كل ما أستطيع: هدايا، وعطايا، وقروضًا. لكن أحدًا لا يشبع، ولا أحد يشكر صاروا يتكاثرون حولي بشكواهم. وقضاياهم، واتهاماتهم لي، حتى عافت نفسي وجوههم وصرت لا أريد أن أسمع شيئًا عنهم. هو يستطيع أن يحسب كم أنفقت، وكم مشروع خائب اشتركت معهم فيه، مشاركة على بهائم، وفي قطع أرض، وأدوارا فوق بيوت، عربات أجرة وملاكي، وسوبر ماركت جديد على الطريق السريع، ومشاريع وهمية غامضة.

ساهمت في كل شيء وعقدت عشرات الجلسات العائلية للتفاهم للمشارطة وللصلح. أخذ أخي الكبير ما أراد، ثم انفصل هو وعائلته وعاش في أسيوط، أما الصغير فقد اختفى هو الآخر في هجرة غامضة إلى العراق، لم يبق في كفر شوق إلا أبي، والبنات وأزواج البنات، وأولاد وبنات يقولون لي.. خالي.. خالي.. كلهم يتصارعون على البيت القديم، الذي يكاد ينهار فوق رأس الرجل العجوز الذي كاد بصره أن يكف.

لم يكن محمود، حتى في صبانا، مشاركا في جلسات رجب عند محطة القطار، حيث الكوبري، والشجرة التي ينكسر تحتها وحولها ضوء النهار، كان أبوه يشده بعيدًا، ويمنعه من الاقتراب من هذا المكان، وظل هذا أهم ما بيني وبينه. لا حلم له، ولا أفق. ولا خيال بل طين وزراعة وعيال.

فتحت شيش الحجرة فغمرها ضوء باهر. خرجت أنا وهو إلى شرفة صغيرة نطل منها على وسط القاهرة.

أخذنا نراقب سيارات كثيرة تمر تحتنا، ورجالاً نحسبهم نساء، ونساء محجبات، ونساء مثيرات لم نحلم بهن، وأصواتا عالية تخترق ما كان يحكيه، فيبتلع ريقه مرات ومرات، ثم أسمعه يقول:

ـ عاوز دكتور مسالك بولية يكون معرفة.. وبس يا سيدي مش عاوز منك حاجة ثانية.

أخيرًا عرفت الموضوع الذي كان يلف حوله ويدور، واطمأن قلبي.

* * *

موعدي مع الطبيب النفسي في السابعة. كنت في العيادة قبل الموعد بربع ساعة. كانت العيادة خالية إلا من التومرجي الذي انشغل بقراءة مجلة قديمة في يده، وأدار موسيقى خافتة استقبلني في حياد زاد ارتباكي ورغبتي المستمرة في الفرار، أتردد عليه منذ خمس سنوات عقب الطلاق، فبعد أن انتهت المعارك والمشاحنات، استقرت الأمور على وضعها الأخير، لاحظت تردد مجموعة من الكوابيس التي أخذت تزورني في صحوي ومنامي، كنت أتصور أن سناء أخذت شيئًا لم نتفق عليه، لا أعرف ما هو بالضبط، ولكنه شيء غال ثمين كنت أخفيه في مكان لا أذكره. تسيطر الصورة على خيالي، وتتمكن مني المخاوف، فأظل أقلب الغرفة التي أنا فيها. أخرج ما في الحقائب ثم أدخله في قلق واضطراب زائد، ولا أعرف كيف أتوقف. كنت أضبط نفسي منبطحًا على وجهي أنظر تحت السرير، أو متسلقا لسلم خشبي لكي أبحث فوق المكتبة، أو خلف الأوراق القديمة، يملأ العرق جسدي في الشتاء أو في الصيف، وأحس أن

ساقيَّ لا تحملاني، فأستلقي على السرير، ويغزوني نوم مضطرب متقطع.

عندما دخلت إلى الطبيب استقبلني في بشاشة محسوبة، كأنني أحمل له أخبارًا سعيدة، كلما رأيته أحسست أن أصابع ناعمة تلامس جلدي العاري، وأن برودة تمس قلبي. أشعر بفرح وكأن شيئًا خطيرًا لا يمكن أن يقع لي وأنا هنا، ثم تعاودني رغبة في الفرار، ولكنني أتماسك فأنا لست مجنونا تمامًا بعد. لا بل عقلي يزن هذا الجالس أمامي وعشرة من أمثاله.

أعرف تلك البضاعة المغشوشة التي يتاجر فيها، وذلك الكلام الفخاري الأجوف الذي يدق عليه بأصابعه ولسانه، فيخرج أصواتًا لها وقع مخدر. كسيجارة حشيش في الصباح. يزيح مقعده إلى الخلف. وتكسو وجهه ثقة بالنفس هشة مزيفة، ويحدثني عن متاعب منتصف العمر، وعن المراهقة المتأخرة، ويبدي إعجابه بقدرتي على احتمال الغربة وكل المصائب التي جلبتها لي وللأسرة. ثم يحدثني عن المقاييس العامة، والمقاييس الشخصية، وعن التكيف، والعبء النفسي.

كانت وصفته الثابتة هى دواء مهدئ خفيف في الصباح وفي المساء، مع الامتناع عن تعاطي أي مشروبات أو مخدرات، والالتزام برياضة، أو مشي يومي منظم. عندما كنا نتحدث عن زواجي أو طلاقي، أو أجد رغبة في الحديث عن الأولاد. كنت أشعر به وكأنه يريد أن يغير الموضوع، كأنه يقول إن هذه مشاكل اجتماعية خارجة عن دائرة اختصاصي، وإن عليّ أن أحل هذه المشاكل بنفسي في إطار المبادئ العامة التي يحدثني عنها.

أحاول أن أحدثه عن صورة الأولاد التي تطاردني. تامر ولمياء وقد أمسكا بقميصي، وهما يصرخان في وجهي بلا صوت. كل ما فيهما طبيعي ما عدا عيونهما، فهي من حجارة مليئة بدموع لا تنحدر. أمسك وجهيهما. أهز الوجه. لا أسمع لهما صوتًا ولا الدموع تنهمر.

كان يسمع لي وعلى وجهه ابتسامة كريهة. فأتوقف عن الحديث وتستغرقني الصورة المرعبة، وأنا ما زلت أسمع منه نفس الأغنية القديمة عن أن حياة الإنسان كل متكامل، وأنه يصنعها بمجموعة اختيارات. والاختيارات دائمًا سليمة ما دامت هى اختياراتك أنت المسالة في التحمل والقدرة على التكيف. يزداد إحساسي بالأعباء، وبأنه لا يفهم شيئًا. وبأن ما يطاردني قدر ملعون خاص بي وحدي. وبأن هذا الشاب الجالس أمامي لا يمكن أن يفهم فيما أقول.

أعود أقص عليه قصة النار التي أراها مشتعلة في أطرافي، وفي البطانية والمخدة الثقيلة التي أغطي بها وجهي عند النوم فيعود يحدثني عن ضرورة الحركة والرياضة، والاستعانة بذلك المهدئ الخفيف لم لا يصرخ في وجهي أبدًا هذا الرجل؟ لم لا يرفع سماعة التليفون لكي يبلغ عن مجرم مجنون هارب من وجه العدالة. إنه بدلاً من ذلك يبتسم في وجهي، ويضع يده على كتفي مؤيدًا مطمئنا. فأعود أشعر بأنني أسير بهدوء بين صفين من الكباش التي تحدق فيَّ، وأنا أحدق فيها بحثا عن اختلاف ما في الوجه أو الملامح، ومن خلالها تعود عيون الأولاد مكررة مرصوصة بلا نهاية. ثم نغرق جميعا في بحر من الخواء. أشعر بأصابعه الباردة، تلامس جلدي العاري كأنها برص صغير.

على الرغم من أنني كنت أسمع صوتًا في داخلي يقسم بأنني لن أعود، إلاَّ أنني كنت أعرف أنني سأعود في الموعد الذي ضربه لي قبل انتهاء الإجازة.

هنا أجرع كأس المرارة، وأعرف أنها كأس. هنا لا ينتزع مني شيئًا، سوى بعض جنيهات ألقيها أمام التومرجي المحايد.

هنا لا ينتزع مني شيئًا، بل أحصل على الدعم والتأييد، ومن أعلى سلطة: سلطة العقل، والمخ، والأعصاب، سلطة الروح، تنطلي لعبتي عليهم جميعا، وأحصل على جائزة الشر العالمي، الشر الحقيقي هو ألا تنال العقاب، أن تفر بالجريمة وأنت تسمع عبارات التشجيع والتأييد. هنا قد صرت شيطانًا حقا، شيطانا بارعا جميلا. ثم تستسلم بعد ذلك لما شئت من أحزان. صانعا لنفسك عذابك الخاص وتأنيب ضمير مستأنس طيب، تتمتع به وأنت تأكل سندوتش زبده بالمربى في الصباح. إنه يحدثني عن المقاييس والاختبارات. لا تصفيق إلا لمن انتصر وأنا المنتصر الأخير.

* * *

تعادل حالتي الذهنية في القاهرة أصبح أمرًا صعبا في السنوات الأخيرة. حالة الحذر والانتباه واليقظة التي أعيشها هناك في وطني الثاني لا تلبث أن تتشقق ثم تتداعى منذ أن تهبط عجلات الطائرة أرض المطار.

ما إن استرد حقائبي وأوراقي بعد الجوازات والجمرك، حتى أجدني غارقا في بطن حبلى بكل الاحتمالات: العاجز، والقادر، الممكن والميئس والمستحيل.

صوت شوارعي، وضوء نهاري. أين أنت من مصر الآن أيها الجرذ المتلصص الحقير؟ في أي شوارعها تضيع، وبأي زقاق أو حارة في قلب كفر منها تلوذ؟ أين أنت من تلك القرى المفتوحة على أرض الله، حيث الآفاق أوسع من رحمته. أشجار حقولها البعيدة.. رحيمة.. رحيمة، رحمة لا نهائية، لا يعيش في ظلها شر أتوماتيكي ولا تسكن إلى جوارها شياطيني البارعة المصنوعة من الورق «الأزازْ» والبلاستيك المصنوع.

تعود إلى ذهني صورتي الأساسية ومنظري الوحيد، محطة كفر شوق، جانب منها مطروق والآخر أجرد مهجور، الجانب المهجور فلنكات وقضبان، كأنها معبد قديم لقبائل منقرضة، وعلى الجانب الآخر شباك التذاكر، والشجرة التي يتكسر عندها، وتحتها ضوء النهار، حيث يجلس رجب، والصور، والدوم، وأنا وصافي الميكانيكي، والكهف، وحلم الذهب والأحجار الملونة البراقة، والديك المذبوح يرقص والدماء حول رقبتة وتحت قدميه، وبخور نافذ الرائحة، ومغربي بدوي رحال، يسحب فتاة ضريرة وينادي على كل من له حلم، أو أمل، أو طموح.

يأتي هذا المنظر وحده، ويتدفق مثل دمائي في العروق أما بيت سناء فرج في الكوربة في قلب مصر الجديدة، فإنني أنا الذي أستدعيه. أستحضره كخطوة أولى على سلم الاختيارات والمقاييس في ذلك البيت كفت الأشياء عن الحدوث وحدها دون رسم أو تخطيط أو حساب. في ذلك البيت أحسب حسابي، وأدقق كيف أختار وأخطو وأتقدم، فوق سجاد مزركش نظيف، وأركان خالية فيها قدور من نحاس أصفر، تتدلى منها أوراق نباتات ظل خضراء لينة رقيقة كان

أبو سناء ـ فرج بك ـ موظفًا كبيرًا على المعاش، يسكن تحت أوراق نباتات الظل، ساكنًا مستكينًا، بعد أن امتصت مصر الجديدة حياته وحيويته، كل ما فيه من إنسانية، وهندسة معمارية. وأحلام، وأعطته بدلاً من هذا كله وظيفة حكومية كبيرة، وزوجة وأبناء وبنات. سار وسط تقاطعات حياتهم المعقدة في خطوط مستقيمة.

استقبلني خاطبًا لابنته، وهو موافق قبل أن نتكلم. كل شيء قد تم الاتفاق عليه في غرف أخرى قبل أن ألقاه، بيني وبين الدكتورة سناء، وبيني وبين أمها، وبينها وبين نفسها، وعليه هو قبل أن يموت أن يضع خاتم الأبوة فوق عقد زواج الدكتورة التي قاربت الثلاثين.

كراسي القطيفة صارت خالية حوله، بعد أن نحل جسده، وجسد الهانم زوجته من مرض السكر، والقلق الدائم على الأدوية الناقصة والمعاش الثابت الذي تتضاءل قيمته على الدوام، والدكتورة سناء آخر الأبناء تخطب ولا تتزوج. صارت حياتها تتردد بين حالات اكتئاب، وبكاء حاد، وبين سهر أحمق، خارج البيت وعلاقات تفور مثل مياه غازية مغشوشة. ومكالمات تليفونية مغلوطة، أو طويلة، أو مبتورة بلا أسباب مفهومة.

تزوجتها هنا، في ظل تلك الأوراق المدلاة، والمعلومات المتاحة «هى لك» ما دامت هى موافقة.. دكتورة هى في إدارة الأعمال.. فماذا يمكن أن أقول. كان رجلاً طيبًا ـ رحمه الله ـ وكان طقم أسنانه لا يساعده على التحكم في لعاب فمه.

طبعا، لم تكن زوجتي بكرًا عندما دخلت بها، كانت قد عرفت قبلي رجلاً أو اثنين أو ثلاثة على الأقل. وعندما أغلقت علينا غرفة،

عرفت أن أسرارًا وأوضاعًا جديدة، تعلن عن نفسها عندما تغلق على الرجل والمرأة غرفة، وأن هناك أشياء كثيرة تحت الجلد، تتدفق بلا حساب، كما يقذف الرجل فجأة، وهو يشعر بأن تحته امرأة تصيح.

كانت سناء فرج قطة إفرنجية مدربة، وكنت أحاول أن أكون ذكرًا صعيديًا.. لوني أسمر، وعيوني مقتحمة ولي فحولة بادية، وصوت يدغدغ جلدها الرقيق، ولا أذكر بالضبط ما قالته لي هى في انتشائها الأول معي بعد أن تزوجنا، لكنني أذكر أنها لامست أنفي وذقني وفحولتي، وهمست باسمي مرة أو مرتين، ثم استكانت إلى طرف السرير.

* * *

اليوم يوم جمعة كان النهار ثقيلاً، تمر ساعات الصباح والضحى ثقيلة كئيبة، أتردد بين الشرفة والسرير، أخرج بعض أوراقي، وأتذكر أن لي أوراقًا هامة أخرى تركتها في بيتي في «دلوك» أفتح جرائد الجمعة، وأسمع فيما بين السطور نوعًا من الأنين ليس كصوت البشر، أحاول أن أربط بين الوقائع والتفاصيل، وأرى الأشياء متجاورة في فوضى كأنها سقطت فجأة من طاقة كبيرة فتحت في السماء، أتخذ بيني وبين نفسي سمت المفكر الذي تقلقه هموم عامة، فأتوقع كارثة، وأرى اندفاعًا رهيبًا إلى هاوية. أبحث عن علامات الساعة في أخبار الوطن، أو الوطن الثاني، ولكنني أرى الأشياء متماسكة تسير في فوضاها الخاصة يحرسها ملاك الفقر، وشيطان اللذة، ورب المال والسلطان. والحمد لله أنه لم تعد لي جذور لا هنا، ولا هناك.

صرت وطن نفسي، أنا مالي وأرضي وعقاري. وكل ما عدا ذلك

أحبار فوق أوراق، وكلمات ممضوغة في فم أدرد عجوز شاخت بلادي وهي لم تعش صباها بعد. أما أنا فظاهرة كونية. قوتي في وحدتي وفي تلك المسافة المستحيلة التي صارت تفصل بيني وبين الناس، صرت أراهم كنقوش جدارية ذات بعد واحد أو بعدين. هم صفحة في كتاب أقلبها وقتما أريد.

هم أولادي نعم، ولكن هي قد أخذتهم، غار الجمل بما حمل قطعت هي ما بيني وبينهم منذ البداية، علمت لمياء أن تراني بعيونها، وكذلك فعل تامر عندما كبر، وصار يعرف كيف يحدثني باستهجان مستمد من مشاعرها نحوي، تلك القطة الإفرنجية التي لم تعد تصلح لا لهذا ولا لذاك، كم يوم فسد وكم ليلة ضاعت وأحبطت عندما جعلتني أشعر، بأنني دونها، تلك القطة الخبيثة التي لم تشبع أبدًا من المضاجعة. لم يفرح أولادي أبدًا بما أقدمه لهم، لأنها كانت تستهجن دائمًا ما أحضره أو أشتريه، كانت تراه دائما أقل من مقامها العالي، حطم تامر لعبة غالية، فضربته، فصاحت فيَّ أمامهم جميعًا أنني جلف، وأنني لا أستحق ما أعطاني الله من نعمة، ربما كانت هذه هي ورقتها المخيفة التي أخذتها دون أن أعرف، زرعت في روحي هذه الكلمات الحمقاء: أنا جلف، وأنا لا أستحق. وربت أولادي على هذا اليقين. ليس من الذوق أن تشعرني أنني قليل الذوق، أنا أعرف الذوق وأرى وأعلم فساد الذوق الذي يزحف على حواسنا جميعا.. الشكل والسمع والطعم والشم والملامسة، أرى فساد الذوق يتصاعد كمياه الصرف الصحي، ولكن ماذا أفعل. ماذا أفعل أنا حيال ذلك؟ هل أصلح البلد أم أتمرد أم أنتحر؟ أم أندب مثلها ومثل النساء. كلها أفعال حمقاء ينقصها التكيف والمواءمة،

تنقصها تلك المادة السحرية اللاصقة التي يفرزها الذكر الفحل القابض على مقدرات العصر.

هى لم تفهم ولن تفهم، جاءت إلى حياتي تحمل أحكامًا، وخرجت وهي تحمل نفس الأحكام، بعد أن وضعت أنا عليها خاتمي وتوقيعي، وشيعتها باللعنات.

بعد صلاة الجمعة أدرت رقم تليفون بيتهم في الكوربة، خاطبني صوت متنطع غريب، خادم أو قريب، قال بعد أن عرف أنني الدكتور منير: أنه لا يعلم عنوانا في مرسى مطروح، وأنه ما زال لا يعرف متى يرجعون.

* * *

هذا الذي يسأل عن مرتبي هناك، وكم أقبض وكم أدخر، لا يعرف أنني أعمل هناك، وأشقى بعشرة أرواح.

مرتبي لم يعد يعني لي شيئًا، فقد شققت طريقي في مجال التأليف والترجمة والتوضيب والإعلان والنشر. صار داري دكاني، معارفي زبائني، ومن يحبونني طريقًا لي.

صنعت حولي طبقة عازلة تحميني من أصحاب المال والبلد، وتضعني في وضع خاص كخبير قديم يعرف حلاً لكل المشاكل، أنا طبيب نفسي هناك في وطني الثاني، أدعو إلى التكيف والملاءمة، وحرية الاختيار.

حتى سلماوي، بائع القماش السابق في محل القطاع العام، والذي ضبط متلبسًا في قضية رشوة، وهرب تاركًا خلفه بناتًا خمسًا وأمهن،

حتى سلماوي وجدت له حلاً، لم تكن لديه أوراق، وظل يعمل ويطرد، ثم يعمل ويطرد،ويختفي من الشرطة. حتى حصلت له على وظيفة بواب في العمارة الجديدة التي تقام أمامي في «دلوك» وجعلت منه سمير الليالي الفارغة، يحكي لي كم دبر هذا الشهر، وكيف أنه سيحصل على أوراق مزيفة. كان يجيد صناعة الشاي ويكتب خطابات غريبة كأنه نسخها بالكربون للبنات الخمس وأمهن، وتكتمل سعادته عندما كان يفتح علبة «بلوبيف» ويضع أمامه عددًا من الأرغفة البيضاء.

أصبح سلماوي صديق غربتي الوحيد منذ سنوات. يعرف المترددين على داري، وزواري وتلاميذي، يعرف متى يرتدي ثوب الخادم، ومتى يخلعه، ويرتدي زي الحارس أو الساقي أو النديم، بيته وبناته في المحلة الكبري كان وهمًا كبيرًا يكاد أن يختفي منه أو يضيع فهم لا يعرفون له عنوانا، هو فقط يعرف عنوانهم، والأوراق النظيفة وهم آخر استنفد منه مرتين ما ادخره في سنوات. في مثل هذه القضايا. لا أتدخل، ولا أبدي رأيا. ومع ذلك يبقى سلماوي صديقي.. وأنا صديقه.

أوصلني حتى باب الطائرة. لم يعطني خطابًا، ولم يطلب مني أن أسأل عن أحد. ولكنه كان ملتاعًا يتلمس بعيونه وكل كيانه حقائبي وجسدي المسافر، كان صورة غريبة لبلاغة عصرية خرساء، أحسست بها وحملتها معي.

جلس إلى جواري في مقعد الطائرة، شاب يشبه عدوية أو كتكوت. أمير من أمراء الهجرة الجديدة، والأموال المستوردة. ما إن جلس

في المقعد حتى أخرج نقودًا خضراء كثيرة كان يخفيها بلا سبب في أستك الشراب وتفحصني بعين ذكية مستريبة.

بعد الإقلاع بقليل كان قد رفع الكلفة تمامًا، وطلب مني أن أكتب له أوراقه لأن خطه عاجز، ثم استطرد في الحديث قائلاً: إنه يصاحب على هذه الطائرة، ثلاثة نعوش لعمال من زملائه سقطت بهم سقالة. وقد اختاره البلديات لكي يقوم هو بهذه المهمة الكئيبة. ولكنها إجازة. إجازة على أية حال.. أليس كذلك.

في زحمة الجوازات والجمرك تذكرته. استدرت خلفي فرأيت رأسه بين الرءوس، وهربت فارًا، قبل أن أعرف كيف سيتصرف في نعوش أصحابه الثلاثة.

الفصل الخامس

الجرح والتشريح

كما يأتي المنظر وحده، ينصرف وحده، منظر كوبري محطة «كفر شوق» القديم المصنوع من حديد وخشب.. يربط الجانب المطروق من المحطة بجانبها المهجور، كذلك تتكرر دوامة الهواء الفارغة التي تسحب روحي من الداخل فأغرق في فراغ ثقيل أسبح بقوة ضد تياره حتى أعود إلى أي شاطئ، ملايين التفاصيل الصغيرة تتطاير مثل ذرات الغبار، تحت الشجرة العجوز التي ينكسر حولها ضوء النهار، لا تهدأ حتى يرش رجب الأرض المحيطة به بالماء، فتنبعث رائحة خاصة تملأ روحي فتستقر التفاصيل.

تعلمت، ودرست، وتزوجت، وسافرت، في سرير المرض، والحب في الحمام، والطائرة والقطار، يغزوني المنظر ويرحل معي حتى أحسب أنه في عيوني أو هو مطبوع على قلبي، لم أجد له أبدًا إجابة. أهرب منه طوال عمري. كما كنت أهرب طوال النهار من البيت. أقضي العطلة الصيفية إلى جوار رجب في هذا المكان، إلى

جواره كنت طفلا. وظل هو هناك من الأبد إلى الأبد. نائما، أو ميتًا، أوحجريًا. أو لا وجود له.

الأمر المؤكد الوحيد أنه من أهل البلد، كان غريبًا، جاء من الشمال، جاء من عشر أو عشرات السنين، كانت له زوجة وابنة بيضاء، شعرها أصفر وعيونها ملونة، لم أرهما أبدًا، ولكن كأنني أعرفهم، يقولون إنه كان صاحب صنعة ودكان، وإنه كان نجارًا، كذلك يقولون إنه كان صاحب بيت صغير في أطراف القرية بناه بنفسه، وأشعل فيه النار بنفسه في سنوات بعيدة لم أعشها، ولكنها حاضره في ذهني مليئة بالتفاصيل، كأن النار ما زالت تأكل أثاث البيت القليل، ممسكة بعروق الخشب في السقف. تقول أمي وهي تمسح وجهها الطيب بيديها وتستعيذ بالله: الحمد لله أن الرجل ما زال يعيش، فهو قد رأى الجحيم بعينيه، أي جحيم، ماذا رأى؟ هل هى زوجته؟ هل نامت مع رجل غريب أم جنت وحلت شعرها وحاولت أن تخنق به ابنتها؟ أمي كانت تزجرني لا تكن لحوحًا، واذهب إلى حال سبيلك.

في ذلك الوقت كان رجب هو سبيلي الوحيد، يسد عليَّ كل طريق، يسكن معي في بيتي وأحلامي. لم يكن أحد في القرية أو في الدنيا كلها، يفهم أو يدرك مقدار اهتمامي برجب وحياته وقصته، كانت كل التفاصيل هامة حتى لون ملابس زوجته، ولون عيون ابنته، وكعوب أقدامها الناعمة، لكنهم كانوا يمنعون عني كل شيء، لا أحد على الإطلاق يريد أن يتحدث في هذا الموضوع، وإذا تحدث فيه كبير أو صغير، فإنهم جميعا يتحدثون وكأن في الأمر عورة، يجب

أن تداری، أو جريمة يجب أن تدفن، وعندما صرت أجلس ساعات طوالاً إلى جواره، لم يكن يجيب أبدًا عن أي سؤال.

هو الذي يتكلم ويحكي، فقط ما يشاء وقت أن يشاء. لو أراد رجب أن يكتب لصار أديبًا فريدًا، وصاحب أسلوب مميز. لا أحد يربط الجمل بعضها ببعض مثله، ولا أحد يقدر على أن يداري الموضوع الحقيقي بموضوع بديل يحل محله في الظاهر فيخفي ملامحه، ويزيده اشتعالاً في الذهن، وكانت حكاية الديك والكهف هى الموضوع الأساسي، بل هى الموضوع الوحيد الذي صنع حوله آلاف التنويعات، وملايين الصور والنغمات. كان يكاد يرسمه أو يغنيه. السنوات الثلاث التي صاحبته فيها جالسا إلى جواره طوال أيام الإجازة، من الصباح إلى ما بعد العشاء، كنا نسكت لساعات، نحدق في الكوبري القديم، أو الشجرة العجوز، ونحدق في الجبل البعيد، حوله سماء داكنة غامضة ثم فجأة يلتقط خيطا وهميا، ويواصل الحديث. يبدأ من أية نقطة، ويتوقف في قمة الأحداث، تعلمت أن لا أسأله فهو لن يجيب، فقط عليّ أن أنتظر حتى يصفو ذهنه مرة أخرى، وتنطفئ تلك النظرات الثابتة المحدقة من عينيه، يعود يبتسم في حكمة ودراية وكأنه يحرك كل خيوط الكون.

الأمر المؤكد هو أنه كان يجب أن أصدقه، أن أؤمن إيمانًا كاملاً بصدق ما يقول، لو أحس أني أشك، أو بدر مني ما ينم عن ذلك، فإنه يتوقف ويغرق في نوبات الصمت والتحديق الطويلة التي كثيرًا ما تصورتها ستدوم طوال الحياة، ولكنه كان دائما يعود لكي تتكرر القصة وتستمر، وعندما جاء صافي صبي الميكانيكي لكي ينضم

إلينا، ويسمع معي قصة الكهف، والكنز، والمغربي البدوي الرحال، والبخور الذي يفتح الكنز، فيدخل إليه من يشاء، على أن يخرج قبل أن تنطفئ النار، ويتلاشي دخان البخور. إذا لم يخرج زائر الكنز قبل ذلك، فإن الكنز يغلق عليه، ولا يفتح أبدًا حتى يرقص أمام فتحته ديك ملون مذبوح، وعندما يفتح غالبًا ما يكون زائر الكنز جمجمة وكومة من عظام، وكان صافي يسأل رجب مرة ومرات، ولكن.. هل كانت زوجتك التي دخلت إلى الكنز؟

ماذا كان اسمها؟ ولماذا تركتها تدخل، وبعد ذلك.. ابنتك؟ وكيف تركتها تسير وراء المغربي البدوي الرحال بعد أن فقدت بصرها عندما رأت جمجمة أمها وحولها عقدها الأصفر الكبير. كنت أحاول أن أوقف سيل الأسئلة التي تتدفق من صافي، فهي لن تضيف شيئًا، فقط هى تعترض تيار الحكاية. كان رجب لا يغضب، يرد في اقتضاب عليه، هى زوجتي، وابنتي وملايين قبلهم، وملايين بعدهم.

وعندما حدثت الكارثة، وأكلت الماكينة الكبيرة ذات السلاح البتار رجل صافي، اعتبر كل كبار البلد أن رجب هو المسئول، هو الذي شغل ذهن الولد، وجعله دائم الشرود والسرحان، إن البلد قد رأت ما يكفيها من جنون رجب وكوارثه وتعاسته. الآن سوف تتخلص منه البلد ـ مرة واحدة وإلى الأبد.

كانوا أربعة أو خمسة، يقلبون كل شيء، ويمزقون الصور الملونة ويدوسون الجوافة والدوم، والحلوى يخلطونها بالتراب، يضعون هدوم رجب على رأسه، ويدفعونه إلى القطار، كنت أدور حولهم ملتاعا، لا أستطيع أن أمد يدي إليه، وصوتي لا يطوله، كأنهم ينزعون

كبدي أو جزءا من أمعائي، وصار المكان كله بعد ذلك كأنه بئر سحيقة دفنت فيها يومي وغدي وأمسي وكل أحلامي.

انتزعني من بئري السحيقة، خبطات لحوحة على زجاج غرفة البنسيون إنه الدكتور صدقي فراج. صديقي كما يقول، وزميل زوجتي، ورفيق رحلة الإعارة الطويلة، شيء ما لا أحب في ريح هذا الرجل، دائما ما يأتي في الوقت غير المناسب، وهو يرى أكثر مما ينبغي، يتكلم فيما لا يعنيه، هو دائما يحمل لي أخبارا منها، أو عنها، أو عليها، أحس بعيونه وهو غائب، ويحضرني صوته في الصمت. تماما كما توقعت، هو يقول إنه قابلها هى والأولاد في مرسى مطروح. هى لا ترسل معه رسالة، لكنه يرى أنها لا تريد أن تفتح أبواب الجحيم من جديد، هى ترى أن بعدي عن الأولاد الآن هو في صالح كل الأطراف.

* * *

تصاعدت دوامة الجنون بعد ميلاد تامر بثلاث سنوات، بعد أن انتهت حفلة عيد ميلاده الثالث. استل كل منا سكينًا وأخذ يأكل لحم الآخر في الأطباق، كنت قد أصبحت خبيرا في استفزازها إذا أردت. بعض إشارات إلى أسرتها. وبعض كلمات عن ماضيها، وعن عدم خبرتها بالحياة، وأنها لا تستطيع أن تفهم. أحيانا أتركها ترغي وتزبد، عندما أحس أن صمتي يغيظها، وأحيانا أردد في بطء وتعمد منلوجا محفوظا ومكررا. لو تكلمت لقطعت رأسها أو لسانها ودفنتها هنا في الغربة، غبية، لا تعرف شيئًا عن حقائق الحياة، مدعية مبتورة الجذور، لا تعرف إلا المرحاض الإفرنجي، والاستلقاء عارية في

البانيو الفاخر، وتدليك فخذيها ويديها بكريم له رائحة. أما إنسانيتها، أو قيمتها، أو ضرورتها قد ضمرت وشحبت تحت قمصانها النيلون الملونة.

وغالبا ما كانت تنتهي هذه المعارك نفس النهايات، تنظر حولها باحثة عن شيء تحطمه، متصورة أنها تحطمني أنا أو تتخلص مني، يتصاعد على فمها سباب كأنه رطان الأجانب، فهي لم تكن تعرف كيف تتكلم وهي تتشاجر، ولا وهي في سرير الغرام، تلقي على جسدها ثوبا يغطيها ثم تنطلق خارجة، فأعرف أنها قصدت إلى بيت الدكتور صدقي فراج وزوجته، وأظل أنتظر عودتهم في زيارة ليلية هم الثلاثة، لمياء ابنتي كانت قد تعودت على هذه المشاهد، تحدق فينا صامتة، تتراجع في خطوات إلى الخلف، تستند إلى مقعد أو جدار، وكثيرا ما أجدها وقد بالت على نفسها رغم سنها التي تجاوزت السادسة. أما تامر فقد كان يبكي صارخا ويدق رأسه في الأرض أو في المنضدة، ثم يندفع إلى حجرة بعيدة ويغلقها على نفسه.

كرهتها في تلك الأيام، كما أكره «الكوسة بالباشمل»، وهي تقدمها فخورة بطبيخ أمها البارد. كرهت أنانيتها وانتهازيتها. التي تستتر وراء معاني حمقاء. كانت في الحقيقة تطمع في كل قرش أكسبه، تراني خزانة زجاجية. تريد أن ترى القروش داخلي والدولارات.. كرهت كل تصرفاتي. وأنا ضقت بثقل وجودها المدمر.

عرفت تلافيف العقل وسراديبه، وكيف أن السلوك والتصرفات قشور زائفة لملايين الرغبات والمطالب الصغيرة الدنيئة، وأن الحب وهم، والمعاشرة صراع، وأن حكمتي الأساسية في أنني أكشف هذه

الأوضاع والادعاءات الزائفة. أقف عاريا داخل جلبابي الأبيض. الذي لم تعرف أبدا كيف تغسله. أقف عاريا، معلنا، أصلي، وفصلي ورغباتي.

البيت بعد أن تخرج هى منه كدوامة تراب، يصبح هادئا، دقائق ويسكت، بكاء الأولاد. يرفضون الطعام، وينامون في غرفتهم والنور مضاء، هى تصر دائما على أن يغسل الأولاد وجوههم وأسنانهم قبل النوم، وأنا لا يهمني ذلك، أحيانا كانت توقظهم، وتدفعهم إلى الحمام، عندما يتم الصلح، وترجع إلى عش الزوجية العامر بالنفايات الثمينة والقبح الوفير.

أنظر حولي فأرى ملابسي، وملابسها الداخلية، لعب الأولاد وبقايا الطعام، أسمع صوت جهاز التكييف العالي، وأكياس الخبز، والمعلبات، أعرف أنني تزوجت كائنا من المطاط له ردف وأثداء، إنها في الحقيقة لا يمكن أن تكون أما أو زوجة، إنها خطأ في حسابي وحمل ثقيل.

أراقب غرف البيت المهجورة المضاءة. ليس فيه ركن كامل أو مكان حقيقي، أشياء لها، وأشياء ليست لي، هى لم تعرفني أبدا، وأنا لم أعد أريد أن أعرفها، فعلي الرغم من أنها تغسل وجهها وجسدها أناء الليل وأطراف النهار، فإن رائحة مؤامرتها ضدي فواحة كريهة كرائحة حيضها الشهري الذي لا تعرف كيف تخفيه. يكون الأولاد قد ناموا قبل أن يدق جرس الصلح المتأخر على الباب، أتركهم يقفون قليلا على الباب، بينما أراقب أولادي وأطفئ النور في غرفتهم، أقول لهم وكأنني أغطيهم وأقرأ الفاتحة على رءوسهم، أبوكم أنا ولا

تشعرون بي ولا تعرفونني. بيني وبينكم الجحيم الذي هو أمكم، هى سناء فرج. هرة ساقطة، لو أستطيع أن أستردكم منها، من أحشائها، ما أنتم إلا نتاج ليال من الحماقة واليأس، أنتم إضافة حية لفشلي وأخطاء حياتي.

ويدق جرس الباب لكي تدخل هى، ومعها هذا الشحط وزوجته، أمد ساقي على المقعد، وأعبث في بطني وشاربي، أو أتشاغل بصنع كوب من الشاي، وتستجمع هى كل ما عندها من براعة، لكي تعود تتحرك فوق آثار خطواتها الميتة في بيتها الذي لم تعرف كيف تحافظ عليه.

وكما تتصاعد أرقام جدول الضرب، نعيد القصة مئات المرات من البداية، لا أرى تفاصيل جديدة، أكرر بالعربية والإنجليزية بلغة المثقفين ولغة الحواري: إنني هنا لهدف معين، لن أسمح لشيء بأن يصرفني عنه، وأننا على ذلك اتفقنا وأنت، وهي وهم جميعا يعرفون.

أشرب الشاي الذي أعددته لنفسي وأدخن سيجارة نادرة باشتهاء، وأبدي ضيقي بالمداخلات العاطفية لحرم الدكتور. ونظرياته هو اللزجة الكاذبة، وأتركها هى تجرع فشل مواقفها المصطنعة اللامجدية، وتجمع ما تناثر من شظايا ما حطمته، أبحث في نفسي عن أية رغبة فيها، أو شهوة إليها، ثم أتذرع بأن عندي في الصباح محاضرة مبكرة، أو موعد هام.

من حرارة النهار، في وطني الثاني، وشمسه الحارقة في الشوارع بعيدًا عن تكييف البيوت والمكاتب والسيارات، تعلمت أنه لا مكان لمثل هذه الترهات. وعلمت نفسي أن لا دخل لمشاكلي الشخصية

في البيت أو خلافه بالعمل ومقابلة الناس بوجه ناجح جديد، لقد كان نابليون بونابرت يقود المعركة، وزوجته تخونه ولكننا هنا لهدف معين وغاية واحدة، ثم إن هذا هو الحل الوحيد. جاءت أخطر الأيام، تصاعدت رائحة خلافتنا في البلد، ووصلت إلى الجامعة، صرت أشمها في غرف الأساتذة، وألمسها في حديث زبائني الذين ينفعونني بالخير، أصبحت أعود صامتا إلى البيت فقد صرت أخشى الحديث معها في أي شيء، أصبح التكتيك أهم من الاستراتيجية، فقد سقطت كل الأقنعة وكل القلاع، وأصبحت حساباتي ومؤامراتي مهددة بالضياع، من أجل عيون أم تامر وحمق سلوكها معي، إذا لم تستطع أن تجد لك زوجة صالحة، فلا تصاحب مصيبة، دعها تخرج من حياتك، كما دخلت في هدوء، بلا جرح ولا تشريح.

هى التي بدأت الجرح والتشريح، وحقا كان كيدهن عظيما، في القاهرة جعلتني الدكتورة أدخل أقسام البوليس، عندما دخلت قسم الدقي وجدتها في كامل زينتها تجلس أمام الضابط ومعها محام سليط، وبعض أقاربها الشبان.

الحمد لله أن الضابط كان شابا محنكا مدربا، ممرورا من الواقع ومن الحياة، لم يتردد في الاعتراف بكل حقوقي، أخذته لصفي بكلماتي المستقيمة، ونبرتي الهادئة، وعرف أهدافها الحقيقية، وغرابة ما تدعيه، رغم وقارها المتعالي الرزين، عرف أنها زوجة ناشز، وتعاطف معي كزوج مطعون مفترى عليه.

أصبح معي، ضمن أوراقي، إثبات رسمي بأنها ناشز، وبأن ليس لها عليّ حقوق وأن ليس في الأمر جريمة تخضع لعقاب.

زوجتي: خطونا معا، وهي في يدي، وحولنا راقصة وراقصون، وها نحن نخرج من قسم الشرطة بعد أن حققوا معي في تهديدها بالقتل وخطف الأولاد.

عرفت تلك الأيام كم تدور على الكازينوهات الجميلة المجاورة للنيل من مناقشات فذة في القانون الوضعي وفي أصول الشريعة، كم يدور في تلك الأركان الهادئة من حوارات جارحة عن النفقة والمؤخر، وحسابات الطلاق والعدة، وكم يتواضع المغالون ليكسبوا أشياء ضئيلة، وكم يلقي اليائس بكل شيء خلف ظهره.

كنت أريد أن أكسب كل شيء، فليس عندي ما أخسره قلبي مات. وماتت كل مشاعري نحوها. وهم من حولها يريدون الحصول على أي شيء.

ولكن جزار الوطن الجديد يخلي اللحم، يضع أمامك قطعا ممتازة، وعليك أن تختار، قطع اللحم الغالية لها مذاق جميل وأنت لن تشهد القطع والتوضيب، ثمنها غال ومعي النقود.

تسربت الوقائع والتفاصيل كما يتسرب الزبد في الخبز الساخن، حاصرت الأخبار قدر طاقتي، ولكن جريدة صباحية نشرت خبرا صغيرا في صفحة الحوادث مفاده «أن دكتورة تتهم زوجها الأستاذ الجامعي بتهديدها بتشويه وجهها وخطف أولادها الاثنين منه وانتهت المسألة في قسم شرطة الدقي بأن كتب هو على نفسه تعهدا بعدم التعرض ووقع الطلاق، وتسلمت الزوجة ولديها، وتنازلت عن كل حقوقها قبله».

لم يكن في الخبر أسماء، لكنه كان صياغة بليغة لما حدث، كما لو أن الصحفي أراد أن يطبع لنا كارت زيارة نعلقه على صدورنا في المحافل والمؤتمرات.

استدار القمر كثيرًا واكتمل بعد ذلك، طلع عليّ وأنا في دلوك وحيدا سعيدًا، وقد تخلصت من كل شيء، أسكت جهاز التكييف، وأزلت السجاد الملون من الأرض، واستمتعت بملمس البلاط والخشب تحت أقدامي العارية.

يقول بعض الأجلاف هنا في القاهرة وهناك في «دلوك» أنني بعت أولادي، أنا في الحقيقة اشتريتهم، أي كابوس معي ومع سناء كانوا سيعيشون، ليس كابوسا كهذا الذي تراه في السينما، أو تقرأ عنه في الروايات، ولكن أنيابا زرقاء وأجسادا ممزقة نغرس فيها عيونهم ورءوسهم كل يوم، عندما أفكر فيما لو أن حياتنا استمرت معا، أرى أطفالي شياطين عجفاء تمزق وجهها ووجوه الناس بالأظافر.

ولكنهم الآن بعيدون عني على شاطئ ما. حولهم ماء بارد وشمس ولقمة طرية. وهم في ظني يمرحون. ذكراي لا تهم كثيرا فأنا كراس مغلق أو كتاب قديم، وهي تغسل لهم وجوههم ومؤخراتهم، وتضع على أجسادهم ملابس رخيصة ملونة وتأخذهم في جولات على الشاطئ، يشربون المرطبات ويأكلون شيكولاتة كما يريدون.

أنهت هى إعارتها وعادت، ولم يكن ما في حسابها يساوي إيجار شقتنا المفروشة لمدة عام، تنازلت عن الشقة وعن كل شيء كان كل تنازل يجعلها أكثر حرية وسعادة بنفسها، وكان الأمر يبدو مضحكا مبكيا في نفس الوقت، وكنت أنا أراقب فقط. تشيح بيديها وتغطي

وجهها، وتدمدم بأصوات كأنها بكاء، تركت حتى قطع الذهب والمجوهرات التي اشتريتها، وأعطتني مفتاح الصندوق ضاربة به كفي.

لكنها أخذت مني ورقة، ورقة واحدة لم أعرفها، ولن أعرفها، ليتي تعلمت جيدا قواعد القمار، لو كنت أعلم لراقبت وجهها وعيونها أكثر.

اهتم بي الكثيرون بعد رحيل زوجتي والأولاد، وزارني في البيت أنواع مفيدة من البشر كانت تتحرج من المجيء والبيت بيت أسرة.

واكتملت في أيامي ولياليي مباهج الغربة ومآسيها، ودخلت في مغامرات كئيبة مع نساء شعرهن أسود ميت مرصوص جيدا عند الكوافير، يتحدثن عن الإيقاع وهن يقصدن الإيلاج ويتكلمن عن الشعر وهن يقصدن استعمال اللسان، استلقى في بيتي المحبون، والمجانين، والقوادون، كاتبو التقارير، والمرتزقة، أقمت في بيتي دورا حرا أمينا كأنه جزيرة من وطني، صنته من الخارج بحراسة وتقاليد حديدية، ووقفت على الباب لا أقول محصلا.. ولكن مستفيدا على الدوام.

الشعر الذي يكتب في وطني الثاني، والقصص والمقالات كانت تصب كلها عندي، بصفتي صديقا للجميع، وأستاذا متنورا للغة العربية، كنت أرى في هذه المواد يأسي وإحباطي، وقلة حيلتي، وهواني على نفسي وعلى الناس، يكتبون شعرا كأنهم يستمنون. يصارعون معارك وهمية لكي يرفعوا حجابا مرقوعا ويتكالبون على تغطية عورات وفروج داعرة، ويتمسكون بإيقاع وهمي سخيف يقودهم إلى ضلال.

وكثيرًا ما تكلمت كلاما غامضا عن الواقع، ثم أتدارك نفسي لكي استثني واقعهم ذا الظروف الخاصة، هناك واقع مفترض بين الحلم والرأي والحقيقة.. واقع كاذب.. أكلمهم بحرص شديد عن التخلف والتحدي، عن قدرة الفنان الشيطان على أن يقول ما لا يقصد ويقصد ما لا يقول.

طلب مني أغلب المحبين صورة معينة أبحث لهم عنها في القاهرة، لم أكن أعرفها، ولكنهم وصفوها لي جيدا، بوستر جديد لرسام إيطالي غفل، صورة لفتى أجنبي يرتدي قبعة مستديرة، ووجهه أيضا أحمر مستدير، وعينه اليمنى واسعة محمرة تنزل منها دمعة ثابتة.

هم يحبون تعليق هذه الصورة في بيوتهم، فوق رءوسهم، لكي يتطلعوا إليها هم وزوجاتهم وأولادهم ويتأملون في تناسق ألوانها وتعبيراتها المؤثرة.

أعدهم بالبحث عنها، وأقول لكنني أريد أن أحضر لكم من القاهرة صورا لأطفال بلا دموع، لكن لا أحد يحفل بما أقوله، أو يفهم ما أعنيه.

الفصل السادس

منحنى حياة رجل محترم

أسأل نفسي هل تنقضي أيام الإجازة هنا بسرعة، أم إنها تمر بطيئة ثقيلة كأيام غربتي هناك في وحدتي، بعيدا عن هذا الضوء، وهذه الشوارع، وكل الشخوص الصاخبة، والخيالات المقتحمة والمنسحبة، أسأل نفسي ولا أعرف إجابة، فقد صار للأيام طعم واحد غريب.

على أية حال، صار لي إيقاعي الداخلي الخاص. كثيرا ما ضبطت نفسي لا أسمع ما يقوله محدثي. ذهني شارد بعيدا عنه، غارق في تأملات الذهول. يحدث هذا ـ أكثر ـ في القاهرة، حيث ترتخي أوتار الأعصاب المشدودة، قليلا، ويحيطني أمان الجالس في مستنقع ضحل. كم تغيرت يا وطني. أعجب العجب، أنني ما زلت راغبًا في ازدياد، ما زالت لك في القلب أغان، وأوتار لا يمسها إلا المطهرون من أهل أرضك، لا تحركها إلا نسمة صيف، أو سحاب خريف شارد. تداعبني على أرضك أحلام صبي بكر، وشباب ضاع مني

هدرا، فيجتمع في قلبي أسى، وتثقل عيني دموع. كأن مليكة النساء مرت من أمامي، ولم أطل منها سوى حفيف الثياب.

عندما أخرج في جولة للتسوق، أو أسافر في رحلة قصيرة لمعاينة قطعة أرض، أو شقة جديدة في صحبة صديق سمسار، أو سمسار صديق، أراقب الأشياء والناس حولي. كلهم يحسبون، يجمعون، ويضربون، ويقع الخصم دائما على كل ما هو تلقائي، أو طبيعي، أو إنساني.

أنا لست خارج هذه المملكة، أنا في قلبها، محرك، وطرف في كل مسالكها القبيحة ومساربها ودهاليزها. إلا أنني أحمل حياة أخرى، قابعة في داخلي تحركها إشارة، أو تعبير تلقائي فتتداعى كل المباني الزائفة.

أعود أذكر قريتي، شارعها الترابي، أرض ميدان المحطة المرشوش بالماء، تهفو نفسي لمنظر قبل الغروب في شرفة بيتنا. في يد أبي مسبحة سوداء وفي البيت رائحة خبز طازج، وخضرة باذخة نقية تحيط بكل المكان.

إلا أنني، الآن زائر هنا فقط، ما أغرب أن تعود إلى البيت، فتجده شيئًا آخر، نفس النوافذ والجدران، لكن لم يعد شيء كما كان. حتى الهواء، ولقاء الوجوه للوجوه.

عذبتني لسنوات زيارتي، لكفر شوق، وللبيت القديم، حتى كففت عن الزيارة، واكتفيت بتتبع الصور والأخبار، أشاهد بعيون من يحكي لي بيوت الطوب الأحمر تحاصر بيتنا وتمتد أمامه، أرى تاريخ بيتي تغطيه الحشائش والإهمال. تتساقط من على جوانبه الأحجار، لا

تستطيع نقودي أو وسائلي أن تصل إليه، تقطع كل ما بيني وبينه ولم يعد بالنسبة لي سوى حلم أو خيال.

كما صرت أحسب فوائد نقودي الثابتة، التي يتولى حسابها وإدارتها غيري، صرت أرى تاريخ نزوحي وإعارتي، وبعدي عن أرضي وناسي. لا أسأل عن رأس المال ولا عن الفائدة، لكن يحيرني سؤال ينفتح فجأة كبئر: ما كل هذا؟ وإلي أين أسير، من أي رصيد أسحب، وإلى أي رصيد أضيف، كيف تغير ذلك المعنى القديم للنقود كان أبي يقول: الدين هم بالليل ومذلة بالنهار. كنت أرى وجهه، يكتسي حمرة داكنة، وهو يزدرد ريقه عندما يجلس أمام الدوار الكبير، منتهزا فرصة سانحة لكي يطلب قرضا من الشيخ عند دخول المدارس وفي العودة، بعد أن يحصل على وعد بالقرض عندما يجيء الفرج، كان يقول: هم بالليل ومذلة بالنهار.

لم أكن أفهم كيف تنتقل النقود من هذا إلى ذاك، ولا من أي باب تدخل، أو من أي الفتحات تخرج. كنت أعرف أنها لا تمكث في بيتنا كثيرًا، أسمع أمي تقول إن الفلوس ركبها عفريت. لكنني أصلا كنت مشغولا بالكنز الموجود في الكهف الذي يحكي عنه رجب، الذهب والأحجار الملونة ليست نقودا ورقية كتلك التي يقترضها من الشيخ أبي، لا تتبخر كتلك التي في يد أمي. هى قدرة غامضة تغير الناس. تغير شكلهم وملامحهم ولون بشرتهم وسيرهم بين الناس،ترفع الصوت بالضحك والغناء وتجلب ألوانا من السعادة لا يمكن أن توصف. يسير الناس بقوتها على أرض من رخام وفوقهم أسقف من بللور. لا علاقة لها بالخبز وأطباق الطعام، لكنها تغير عيون الناس وأسماءهم. تطيل قامتهم بين الأرض والسماء. قال لي رجب إن

لها قوة المغناطيس، وأخرج من جيبه قطعة من حديد، جمع بها من أمامه عددا من المسامير الصغيرة، رحت أنزعها من قطعة الحديد، فتعود تلتصق بها رغمًا عني.

في الكهف يشد الذهب الرجال والنساء، فتلتصق عيونهم به، فلا يعرفون كيف يخرجون في الوقت المناسب.

عندما ينتهي دخان البخور، يغلق الكهف، وتكف الألوان ويخفت البريق. يبدأ لون بني داكن يكسو الجسد كله.

يتساقط اللحم ويجف بعضه فوق العظام. ويصرخ الطامع بصوت لا يسمعه أحد. وتولول النساء وتبكي بدموع لا تنحدر. هكذا يحكي لي رجب. يحكي الصورة التي لم يرها، فأسمع في صحوي وفي أحلامي صراخ من حولهم بريق الذهب، إلى عظام بنية وجماجم بيضاء، عندما طرد رجب من القرية، ظلت أصوات هؤلاء تحوم في رأسي كغربان سوداء، ولم أر حتى في خيالي: كيف يمكن أن يخرج إنسان من الكهف حاملا ذهبا وأحجارًا ملونة.

أحيانا أحلم بالديك البلدي الملون يرقص مذبوحا حتى يقع غارقا في دمه، رافعا منقاره وعرفه الأحمر محدقا بعيون بلا جفون لكن لا أحد يخرج من الكهف، وتظل أصواتهم من الداخل تطاردني.

حاولت في صباي وشبابي أن أكتب قصة لم أصل أبدا إلى شيء مقنع. كانت تخرج أحيانا كقصائد العامية، وأحيانا أخرى رمزية ناقصة. لكنها لم تنقل أبدا روح ذلك الكابوس الحي الذي كنت أعيشه. عادت تراودني القصة كثيرًا، وأنا هناك. في صحراء وطني الثاني. عندما دارت حوالي النقود، ودرت حولها، خاصة عندما

رحلت زوجتي والأولاد وبقيت في شقتي وحدي، أعاشر خيالات وهمية، أخفي نقودي وأوراق حسابي حتى عن نفسي، وأراقب أنواعا غريبة من الأمراض والأوهام تتسلق حياتي وأيامي كأنها طحالب متوحشة.

* * *

بدا الأمر وكأنه مؤامرة خاصة صغيرة. كنت خاليا جافا وسط ضوضاء وصخب. وكان غبار الهزيمة في ٦٧، ما زال يتصاعد حوالي، في كل الأزقة والأركان، وحتى من أفواه الناس في وسط الأنقاض، بدأت عملي، معيدا للغة العربية في الكلية وقد تحولت إلى غابة عنيفة، تدوس فيها سيارات الطلبة، وتصرخ من حولها مكبرات الصوت. أجمع أوراقي، وما بقي في رأسي من أفكار وأتوارى في ركن مقهى أنفض التراب عن جاكتتي القديمة أحاول أن أفهم ما يدور. لم يكن غرامي الذي تحطم على رأسي بقسوة سوى واحدة من اللكمات العنيفة المتتالية التي جعلتني أدور حول نفسي عشرات المرات. نقودي قليلة إلى حد غير معقول، تتسرب من يدي في أول أيام الشهر. وأكمل أيامي بالكلام أو الاقتراض وكتابة كلمة هنا أو كلمة هناك كي أحصل على قروش مهينة، تشعرني بضآلة قدري ولا جدوى كل شيء حولي.

التوت جميع الطرق وكأنها مواسير من الرصاص اللين، ثقل يدي وفكري. تقف أفعالي، وأقوالي، وآمالي على أطراف مثلث مستحيل يمزق ثيابي وما تحت الثياب.

كان زميل دراستي وصديقي في ذلك الوقت عبد الله الجمال، قد عين مدرسا في ثانوية كبرى بالقاهرة. لأمر ما كان حاله أحسن من حالي، ربما لأنه يعيش قرب عائلته في القاهرة.

ربما لأنه كان واضحا محددا، ملتزما كما يقول، حاول ألا يجعل الضياع يتسرب إلى نخاع حياته، بينما صرت أشعر أن روحي وصدري وقلبي خواء. كان يكتب قصصا جيدة، لكنها ككل شيء حولي. لا جدوى منها ولا تضيف جديدًا.

كان طابور النمل قد بدأ يزحف خارجا من مصر، في كل يوم أسمع عن زميل هاجر، أو صديق خرج في إعارة، أو مجموعة قفزت على ظهر طائرة وتنتابني نوبات طويلة من الغثيان أعالجها بالجوع أو بالنوم الطويل، أو بالانغماس في علاقات مع بغايا أشد فقرا مني. أيامي كانت دهاليز سوداء يفضي أحدهما إلى الآخر وتنتهي جميعا إلى حقيقتين: فقري، والكلمات الجوفاء صوتي يضيع في مدرجات الكلية الواسعة المزدحمة، والكلمات التي سهرت عمري كله أرتبها وأقيم لها بناء وشكلا كانت تتناثر مع الغبار المتصاعد من أرجل الداخلين والخارجين. بحثت عن الأستاذ الذي كنت أريده، فلم أجد سوى قرد يرتدي صديري، يلتقط بكفه السوداء قروشا صدئة من عرض الطريق. ظلت الكتابة في الجرائد والمجلات عملية تعذيب وإهانة أتلقاها دائما من طواويس جوفاء منتفخة، أو شبان رقعاء يتحدثون بعيونهم وأصابعهم. كان عبد الله الجمال وحده هو الذي يأتي ليزورني في غرفتي التي لم أعرف كيف أغيرها. غرفة مصر القديمة التي شغلتها وأنا طالب. كان يأتي حاملا بعض طعام طيب أو زجاجة خمر صغيرة، وقصة له جديدة، أو قصيدة شعر مهربة تسب

الوضع والحال ومصر والعرب. أجلس في المقعد الوحيد المتهالك، أمضغ مرارتي، وأتلقى على رأسي مزيدًا من الإهانات.

كان اقتراحه المتكرر هو أن نسافر ليوم وليلة نزور أهلي في «كفر شوق» نشم بعض هواء نظيف، نمضي ليلة ريفية، نستعيد فيها أوهاما قديمة، كان أهل البيت والقرية ما زالوا يحتفون بالدكتور الصغير الذي صار مدرسا في الجامعة، يهيئون لنا غرفة نظيفة وطعاما كريما بقدر المستطاع، لم أكن أستطيع أن أحمل لهم شيئًا، أو أساهم بشيء وهم ليسوا في حال يسمح لهم بأي احتفال أو كرم، كل ما هناك أنني امتنعت بعد تجارب قاسية، أن أطلب نقودًا لا من أبي ولا من أخي الكبير. كان الخير قد تسرب من الدار، رغم أن أمي كانت موجودة إلا أن البنات وزوجة أخي كن يبقين نار الخلافات مشتعلة، تحيل جو البيت إلى رماد كئيب.

ما حدث في القاهرة كان قد امتد إلى «كفر شوق» وإلى كل مكان. طوابير النمل تفر خارجة بعد أن نكشت أعشاشها، وتصارعت بما فيه الكفاية على الفتات. كانت هناك أغان جديدة. وأقوال جديدة وطعم للحياة جديد. كأن الناس صاروا يسيرون على رءوسهم. عندما يأتي فلاح لكي يجلس معنا، يرص الجوزة، أو يساعد في تقديم الطعام، فإنه غالبا ما كان ينظر إلينا في ارتياب، لا يفهم حديثنا ولا يستسيغ صمتنا، كأنه يقول لنا أنتم سبب البلاوي، ماذا فعلتم بالبلد!

لم يكن في صدري متسع لهموم البلد التي اشتعلت كالحريق. فقد كان فقري وإحباطي يخنقاني، وأسلاك المصيدة التي وقعت فيها

تدمي خياشيمي. أضيق بالخطب التي يلقيها عليَّ عبد الله الجمال وهو يذكرني بأحمد أمين، ودور المثقف والمفكر الحر.

هذا الحديث كان يطحن ما بقي في نفسي من كرامة، فأستحيل مع هذا الواقع الغريب إلى تراب مطحون، لم أعد أستطيع أن أحتمل تصور مصير مدرس اللغة العربية الفقير الشهيد المتواضع. أن أتحول إلى حمار مصري طيب يمشي على مدق إلى جوار حائط، يحمل أسفارًا، ويوصّل طلبات الثقافة العربية إلى منازل الطلبة الذين يسمعون الديسكو ويأكلون الهمبورجر، ويلقون الفتات إلى الدرويش الذي يقف على الباب يردد النصوص والأشعار، إلا أن أظافري اللينة لم تكن تخمش إلا وجهي وصدري، ودمي النازف لا يتجمع حوله إلا الذباب.

صارحته وصارحت نفسي برغبتي الحارقة في الرحيل، ردد على مسامعي لأيام ما كان يتردد عن أن الخروج من الوطن تخل وخيانة. وأن الدور الحقيقي هنا. وأن الوقت ما زال مبكرا لبيع النفس والأفكار مقابل بعض الدولارات.

وفي ليلة غريبة، أمضيناها في «كفر شوق» سمعنا أن طائرات الأعداء ضربت حقول الصعيد المفتوحة، طلبت منه أن يسكت، وأن يصمت للأبد، وأن يكف عن الكلام الأحمق والأوهام. قلت له إنني لن أنتظر الموت هنا، موتي، وموت البلد الذي أعرفه. فظل يؤكد لي أنه يريد الموت هنا. في غنائية قديمة حدثني عن النيل، وعن الماء والعطاء، ورغم أنه من حملة البلهارسيا وأمراض الكلى فقد كان يسند ظهره بيديه ويقول: الأشجار تموت واقفة. وضحكت حتى دمعت عيناي.

لم تستغرق مؤامراتي الصغيرة أكثر من شهور، توقفت عن رؤيته وصرت أتهرب من لقائه. في صحوة كأنها حلاوة الروح بدأت اتصالاتي هنا وهناك. هنا مع أستاذ كبير طيب، ما زال عنده فسحة في الروح والوقت، لكي يرى هموم جرذ صغير مثلي.. وهناك.. زميل لي يحاول أن يشق طريقه ويدعم موقفه. بعد شهور من الضنى والسعي والاقتراض والاستعداد، والجري في المكاتب والقنصليات وعلى أبواب الداخلية والسفارات. صارعت مواسير الرصاص اللين التي التفت حول رقبتي وصدري، وصرخت في أحلامي مقاوما الغرق والاختناق صليت لربي كثيرا، وكفرت بكل ما أحلم به من أحلام، وشحنت كتبي وأوراقي لكي تدفن في «كفر شوق»، وأنا أنتظر الختم الأخير على الورقة الأخيرة. أصابتني حمى عنيفة، وارتفعت درجة حرارتي. فأجلت سفري لأيام ثلاثة، أمضيتها في هلوسة، وسافرت وفي رأسي دوار، لم أنظر بعدها خلفي فقد غرقت في وطني الثاني.

* * *

انقضت الإجازة ولم يبق لي في القاهرة إلا أقل من شهر، الشهور الإفرنجية قصيرة، أما الشهور العربية فهي طويلة لها هلال، وبدر ومحاق وليال بلا قمر، صرت لا أعرف كيف أحسب أيامي.

كنت قد انتهيت من دفع كل الأقساط المستحقة، وأكملت ودائع جديدة دولارية وأغلقتها. وحللت مشاكل الشقة المفروشة وسحبت نقودي من الشركات المشبوهة. وانتهيت من ترتيبات طبع كتابين: أحدهما لمقالاتي المنشورة في الخليج، والآخر لقصص قديمة، زينتها برسوم لرسام مشهور، حجزت أسبوعا في رأس البر. كي

أكتب هناك قصة جديدة، أضيفها للمجموعة، موضوعها: الهجرة إلى بلاد النفط.

في حياتي الآن، لا شيء يحدث بلا قصد أو حساب، هل أنا الذي أهرب من البراءة، أم إنها هى تراني فتستدير، مؤامراتي الصغيرة تحولت إلى فساد معلن أتباهى به. وطني يقبل مني الرشوة، ويقبض عليَّ متلبسا، وأنا في رأس البر لا أستطيع أن أكمل سطور القصة. عند اللسان والجربي أتجول بالليل والنهار. أراقب نساء تحجبن وترهلن. وملابس غريبة وماء عكرا. أكوام زبالة تحيط بالفندق الغالي النظيف، أطلب طعاما كثيرا ولا آكله. أشتري حلوى فأجدها بلا مذاق. أكتب سطورا حمقاء على أوراق فاخرة. وأسجل بصوتي بدايات القصة أو نهاياتها على شرائط جديدة، ثم أمسحها وأكملها بأغان قديمة، أسمعها في تلذذ كأنني ألعق الجراح.

يسيطر عليّ في الصباح غضب أحمق، أتشاجر مع عمال الفندق أتهمهم بالتقصير والاستغلال، أختلف مع بائع على قروش وأهدده باستدعاء الشرطة، وفي الظهر أجلس على كازينو قديم. أفكر في رؤية الحياة طبقا للمذاهب النقدية الجديدة، وأرى أفكاري، وحياتي تتحول إلى «مربعات ومستطيلات من هباء».

أكتب سطورا جديدة في القصة، وفي قلب الكراس أخط تعليقات على الحياة، ثم أطلب من الجرسون إعداد أكله شهية من السمك. أشتري الجرائد كلها، وقبل أن تبللها رطوبة البحر، أكون قد عرفت أن الكرة قد أصبحت هناك في ملعب وطني الثاني، وأن الحوار العلمي غير الأيديولوجي يصيب البلد كلها بالصداع وأن هناك حمقى كثيرين

يتعرضون للإفلاس لأنهم وضعوا نقودهم في جيوب غيرهم، وأن هناك جرائم بشعة ترتكب في المدن الجديدة، وأن هناك من يضعون الجثث المقطعة في أكياس من البلاستيك تحت مقاعد القطارات.

وأنا في الفندق الفاخر على الشاطئ القديم، أداعب شيطان الفن، وأتأمل طيور الخريف المبكر في براءة، أخفي نهمي لصدور السمان المحمرة، كأنني سور متقن جميل يحيط بلا مكان، عيوني تحت النظارة الطبية ما زالت دقيقة لاذعة جميلة. تواقة نهمة، بها شبق شيطاني لا يشبع.

صرت أكره ضعف الفقراء المنافقين، أكرههم جميعا لاعقي أحذية ضباط الجيش والشرطة والأمن المركزي.

يقودني تأملي ـ بعد كوب البيرة ـ إلى لا شيء. واقعي الذي أعيشه كاذب. ضربات بيانو واضحة مستقلة ينقصها السياق.

ضع رأسك بين كتفيك تلفت حولك في انتباه. لا تكن ذئبا مفترسا جريحا. أطلب طعامي على الشاطئ. يصيبني بعد الظهر صداع شديد.

حاربت خواء حياتي، وفي المساء جلست في الشرفة وحيدا، أدرت موسيقى نادرة، وحاولت أن أكتب لأولادي خطابا. كتبت: تحياتي وأشواقي، أبعث لكم حبي الفارغ الذي لا معنى له. رأسي شاب ولا أستطيع الحكم لكم أو عليكم. لكم حسابات ونقود كثيرة عندي، وليست لي قدرة على العطاء، لكم بعد موتي ميراث كبير، اقتسموه جيدا بينكم، للذكر مثل حظ الأنثيين. أما أنا فحظي قد عرفته.

مزقت الورقة، وألقيت الكراسة كلها في البحر الداكن أمامي.

الفصل السابع

أكلت أولادها القطة

هبت على القاهـرة عاصفـة ترابيـة مفاجئـة أكـدت لي أن كـل شيء لـم يعـد كما كان. حـول العاشـرة صبـاحا، اهتزت الأبواب والنوافذ وتحطم زجاج بعيد، اعتلـت السمـاء صفـرة، لسعت الوجوه ذرات تراب، فأسرعت خطوات الناس في الشوارع، واختفوا في الدكاكين ومداخل العمارات، وتوارت الشمس خلف غبار كثيف، لم يأت يوم كهذا منذ سنوات. فلماذا يأتي الآن، وأنا هنا في إجازة.

تطاردني شياطين الظهيرة، ويحاصر حياتي قدر ملعون. أغلقت نوافذ الحجرة، وانتظرت طويلا قبل أن أضيءالمصباح، أطبق هذا الضوء الغريب على صدري، فأسرعت إلى علبة الدواء أستحلب واحدة تحت لساني. هناك وقع بصري مرة أخرى على وجهي في المرآة. لاحظت أنني أتجنب الوقوف أمامها كثيرًا، عندما أقف فإنني أرى في أعماق عيوني كائنات غريبة تتحرك في عنف وتتصارع، فأرتبك، وأغلق عيني بسرعة، وأكمل ما بدأت دون أن أرى وجهي كاملا في المرآة.

هناك وجه جديد يتشكل كل يوم لا أستطيع أن أتعرف عليه بسهولة، ويفاجئني كل مرة شيء جديد. في ذلك الضوء الغريب لمحت عيوني وكأنها دهاليز عميقة، أزلت النظارة الطبية ودعكت وجهي، فعادت إلى المرآة طوابير الكباش الحمقاء المتتالية، وانتابني دوار. أضأت مصابيح الغرفة وحاولت أن أتمسك بزمامي ومكاني. أكرر لنفسي أنني في إجازة. وأن هذه أشيائي وحقائبي وأوراقي، وأنه لم يبق سوى أيام فأجمع كل شيء وأعود إلى وطني الثاني، حيث لا شيء يفاجئني لا دوار ولا غثيان، حيث ينتصب جسدي وعقلي في حذر وتملأ خياشيمي رائحة غريبة هى خليط بين رائحة النقود الجديدة والدماء والسمك، رائحة تخترقني فتعدل رأسي بين كتفي، وتطلق في جسدي قوة ذئب مفترس. يعتريني هذا الضعف هنا في هذه المدينة التي يعتصرني لها شوق حارق، وتتلقاني في شوارعها وضوء نهارها وليلها بحنان زائف. يخفي نصالا لامعة لا تجرح ولا تدمي.

وهذه عاصفة سوداء تحاصرني فيها وأنا وحدي في غرفة غريبة عالية السقف يدور بصري على الأشياء المتناثرة حولي، فيرتد لي معلنا وحدتي وغربتي وخوفي، كيف صرت وحيدا إلى هذا الحد؟ الدنيا كلها خلف الباب وأنا لا أذهب. الناس كتلة حمقاء لا تعنيني، عداؤها ليس خافيا. أدارت هى ظهرها لي نهائيا في إرادة غريبة عليها وشجاعة لا أفهمها. أي جرم ارتكبت؟ هل كانت تظنني ذهبا فوجدتني نحاسا. أنا لم أخدعها. كنت أحب أن أقف عاريا تحت جلبابي الأبيض، أعلن أصلي وفصلي، ولا أداري أفعالي أو نواياي. لم أتعلم أن أدهن وجهي، أو أن أقبض النقود في تأفف وضجر لكي

أنثرها حولي في تفاهات وترهات. لم تفهم هى أبدا. لم يكن هذا بخلا. ولكنها كانت علاقة غريبة جديدة أدمنتها مع تلك النقود لم تكن سبيلا لتحقيق أشياء صغيرة تؤكل وتشرب وتلقى في المجاري. كانت النقود بالنسبة لي روحا جديدة، ودماء تجري محل الدماء التي فسدت وجفت، وحولت الدنيا إلى خرم إبرة ضيق، منذ أن تراكمت النقود في البنك وأصبح لي ولها وللأولاد ودائع دولارية مغلقة، بدا كأنها تذهب في طريق وأنا في طريق آخر، زواجي الذي تصورته سيصبح شركة تنمو وتكبر. تحول إلى محكمة منصوبة لي ليلا ونهارا. اعترضت على المشاريع الصغيرة التي دخلت فيها مع أهلي في كفر شوق. تسخر مني ومنهم، وتصنع من كل مشكلة صغيرة كارثة، تؤكد لا جدوى تفكيري، وجريي وراء الأوهام. كانت تتناول مرتبها في بساطة وتلقي به في حقيبة يدها، وتظل تنفقه حتى يتبخر. تشتري عشرات اللعب للأولاد، أشياء لا أحبها ولا أفهمها، ولا أتصور أنها غالية إلى هذا الحد. منعتها منعا باتا من أن تشتري لي ملابس فقد كان كل شيء تشتريه كارثة، كأنها ألقت النقود في البالوعة. لم أكن أستطيع أن أرتدي تلك الأشكال الغريبة التي تشتريها. يكفي ما كان يحدث في داخلي، وفي وجههي، لم أكن أحتمل تغييرا آخر. كنت أريد أن أتمسك ببدلتي وقميصي ورباط عنقي. ألا يكفي أن يكون المرء نظيفا، تراقبني وأنا أرتدي ملابسي فتغطي وجهها بجريدة، أو تغادر الغرفة وتصفق الباب وتحتفظ على وجهها بتعبير جامد من القرف والتعالي. تحملت كرامتي من غبائها الكثير. لكنني كنت أشعر أنها ليست صادقة وأنها تريد بطريقة غامضة أن تستدرجني إلى أرض لا أعرفها، هناك تجردني من ثيابي ونقوي وتركب على

أكتافي. وتقودني في أسفار وطائرات وبلاد فيها ينفق الناس النقود بطريقة عادية كي يعيشوا ويستمتعوا. أضحكتني «يعيشوا ويستمتعوا» هذه أضحكتني ولم أفهم لها معنى.

كانت هناك دائرة ضرورية محكمة ومقنعة علينا أن ندور فيها. أن نجمع هنا هذه النقود. وأن نصبر وأن نترك النقود في تراكمها البديع تصنع لنا سنوات جديدة تأتي بعد أن نعود.

وهي الأخرى لم تكن تفهم «بعد أن نعود». كانت تشعرني دائما أننا يجب أن نعود غدا، الوقت الطيب بالنسبة لها هو الوقت الذي ننسى فيه أننا رحلنا. والأولاد تلك التحف الهشة الغالية. التي يجب أن نسرع ونعود بها لتضعها في حضن بيتها الغالي العزيز بمصر الجديدة. ليس من حقي أن ألمسهم، أو أداعبهم، أو أقول أمامهم ما أريد. صرت بالنسبة لهم غريبا لا مكان لي. لا في واقعها ولا في أحلامها. تمضي نهارها في الجامعة. وعندما تعود تغلق على نفسها غرفة مع الأولاد أو تأخذهم لتزور صديقي فراج وزوجته. وتحتفظ دائما بشعور مؤقت كأنها في نزهة سخيفة ولا بد أن تعود. كنت أريد أن أعيش حياتي في رضا واطمئنان.

حلت الشركة قبل أن تنعقد. بعد أقل من سنتين كان عليّ أن أحتفظ في داخلي بمؤامرتين، مؤامراتي الخاصة التي أوازن بها أموري هناك في وطني الثاني، ومؤامرتي البيتية التي أحتفظ بها في غرفتي وتحت سريري، كي أخفي عنها مشاريعي الحقيقية وما أفكر فيه وما يشغلني. لم يكن هذا في البداية يزعجني. بل كان يتحداني ويؤجج مواهبي، كنت أستمتع بأن أعيش دائما على حذر وفي خطر.

دخل إلى غرفة نومي إهمال متعمد، وقذارة متزايدة، المرآة التي تحطمت لم تكن تريد أن تصلحها، هي تصر على شراء غرفة جديدة، وأنا أريد هذه الغرفة، وأريدها نظيفة، ولا أرى ضرورة لتغييرها ما دمنا نحن هنا.

كنت أراقب نفسي في المرآة المكسورة. وأنا أرتدي ثيابي المألوفة على عجل، ويتأكد لي أنني فقدت مواهب جسدية كثيرة، وأن منظري بملابسي الداخلية صار مضحكا، فأسارع لإخفاء كل شيء. آخر ما ألمحه بريق جديد في عيوني لا أعرفه.

يخدمني في هذا البنسيون عاملان، أنور وخليل، يتبادلان الورديات بالليل والنهار، أنور لا يشبع، يتطلع إلى الأشياء ويتصيد بحركاته النقود طوال الوقت. أما خليل فقد كان ضعيفا جدا وفقيرا جدا. وكان يستحي من التمحك طلبا للنقود. عرفت أنه يعول تسعة أولاد، وأنه قد استسلم لنوع قاهر من الفقر، وأنه لم يعد يرفع يده للاعتراض أو المقاومة، ولكني فيورديته كنت أجد ما أطلبه بسرعة. كما كنت أشعر أن الحجرة دائما نظيفة.

* * *

أصبح للقاهرة ساعة مسحورة تهدأ فيها أثناء النهار. ساعة غير معروفة تتوقف على اليوم، وعلى موقعه من الشهر، وعلى حركة السياحة العربية والغربية. تفرز في الشوارع زخات من الناس. ثم لا تلبث أن تبتلعهم تخلو الشوارع الجانبية إلا من القطط التي تتسلق صناديق الزبالة المعدنية الكبيرة، أو باعة مشبوهين، أو نضورجية يتلفتون حولهم في ارتياب.

كنت أقطع الشوارع الجانبية هذه في طريقي إلى ميدان الأوبرا القديم، لكي أبحث هناك عن صور الأطفال الملونة ذات الدموع الثابتة. شيء ما يضحكني في هذه الصور، وفي تمسك الأحباء هناك بها. هذا ذوقهم وفهمهم للفن وللمشاعر. قطعة صغيرة من الأحزان الملونة. تلوكها في فمك، محدثا نوعا من المصمصة هى خليط من الإشفاق والاستغراب والاستمتاع، لأن هذا يحدث بعيدا عنك. ثم مراقبة فخمة متعمدة لتنسيق الألوان. وتراكمها بعضها فوق بعض. هذا هو الذوق الذي زحف على أيامنا ولصق التافه بالقبيح، ووضع الجمال كله في بطن راقصة، وشعر قواد، وغنج صبي العوالم، صارت دمعة الطفل الثابتة هذه رمزا للهموم والأحزان.. أفكر في هذا ولا يحزنني ولا يقلقني، ولكنني أشعر بأنني فارغ.. فارغ حتى القاع.. وأن ليس عندي ما يقال.

تترجم حقائق الحياة وعلاقاتها وبديهياتها إلى عمليات حسابية صغيرة، تجري في ذهني بشكل تلقائي، تضيء أرقاما ولمبات حمراء وعلامات ضرب وقسمة حتى تهدأ إلى رقم أعرفه وأستريح إليه، بعدها لا أجد نفسي أناقش أو أتلفت حولي.

لست أدري لماذا لم أتقن لعب القمار معهم. قد يكون السبب الحقيقي أنني أحترم النقود، أنني أحترم الحظ. وأعتبره جزءًا من الديانة، ومن الإيمان، ومن علاقة الإنسان مع ربه. ورضاه الداخلي عنه. لا شك أن الله راض عني. وأول دليل على رضاه، أنه خلصني من تلك الزوجة التي كانت تريد أن تسحبني إلى قاع هذه المدينة العقيم.

في أعقاب العاصفة الترابية كانت قاهرتي خالية تماما. كلها لي، أذرع شوارعها فلا أرى وجها أعرفه. كأنني نزلت مدينة جديدة. أو حيا من أحياء مدن وطني الثاني التي لا طعم لها. دكاكين متراصة غير متناسقة، لا تاريخ لها، تضيء لمبات كهرباء ملونة بالنهار، وتعرض بضائع ملونة متباينة لا تثير إلا الحمقى.

من أول الإجازة كنت أعرف أن صديقي عبد الله الجمال قد مات. سرطان في الرئة، ثم عمليات في الرئة، ثم نهايات محتومة بعد شهور كان قد أرسل في طلب قرض مالي، أرسلته دون تردد كثير، عندما فاجأتني قبضية مفاجئة من عمل كنت أحسب نقوده ماتت. لم أحصل منه على رد. لكنني عرفت أنه ذهب في طريق اللاعودة. أصبح الموت مثل النقود حقيقة جديدة بالنسبة لي حقيقة محددة، واقعية، لا أوهام كثيرة حولها. سمعت أنه كتب قصصا جديدة عن الأنهار وعن الأشجار، وعن البيوت الجديدة في الحقول. وأنه استقال من عمله وطاف في الريف وعاش سنوات موته الأخير لا يأكل، وقال لي أحد محبيه إنه في الشهور الأخيرة كان يرقص من الألم. وصدرت له قبل النهاية مجموعة قصص لم يقرأها أحد.

عندما طلبت من الدكتورة سناء فرج أن تتحجب، أو تغطي رأسها، قالت إنها لن تغير جلدها من أجل مال قارون. لم يكن هذا أمرا ضروريا ولكنه كاشف عن المقاصد والنوايا. الجميع يفعلون ذلك حولنا لأسباب مختلفة، لم أكن أحسب أن هذا ضروري في البداية ولكن عنادها وأصوات الزملاء حولي جعلوني أفاتحها في الموضوع لم ترد عليّ وتجاهلتني ، بل تشاغلت بتصفيف شعرها واختيار أنواع المكياج. في الأماكن الضرورية كانت تغطي رأسها، ثم لا تلبث

أن تخلع ما على رأسها وتلقي به مبدية ما تشاء من تبرم وضيق لا أسمعه لم تكن متبرجة بل على العكس كانت تميل إلى نوع من الوقار الإنجليزي القديم، وللحق كانت تبدو فيه كاملة ووقورة.

تختار أصوافا غالية، وأقمشة داكنة تبدي بياض بشرتها وأرستقراطيتها المهيضة. ربما كان هذا يستفزني أكثر، فتبدو لي أكثر فأكثر غريبة متفردة خارجة عن السياق.

كنت أريدها معي، في مشروعي، طرفا في المؤامرة. كانت تغيب في قراءة كتب تستعيرها من المكتبة، كتب أدب وتاريخ. ترفض أن تعمل في ترجمة المقالات الصغيرة التي تنهال علينا، تتضاعف أجورها يوما بعد يوم. تنشغل بالمحاضرات، وبمناقشات مشاكل الطالبات حتى تصدع رأسي بقضايا اجتماعية لا حل لها، تحملها في رأسها، وتتحامق في البحث عن حلول لا تؤدي إلا إلى كوارث. أمنعها بالغضب والخناق من أن تتدخل في شئون الأسر الكبيرة التي تفرض على البنات أوضاعا غريبة.

ما أغرب ما يدور بين الرجل والمرأة في غرفة مغلقة، وما أبشع الغرفة عندما تكون غريبة تحيطها أرض خلاء وصحراء وغربة تسكن في العظام. ما أغرب الخلوة عندما تسيل من حولها شكوك وحذر ومخاوف، تمتد بينهما مسافات مستحيلة. يصبح الكلام فتات أحلام ورغبات محطمة، عناق فاتر، وقبلات مكررة ومعاشرة كأنها إثم قديم.

بعد شهور طويلة من النقاش اللامجدي عن الحجاب وغطاء الرأس جاء ثلاثة من الزملاء، لقاء تآمري دبرته أنا، واحتلوا صالة

البيت. بعد أن قدمت لهم الشاي في براءة فتحوا الموضوع، أخذت موقف المراقب في نذالة وتركتها تواجه منطقهم المتصاعد. تركتها تبارزهم بسيفها الخشب. حدثتهم برطان طويل عن الحرية، وعن الشكل. والعقيدة. وروح الدين. تركتهم يحاولون إقناعها وانشغلت بإعداد بعض الأوراق التي عليّ أن أقدمها غدا. كان حديثهم مكررًا، مؤدبا وكانت هى تتراجع باستمرار أو تلوذ بالصمت.

كنت غارقا في أوراقي عندما لمحتها تخرج من غرفتها فجأة وقد ارتدت قميص نومها وحملت طفليها وهي تقول عن إذنكم أريد أن أنام انتبهت لهم فجأة. واعتذرت لذقونهم عنها، وداريت ارتباكي بعصبيتها وغربتها عن هذا المكان. أحسست أنها شجاعة جريئة ولكنني تأكدت أنها ستكون مصدر خطر بالغ.

من بوتيكات الأزبكية، اشتريت صور الأطفال ذوي الدموع الثابتة. جمعتهم في أسطوانة بقروش قليلة. وأنا أشعر في روحي بخواء غريب. كنت أشتري من هنا كتبا عزيزة نادرة. لكنهم لا يبيعون الآن إلا مآسي هذا الحاضر. وأنا أبحث عنه وأشتريها كي أحملها إلى أحبائي في وطني الثاني.

اشتريت أيضا مصحفا مكسوا بالذهب. وكتبا غالية للحديث وانتهزت هدوء الشوارع لكي أفرغ من كل المشتريات.. شلت جلدية، شرائط مصحف مرتل، وعدد من الأحذية. ومشغولات نحاسية متنوعة.

حملت أغراضي الكثيرة وأخذت طريقي إلى غرفة البنسيون.

* * *

في الغرفة تناثرت حولي الأشياء والأغراض، فتحت النوافذ فعاد مساء القاهرة الصافي يدخل إليّ في نسمات رقيقة مفاجئة. وأطل من الشرفة الواسعة قمر مسرع وحيد. هذا مساء أخير سأذكره. أحمله معي أيضا ويثقلني، أعباء عاطفية جديدة.

عندما أخذت أولادها كانت تبدو فرحة منتصرة. هل ما زالت كذلك. بعد المعارك في «دلوك» والمناظر في قسم الشرطة. والأوراق والتنازلات. كنت أراها نمرة تحمي أولادها. وكنت أقول لنفسي: اليوم لها. دعها ترضعهم وتعيش معهم، ويعيشون معها. لكنني الآن أراها.. قطة أكلت أولادها خافت عليهم من حيوان ظنته مفترسا فأكلتهم. أخفتهم في بطنها.

ماذا تستطيع أن تقدم لهم سوى خواء حياتها وأفكارها، وترددها في داخل خرم الإبرة الضيق، فقرها وغرورها الفارغ وتعففها المتعمد العسير.. أكلتهم خوفا عليهم.

لم لمْ تتركهم معي.. أحبهم.. وأحبها وأحب أن أعيش معهم ولكن ليس في خرم الإبرة هذا.. لم لم تتركنا نعيش في كفر شوق نعود هناك وتكون لنا حياتان ونستعيد رجب، وكهف الذهب. وأحلام البريق.

أي كلمات عجفاء أرضعتها للأولاد، فصاروا غرباء عني. ليسوا لها، وليسوا لي. أولاد أرض أخرى. ووطن ثان، أولاد أحلامهم شوهاء. ومخاوفهم في قلب أحضان الأم والأب، أيتام في القلب. يسكنون قبور الأحلام، اشتريت وحدتي، ولم أدفع شيئًا.. هزيمة هذه أم نصر.

قدم لي قبل أن ينصرف، خليل خادم البنسيون الفقير دورقا جميلا من الليمون الطازج، ولم ينتظر بقشيشا أو مقابلا. جلست في الشرفة، تحت القمر، أستعيد وجه زوجتي وأولادي. وأجرع مع الليمون البارد مرارة لا مثيل لها.

الفصل الثامن

إعارة إلى الأبد

تقدم الليل وخبت أصوات الشارع الذي أراقبه من شرفة البنسيون، مكاني الضيق الوحيد، يغطيه تراب ناعم يلمع تحت ضوء القمر الذي يفر بين العمارات.

ليلة عاطفية ثقيلة، مليئة بالصمت المبتور، واللحظات الضيقة، تحجرت الدموع في الحلق، وامتلأت النفس بالمخاوف، ورعب الغياب إلى الأبد.

أغادر غدا عند الظهر، وكم غادرت! لكنني هذه المرة مشروخ، خائف، منقسم، أعيش مشاعر القتل الذي لم أرتكبه.

تحضرني في الليل أشباح أولادي الذين لم ألمسهم، وأبي الأعمى الذي لم أره في كفر شوق ولن يراني، يثقل وطني أفكاري، وطني الذي غدرت به وغدر بي.

انتهت شهور الإجازة، كأنها سيجارة قديمة بلا مذاق، ليس أمامي إلا أن ألقي بها، وأسحق ذكراها، ليس لي ليل آخر هنا،

ولا صباح، لم أر الحقول، لم ألمس سوى أم عصام، حتى صوت أولادي لم أسمعه.

تراكم خوف، وضعف، وكبرياء فارغة، فصنعت خواء أيامي هذه، خواء عشته في قلبي، وسكن بين ليلي ونهاري، خواء أجرد بارد مفروش بالنقود.

لم أصرف في هذه الرحلة نصف ما قدرت. الدولارات في جيبي صحيحة، ونقود مصرية كثيرة، وهم جميعا هنا يشتكون من الفقر والغلاء.

دفعت إيجار البنسيون، وأجزلت ـ قدر استطاعتي ـ العطاء لخليل عامل البنسيون، الذي أمسك بذراعي واستحلفني أن أجد له مخرجا من هنا إن استطعت، وسألني مرات إن كنت أحتاج لشيء آخر قبل أن ينصرف.

كان دورق الليمون البارد الذي وضعه أمامي، شيئًا حلمت به، في مذاقه شيء خاص لم أجده في أي مكان، يستقر في الحلق، ويصعد إلى العينين والدماغ، لا أعرف كيف صنعه هكذا على مذاقي، دون أن أطلبه، أو أصفه، الحمد لله، أنني حصلت على هديتي هذه في اليوم الأخير، هل أستطيع أن أحمل بقاياه معي؟ وبعضا من ضوء هذا القمر؟ له لون من الفضة هنا، وليس له لون هناك، أريد أن أحمل معي أكياسا صغيرة، من عصير الليمون.. وضوء القمر.

النور الخافت في غرفتي، التي لن يزورني فيها أحد، يسقط على أشلاء وشظايا من ملابسي وأغراضي. وأنا في الشرفة أراقب سقوط قطع الليل الداكن، أدخل بين الحين والآخر، ولا أفعل شيئًا سوى

أن أنظر إلى وجهي في المرآة القديمة، فأرى عيوني، وذقني النابت الذي يحتاج إلى حلاقة، نرحل جميعا في ليل داكن، نهاية بلا نهاية، وشخص لا أتعرف عليه، أعود مسرعا إلى الشرفة أبحث عن روحي في فراغ الشارع.

يأخذني ظلام مبلل رطب، وقد استقر غبار اليوم، وصفت السماء صفاء باهرا بعد اختفاء القمر.

أشاهد أمامي كوبري محطة كفر شوق القديم المصنوع من الحديد والخشب، والشجرة العجوز وقد احتوت كل الأضواء المتكسرة، صارت ليلا ونهارا، سامقة غامضة لها عيون صفراء، شجرة محطة كفر شوق مزروعة أمامي في قلب شارع الأسفلت، ليس تحتها تراب، تحتها يمشي رجب طويلا، يرتدي «بنطلونًا كاكيًا» ويمسك في يده حذاء ضخما، ورأسه ملفوف بشال، عيونه تختفي تحت نظارة سوداء، يسير أمامه في الشارع ديك بلدي ملون كبير. أسمع صوت مخالبه الصفراء ذات الأظافر على الأسفلت، ورجب يخطو خلفه بأقدام حافية لا صوت لها. كأنهما ـ هو والديك ـ صاحبا البلد يتجولان فيها بعد اختفاء القمر.

بينهما في نهاية الشارع مسافة ثابتة، في يدي ساعة تشير إلى انتهاء الليل، الديك يهتز في خطواته أنيقا واثقا، ورجب خلفه يزداد ضعفا وهرما، يسقط الحذاء من يده فردة، فردة، وتزحف أقدامه العارية على الأسفلت محدثة صوتا كأنه الفحيح.

عند إشارة المرور توقف الديك متلفتا حوله، فاردًا ألوان جناحيه، وتساقط رجب كي يبتلعه الأسفلت، كأنه بناء من طوب أخضر تحول

إلى تراب، قبل أن أرى ضوء الفجر اقتحم الأفق مغربي بدوي رحال، يحمل أكياسا وأحمالا ملونة، مسح بكفه على أسفلت الشارع، فانطلقت منه أشجار ودخان وبخار رأيت الديك يرقص مذبوحا وقد غمرت إشارات المرور دماؤه، حدقت في غبشة الشارع، فراعني أن أرى أشلاء أطفال، حسبتهم لحمي.

* * *

مربعات زجاج الغرفة نصفها ليل ونصفها نهار. صمت بالغ في صالة البنسيون لكن ضوضاء رحيلي في رأسي تزحم الحجرة ولا تجعلني أنام.

رقدت على السرير أودع مصر، وأتحفز لوطني الثاني، حيث يجب أن يكون رأسي بين كتفي، وعيناي في وسط رأسي.

في كل الرحلات السابقة كان يملؤني شعور بأن شيئا ما يمكن أن يحدث فيمنع سفري أو يؤجله، لكنني هذه المرة أشعر أن قدرا مقدورا يدفعني خارج البلد، شيء ما يناديني هناك، خطوات أراني أقطعها وأنا راقد على سريري قرب الفجر، أسير إلى أرض مسحورة أو رمال ناعمة أغرق فيها وحدي.

ذاهب لكي أعمل في صف طويل من العبيد المقيدين من رقابهم وأرجلهم، محكوم عليهم في جرائم لم يرتكبوها، لا يحق لهم أن ينظروا حولهم، جرائمهم في قلوبهم، علقت على صدورهم أوراق، هى الهوية، وختم كختم اللحم الخارج من المذبح أو الداخل إليه.

في قلبي فكرت في نقودي التي كسبتها ألاف تغطي حارة، أو

تفرش محطة كفر شوق، أفكها وأدور بها في حزام حول الأرض، وتنفسي ضيق، عيناي متحجرتان بالدموع، وخوف بارد يسري في أطرافي.

أفشل في الوصول إلى معنى لهذه النقود، صار تفكيري فيها يقودني إلى الموت والنهاية، لكنها هى تدفع النهاية، نقودي هى التي تدفعني إلى تحدي النهاية، كأنني اتصلت بالشيطان، عقدت حلفا سريا معه، تحالفنا لكي نشهد معا لحظات البشاعة، نعيش الجرح والتشريح. ولا نرى الدماء. نشعر بها تسيل تحت قمصان بيضاء ونظيفة، وبدل لامعة، ونجمع الأشلاء في حقائب جلدية أنيقة، أما العدل القديم، والحق والنبات الأخضر، والطفل الصغير، فقد صاروا نكتا سوداء، تجعلنا نبرز أسنانا بيضاء لامعة، ونمسح جباهنا بورق ملون له رائحة، نستعذب حكايات التشوه، انفصلت أنا ونقودي عن خراب الوجود، صار فيلما مرعبا لا يعنيني، مادة خام للحديث تفصل بين لحظات المتعة الصغيرة.

أراني وأنا راقد في سريري في زيي الرسمي: البدلة لامعة ورباط العنق أنيق. ألقي محاضرة فصيحة، كلمات كبيرة عن الثقافة والتاريخ والأدب، أراني أتكلم عن المستقبل والعرب، وأنظر إلى أقدامي فأراها غارقة في كذب فواح الرائحة بشع المنظر، لكن من ينظر إلى الأقدام، تسريحة الشعيرات التي تخفي الصلعة أهم من الكبرياء والمعنى، فهي ورباط العنق الغالي، تفتح أبواب المكاتب، وتنهي بسرعة كثيرا من المناقشات: بشرط أن تأخذ سمت الجدية والنجاح، وأن تقابل الحمقى بوجه مبتسم.

عندما خططت مؤامراتي الصغيرة لكي أرحل، وأنقذ نفسي من خرم الإبرة، لم أكن أعرف أنني أرحل في بحار بعيدة، كان الشاطئ يبدو لي أخضر قريبًا فيه ماء وخصب، ودفء وفير، سرت إليه وحدي حتى ضاع مني وغاب، صار سرابا يتلوه سراب، تعاقبت سنوات الإعارة عليّ، وشيء ما يشدني من عيوني، يسلبني نفسي وأحلامي، وأولادي، ويحيلني إلى مومياء ذهبية أنيقة، ترحل وتأتي دون استقبال أو وداع، أنهار الأرض لا تغسل ندمي، ومرارة الحلق لا يغلسها الحليب، أعود إليهم فلا أجدهم، أذهب مرة أخرى أبحث عنهم أعود شخصا آخر، صوت الخلاط، والتكييف والماكينة والطائرة، غناء بلا قلب ولا رائحة ولا حنين، صوت بلا فحوى، ونقود بلا رنين.

حبات الأزمة القلبية أستحلبها في الظلام، أخشى حدوث تقلصات الأمعاء فأتجول في الحجرة، أتحسس الأشياء التي يجب أن أضعها في الحقيبة، ملابس الأولاد الجديدة التي لم أسلمها أو أرسلها لهم، ذاب قلبي وأنا أشتريها لهم، وددت أن أعرف مقاسهم جيدا وذوقهم، تمنيت أن ترضى المجنونة مرة واحدة عما أختار، هاقلبي يذوب وأنا أحشو الملابس مرة أخرى في أوراقها الشفافة التي لم تفتح.

لا فرار الليلة من تلك الظلال التي تزدحم في الفجر على جدران الحجرة، ولا فرار من ذرات غبار محطة كفر شوق، تسد حلقي ولا تريد أن تنجاب، كأنها تريد أن تدفنني حيا.

بحثت في ضوء الفجر عن حقيبة الأوراق، كيس البلاستيك والغليون المرسوم عليه والدخان، وأوراق القصة القديمة، والوصية التي لم أكتبها ولن أكتبها أبدا. أطفال بلا دموع، اسم كأي اسم،

ستضحك هى كثيرا لو قرأت ما في هذا الكيس هى أخذت مني ورقة واحدة لم أعرفها. أنا أعيد لها قصة أولادي الذين لم ألمسهم. ورقة واحدة هى حلمي بأن أكون.. هى التي حرمتني من أن أكون إنسانا، أخذت إنسانيتي وذهبت مع الأولاد تستحم على الشاطئ وتركتني وحدي لغبار الطريق. أذهب. وأعود. أذهب. وأعود. صوت طائرة في أذني. أحسب ما دفعت. وما يجب أن أدفع.. ما كسبت وما لم أكسب. وما أزال راقدا تحت أثقال القهر وركام الفقر والإهانة.

عبرت المفازات الجهنمية وحدي، بعد الغرام لم يبق في القلب سوى ندم مر، التوت كل الطرق، مواسير رصاص لين، سكن الشيطان بين اللحظات. مؤامرة الرحلة، شركة الزواج، حسبة الطلاق، أكوام النقود، والودائع.. كل الحسابات الغريبة لا يمكن أن تمنع طلوع هذا الفجر، يدخل عليّ وحيدا ممدا على السرير في غرفة البنسيون، ليس حولي سوى حقائبي المفتوحة، وملابسي المستعملة وأغراضي.

* * *

دخل ابن عمي محمود يحمل معه أربعة سندوتشات فول وطعمية، وورقة صغيرة، بها مخلل.

لو استطعت لمنعته من الدخول.

أنا الآن أريد أن أكون وحدي تماما. أطارد الظلال والغبار، وأنتهي من وضع الأوراق في أماكنها.

ولكنه، محمود، يعرف كيف يجلس، وكيف يتكلم ويحكي دون أن أسأله.

محمود ابن عمي، عيناه عليّ ولا يراني.

كيف تبقى علاقة كهذه بين هذا الفلاح، وبيني أنا الدكتور منير عبد الحميد فكار أستاذ الأدب العربي في جامعة «المطل» بمدينة «دلوك».

أسرع محمود يتحدث عن المكسب والخسارة، وعن شركات الأموال، واللصوص، ومصائب الذين وضعوا نقودهم في جيوب غيرهم، وأهل البلد الذين يمسكون في ذيله لكي يرى لهم حلا وبقيت أسمعه وأنا وحدي: أحسب حسابي، ليس لي نقود ضائعة، نقودي قوية، واختياري سليم، وأنا والحمد لله في خير حال.

سألت نفسي، وهو معي، ماذا يكسب الإنسان لو ربح الدنيا وخسر نفسه: فقد أكد الطبيب المتخصص الذي أرسلته إليه، أنه مصاب بسرطان المثانة وأن الجراحة ضرورية، وهو ما زال يفكر.

ضحك وهو يفك ورقة المخلل قائلا ليس لنا ولا لك في هذا يا دكتور حل ولا اختيار.

حاولت أن أنشغل عن حديثه بحلاقة الذقن، وترتيب الحقيبة الكبيرة، وإخفاء ما لا أريده أن يراه: لكنه كان يرى كل شيء، ويضع يده في كل شيء. جلست أكتب له عددا من الشيكات التي يصرفها لأبي وأنا أرى النهار يتقدم.

سبحت ذبابات الصباح في فراغ الغرفة، وهو ما زال يطن بلا توقف، وسألت نفسي هل يعيش ليصرف كل هذه الشيكات، وماذا نفعل لو خر راقدا، أو سقط صريعا.

أصر مرة أخرى على أن يركب معي التاكسي، بل دفع هو النقود عند باب المطار.

وأنا أساعده في نقل الحقيبة الكبيرة، انفتحت وتبعثر ما فيها على الأرض. لو أنني أغلقتها بنفسي لما انفتحت وبان منها كل شيء.

قمر على المستنقع

مقدمـــة

هذه الرواية مأخوذة من الأوراق الشخصية للدكتورة «سناء فرج» أستاذة الجامعة السابقة، وطليقة الدكتور «منير فكار» أستاذ اللغة العربية المعار في جامعات الخليج، وقد سبق للدكتور أن حكى حكايتهما معًا تحت عنوان «أطفال بلا دموع».

الحمد لله ذهب، أغلق هاني قبطان باب الشقة خلفه، وذهب، أسرعت إلى غرفة النوم الكبيرة، وأغلقت ـ أنا الأخرى ـ الباب على نفسي، وحدي، أتكلم وحدي بلا صوت، كأنني أكتب بحبر أبيض على ورق أبيض، صوتي في أذني، يصعد إلى عقلي وينزل إلى قلبي.. وهناك يبيت.

أفرح عندما يحيطني فراغ، كأنني أسبح في قطيفة ناعمة أو حرير، سامحني يا رب، اغفر لي كل هذا البطر بالنعم التي تكاد تغرقني، واغفر لي ـ لو سمحت ـ عدم قدرتي على احتمال مزيد من هذا العذاب.

ذهب هاني قبطان ـ الآن ـ بعد أن أنزلنا وتامر ولمياء ودادة نجية في الشقة المفروشة، وذهب هو إلى فندقه القديم، سناء فرج.. الدكتورة سناء فرج وأولادها، في شقة مفروشة فاخرة في مرسى مطروح، أكرر اسمي وأكرر المكان، أريد أن أنسى الكون والمكان، وأريد أن أذكره.

هاني قبطان.. عشيقي، رفيقي، خطيبي، وأنا.. هه، أقترب من الخمسين. يريد فارسي الجميل أن أتزوجه على زوجته، أم هانية وتيسير، يريدني زوجة ثانية، محظية بيضاء، مخدعًا إضافيًا، وفراشًا «استبن»، عادي، لا شيء جديد، إلى أن وصلنا.

إجازة صيف باذخة مسروقة، عشرة أيام في وسطها عيد ميلادي، مناسبة سعيدة لسلخ الشاة بعد ذبحها، خلاص، خطوة وأصبح في الخمسين، السادسة والأربعين، البحر أمامي والزبالة خلفي.

شبابيك غرفة النوم الكبيرة تفتح على ظهر المبنى وتطل على مناور عمارات وخرابات وحشية، يتصاعد منها دخان حرائق قمامة. من النافذة الصغيرة أرى وسط الدخان، أطرافا صناعية من الجبس وأكوامًا من القطن والشاش، بقايا مستشفى ملاصق، تصدر عن الحرائق الصغيرة رائحة فذة.

أغلقت كل نوافذي، وأحكمت فوقها الستائر، صرت في عتمة النهار، خلعت كل ملابسي ووقفت عارية أمام المرآة.

* * *

ما زلت أحب جسدي رغم السنين، ما زلت أحب جسدي الحر الجميل، في هذه المرآة خافتة الضياء وجهي ساكن، ووجهي حقيقي ثابت، أتعرف على ملامحي، أنفي ما زال عريضًا، رجوليًا بعض الشيء، جبهتي واسعة، أتعرف من جديد على تفاصيل جسدي علني أجد نفسي، أقترب منها وأبتعد.

حقيقتي تبدو لي دائماً غامضة ومستحيلة، تجسيد فاتن للزمان والمكان، أيام وليالي من لحم، بطن وصدر، وعروق زرقاء هنا.. وهناك.. طاقات نور، وتجاويف ظلام، أطل على جنتي التي تنقلب إلى جحيم، راضية عن نفسي، أحب هذا الجسد رغم كل شيء.

صوت دادة نجية يناديني وأنا عارية أمام المرآة، أقفز بسرعة

إلى الباب أغلقه بالمفتاح، لا أريد أن يقتحمني أحد، لا نجية ولا الأولاد.

هي تحب أن ترجع إليّ في الصغيرة والكبيرة، رغم أنها تعرف أنني فارغة، لا رأي عندي ولا حكمة، هي تعرف كم أنا مسكينة، عند نجية مرآة سحرية غير كل المرايا.. لا أشاهد فيها جسدي فقط، ولكنني أشاهد فيها بلا ضوء خراب حياتي، تنعكس فيها علاقتي الموءودة مع أولادي، هم أولاد معي. أولاد لها. لا أب لهم ولا وطن ولا أرض، أمهم أيضًا حاضرة غائبة، أولاد دادة نجية، رغم أوجاع الحمل والولادة، رغم أنني أدفع كل تكاليف الحياة.

لا أريد أحدًا الآن، أريد أن أبقى وحدي مع جسدي العاري، مع وجهي الذي أزلت عنه كل الرتوش والماكياج بالكريم الأبيض الذي تسكنني رائحته.

أريدها غرفة تضاف إليها عشرات الغرف التي تحركت فيها عارية حرة. كل هذا الأثاث المزعج، وهذه النظافة النص نص، عشرة أيام سأعيشها هنا، عادي، مستحيل، تراب معلق فوق الستائر، ورطوبة عفنة رغم رائحة البحر القريب.

غثيان ورغبة في القيء، تسبق دائمًا دخولي إلى الذاكرة، هلع، سخونة في بطني، في أسفل بطني، هلع يتصاعد وطعم حموضة.

* * *

عشرة أيام هنا في مرسى مطروح، لو أستطيع أن أعيشها وحدي حرة، أحدق في جسدي، في نفسي، أسمع صوتي الذي تغير ألف

مرة، إيقاعه متغير مرة يأتي من بعيد ومرة يخمش وجهي، ويصيبني بالصمم.

صوتي هو ذاكرتي، نبرة بين الحكمة والسخرية، الحمد لله، لا أحمل حقدا ولا مرارة، حدث كل ما حدث وما زلت أنا سناء فرج على قدمي وحيدة عارية على شاطئ جديد.

رغم كل تلك السنوات ما زلت أحمل فرحا وخوفا غامضا من اقتراب عيد ميلادي ١٥ أغسطس.. في رأسي شلال طفولتي، وعذاب مراهقتي، ووحدتي وحبي الأبدي الذي ضاع مني قبل أن أمسكه.

عشرة أيام هنا، مع الرجل الذي يريدني ولا أريده، يقول يحبني ولا أقدر أن أصدقه، صرت أعرف وجوه الحب المختلفة ووجوه الكذب، ليس لنا لحظة طازجة بكر، أين أذهب من ذكريات الماضي.. ومطبات الحاضر ومخاوف المستقبل، المستقبل! من هذه الجميلة المغرورة التي تتحدث عن المستقبل؟

هاني قبطان يريدني زوجة ثانية له، هذا هو الفتات الذي بقى لي. ليلة في فراشي، وليلة عندها، بيننا أكاذيب صادقة، وصدق كاذب، أولادي، وأولاد آخرون له، ارتبك العالم كله، لم يبق بيننا سوى مقاعد خالية وشقق جديدة، وصالات استقبال، أنوار مضاءة في غرف خالية، أنواع جديدة من الشراب، والطعام والثياب، حطام مشاعر وحياة بلا أحلام.

امرأة مطلقة وحيدة أمام العالم كله، في السابعة والأربعين، عادتي الشهرية، وجنسي وجنوني، هلع يظهر ويسيطر ويختفي، يمكن أن ألقي بوجودي كله في سلة المهملات، لولا ذلك الصوت الذي يتردد

في عقلي وتكاد تنطقه شفتاي، أعيد شريطا بنفس السرعة أو أتركه يجري بسرعات مختلفة، صارت هذه لعبتي المفضلة.. عادي عادي وأحيانا مستحيل.

من أصابع زوجي منير فكار عرفت أنه قد دخل منطقة الجنون، أصابعه التي تمتد نحوي، يمسكني بها، يقبض على لحمي، في أي جزء من جسدي، عنف أخرس، يتركني ـ فقط ـ عندما أصرخ، أرى ـ رغم الظلام ـ في عيونه بريقا، وكان انتصاري العظيم أنني حصلت على الطلاق.

* * *

عدت أتأكد أن نوافذ الغرفة مغلقة وعاد الهلع يذرع بطني وصدري، ألمح شبح جسدي العاري في المرآة أحسبه شخصًا آخر، أدخل إلى السرير ثم أقوم بلا سبب.

في داخلي موات، وكسل، اعتراض ورفض، غباء وحمق، لكنني أقابل الناس بوجه آخر، نشاط دائم شديد، يفزعني نشاطي أحيانًا وأشعر أنني على وشك الجنون.

تعلمت أن أضحك من حنجرتي، من أحبالي الصوتية بصوت عال، أبتسم من عضلات وجهي، أترك وجهي يتحرك، أدق الأرض بكعب حذائي وقلبي ثقيل.

لا أريد أن يعرف أحد، فشلي، وضعفي ووحدتي الحارقة، لا أحد يستحق أن يعرف، بعد الطلاق عزمت أن أصنع طريقًا، أن أدعي نجاحًا واقعيًا، ماديًا كاذبًا.

لم يعد لي أحد أستطيع أن أعري أمامه فشلي أو حاجتي.. أو حتى وجودي البسيط.

سترت عري جسدي وحاولت أن أنام.. وعيوني ساخنة مفتوحة، في النوم قد تنسكب الدموع.

لو أغلقت عيني، أرى أشياء غريبة، أشكالًا هندسية، دوائر ومربعات تتصارع وتقتحم جسدي، تدور حول رأسي، أدخل في خيوط كأنها خيوط فنجان القهوة الذي ظلت نجية تقرأ لي فيه سنوات، كسرت فناجين القهوة، وتوقفت عن شربها بأمر الطبيب.

خطوط فنجان القهوة تسكن تحت جفوني كلما أغلقتها للنوم، تأخذني في دروب ومسالك ثم تتركني عارية في بقعة مضيئة كأنها قلب المسرح، هلعي سقوط مفاجئ أو عري مفاجئ وسط الزحام، سنوات وهذه اللحظات تفاجئني فأقوم مفزوعة، وتستحيل العودة إلى النوم بدون الحبة المهدئة.

الآن أنا أحسن كثيرًا منذ أن دخل هاني إلى حياتي، حبتي المهدئة، يعطيني كل شيء، ما عدا حقيقة نفسه، ربما هو هكذا بلا حقيقة، فارغ مثلي، قشرة لامعة، ونقود كثيرة، ووجهه أملس رطب، نشاطه الجنسي يثيرني، لا يشبع، يريدني في أوقات غريبة، وإذا استحال يتحول إلى طفل حرون غاضب، تعلمت أن أتعامل مع هذه اللحظات، أن أفتح طاقة يخرج منها بخار صدره فيتبعني طفلًا مطيعًا هادئًا، في تلك اللحظات ـ فقط ـ كان يداعب روحي ما يشبه الحب له، وعندما يغادرني ذاهبًا إلى زوجته كنت أكره نفسي أكثر من كراهيتي له، أكره قامته الرفيعة الطويلة القابلة للكسر، وظهره المنحني ورائحة العطر

الرجالي التي يداري بها اللقاء. يعود بعد يوم أو أيام، تظهر من جديد ابتسامته على وجهه الأملس والرطب، يحاصرني بثرثرته ومشاريعه وسهراته وخروجاته، ويهمس عن ليال جنسية مجنونة فأسلم له وقتي بلا شعور.

* * *

النوم بحري الخاص، واحتي الدافئة الظليلة، نادرًا ما أنام، وإذا ما نمت أستيقظ رائقة متوردة سعيدة، كأنني اغتسلت في حليب وعسل، تعود لي بشاشة روحي، كأن نسائم صيف لامست وجهي وصدري وأعادتني صبية واثقة محبة محبوبة بلا حدود.

تحملني ساعات النوم إلى حبيبي، إلى عزيز شفيق، غرامي، ساكن جسدي، كأنني خلقت له، في عالم خلق لنا نحن الاثنين فقط، رغم الأيام والسنين لم تبهت ذكراه أبدا، أتحدث عن عزيز شفيق وإليه، بصوت خاص قديم، لم أعد أستطيعه، صوت لم أعد أجده، أتحدث بلا كلمات فقد كان يفهم عني كل شيء، معه لم أكن في حاجة إلى كلمات، كل الكلمات تولد عنه، في لحظات الحب كان يغرقني في الكلمات، أمد رقبتي إليه كي أتنفس وأضع يدي على فمه وشاربه حتى يسكت.

عرفته وأنا في السنة النهائية في كلية التجارة، تخرج هو قبلي بسنتين من كلية الفنون، اجتاحني كعاصفة غير متوقعة من الرقة، والحب، والحرية، والقدرة على الفهم، كان مسيحيا، وحسبني أنا الأخرى مسيحية، قال لي: ليس فيك شيء غريب عني، حتى اسمي يمكن أن يكون مسيحيًا، كان يناديني باسمي كاملًا.. سناء فرج.. كأنه يعطيني حقي. في بيتهم يوم الأحد فقط نظام مخصوص، وكان لبيتنا بقية

طقوس من يوم الجمعة، صباح الأحد يذهب مع أمه إلى الكنيسة، ويمضي معها أغلب اليوم، يوم الجمعة كان يمضيه معنا ـ في البيت ـ لا يمل الحديث مع أبي المريض، يداعبه ويلاعبه، ويتحدث مع أخي المهاجر الأول أحاديث لا تنتهي عن أحوال البلد والسياسة، قليلًا ما أمضينا الليل معًا، ليلًا أو نهارًا لم يكن في حياتي شيء غيره، زمن آخر غير هذا الزمان وبلد آخر غير هذا الذي أراه. أعشقه، في الطريق وفي الأركان وفي ضوء النهار، في عربات الترام الخالية، وفي مسارات المترو الطويلة كنت ألتصق به، وحتى عندما اعترض كمساري المترو وصاح غاضبًا على تبادلنا قبلة سريعة، عاد وضحك معنا وهو يدفعنا للنزول كي نواصل ما بدأناه في الشارع الهادئ الجميل، حدث لي هذا فعلًا في زمن سحيق. نائمة على ظهري أحاول أن أستدعي عطره المستحيل.

* * *

أصابع زوجي منير فكار المجنونة، وعيونه المراقبة، تنتهك جسدي ووجودي، وتمتد إلى ما تحت أظافري، ماذا يريد مني هذا «الوطواط» الأحمق المخيف، يتقلب فوق طاسة ساخنة، ينقض فوقي، يكرهني، يريدني، يريد أن يلعب بي، وأن يأكلني وأن يضعني فوق الدولاب أيضًا، نقود النفط كانت قد بدأت تسري في عروقه بدلا من الدم، كل ما بيننا صار جحيما في جحيم، حتى المدينة التي نعيش فيها ديكور فيلم لم يبدأ تصويره بعد، أنفاس البشر عندما يظهرون ـ إذا ظهروا ـ غليظة وعدائية، وكل البضائع فقدت ما كان لها من بريق، شرنقتي التي أغزلها وحدي تسحق أمام عيني وهي لا تزال لينة يدوسها بأقدامه العارية

الغليظة، أو بضحكاته التي تسخر مني، ودائمًا.. دائمًا أصابعه المجنونة الخرساء، أغلق عينيّ وأسلم روحي لظلام في قلب ظلام.

ماذا فعلت لكي يسلمني قدري، وبلدي، وأهلي لهذا المصير؟ لماذا تخلى عني الجميع وتركوني مع كلب الفلوس هذا المسعور.. حولي ـ أيضا ـ أولادي، لمياء وتامر، أمد يدي فلا أمسكهم! أراهم، يسأل قلبي: من هؤلاء؟ ملامحهم متناثرة حولي، أجمعها ودائمًا تضيع مني، أسقط في غثيان وشعور قاتل بالذنب.

قررت بيني وبين نفسي، بعيدًا عنه أن أنزل مصر إجازة عشرة أيام، وأخذت موافقة رئيسي في الجامعة، وانتهى الأمر، عندما شعر وتأكد ضرب باب الشقة بقدمه وقال: وحدك كده يا مجنونة.. بلا كلام ولا سلام، كأنك سايبة لا جوز ولا عيال.. اخص عليكي وعلى تربيتك.

ارتفع كل شيء وانخفض عشرات المرات، قلبي وجسدي وشعري في يديه، والأكواب والأطباق وأجهزة الكهرباء، والأولاد في الأركان، بأظافري مزقت وجهه، وكل ثيابي، وأمضيت عشرة أيام في العناية المركزة.

نجية وتامر في الصالة الآن في عراك صاخب، صوته يزعجني، يذكرني بصوت أبيه، آثار أصابعه خالدة كأنها حروق في قلبي وكبدي ومصراني الغليظ، تامر يندفع إلى باب حجرتي ونجية تمنعه عني وتقول: خلاص.. خلاص ماما نامت.

بيني وبين هذه المرأة علاقة غريبة، أعيش في ظلها وأحتمي في وجودها عند اللزوم.

* * *

نعم علمني حبيبي وروحي عزيز شفيق في أول الدنيا، علمني في الحب ملامسة العالم برفق، جسدي، جسده، والأشياء، حتى أوراق الشجر، والظلط اللامع المستدير.

آثار الملامسة في روحي ما زالت، كمال لا يتم وشعور لا يكتمل، صدري الناعم وجسدك الذي لا يلين، بينهما روحي لا تهدأ ولا تستقر، أعطيك.. أم آخذ منك؟! يا حيرتي، يا حبي، يا سماء ما بعدها سماء، أنت لا تغيب، أفق الحيرة والشرود، كأنك نداء دائم للحب أو الصلاة.

كيف كان وجهك يملأ كفي، وأنا أشرب منك كلمات نشيد الإنشاد، تقرأ لي كلمات مثيرة تحمل رائحتك.

يومها كنت شاحبا يسكن عينيك خوف غريب، قتلتني سيرا على الأقدام، كنت صامتًا، حاضرًا كنار في الأحشاء، أقبض على يدك فجأة لكي أتأكد أنك موجود وأنك لم تذهب بعد، حكم الإعدام ما زال معلقا لم يصدر بعد.

إلى متى سأظل أذكر هذا الوجه؟. أرعاه وأدلل ذكراه، واستدعي لفتاته وملامحه، في المطعم القديم، وأنت تلعب بلباب الخبز كطفل عنيد يستدعي العقاب قلت: مستحيل أنا أموت هنا، كلنا نموت جماعة، مجانًا، بلا ثمن ولا قضية، قلت إنني يمامة كاملة لا تهاجر، وإنني قررت البقاء هنا وحدي لأنني أقوى منك، أنا أقوى منك!

للكذب، يا حبيبي، ألف وجه وألف سلاح، تركتني لكي أقابل وجوه الكذب البشعة وأتلقى في جسدي كل الطعنات.

لكل شيء نهاية، وكان لا بد لهذا اليوم الكئيب أن ينتهي نهاية كئيبة، تركني تحت بيت أبي في مصر الجديدة، صعدت الدرجات أسحب جثتي، حيث أبي العجوز المقعد، تتحرك فيه ـ فقط ـ عيونه المؤنبة اللوامة، تحيطه نباتات الظل الكثيرة التي أكرهها، لو أصب عليها مبيدًا فأجدها في الصباح ميتة، ماتت أمي وأنت يا أبي لم ترعها واعتنيت ـ فقط ـ بنباتاتك البذيئة.

عندما ألقيت بنفسي كنت كمن سقط على «خص» مصنوع من أعواد الذرة الجافة.. وحدي جريحة على الأرض أنادي ولا يسمعني أحد.

* * *

أنا نائمة وقلبي مستيقظ، الخروج من النوم إلى اليقظة أصبح الآن عسيرًا، يستغرق وقتًا طويلًا ويقتضي تحايلًا بارعًا وملاعبة طويلة، أتحسس بيدي عمري الذي أراه في رقبتي وصدري، وأعود لكي أتعامل مع كل تلك الأثقال المرة التي تصعد إلى بطني وأراها تسري مع الدم.

أصبح النوم مثل الإغماء، مخاطبة مجهدة لشخص غير موجود أو سقوط في بئر بلا قرار، ألعن النوم واليقظة ويوم ولدتني أمي، وحيدة حتى النخاع، وضائقة بكل شيء.

في فراغ سريري الخالي، أتأكد أنني مت ورجعت إلى الدنيا مرة ومرات، ليس بعثًا جديدًا، لكن من هناك ردني إلى الدنيا، وجدت طريقًا مسدودًا فرجعت إلى ضيقي وإحباطي وكراكيبي المحطمة،

عادي.. مستحيل ذلك التوقيت الدقيق الذي تقتحم فيه دادة نجية مقبرتي المطرزة، جن أو عفريت، وأحيانًا ماء بارد أرطب به جروحي، أحيانا أتصور أنها تسمع كلامي الداخلي وأنا نائمة.

الآن أصبحت نجية ـ صديقتي ـ تعرف كيف تتقدم وكيف تتأخر، كيف تظهر في يومي وكيف تختفي، أحسدها على وجودها المكتمل الذي رضي بها ورضيت به، يدها على رقبتي وأكتافي توقظني في حنان حقيقي صامت، أفتح عيوني على عيونها، تمسح جسدي في محبة، ورائحة اشتهاء، أدير لها ظهري، فتضغط عليه في حسم وقوة:

ـ قومي.. قومي الباشا وصل.

أسمع صوت هاني قبطان عاليًا في الصالة، يمرح مرحًا صاخبًا مفتعلًا مع لمياء وتامر، أشد جسدي في السرير استعدادًا للقيام، أقول: أمامي مساء مشحون، وليلة صاخبة.

* * *

خرجت إلى صالة شقتنا المفروشة، وأنا أرتدي «روب» أزرق فاخرًا اشتراه لي هاني، الأثاث كما توقعته ـ فقط ـ أكثر قذارة، نظيف على السطح فقط، يحمل آثار ورائحة نوع معين من الناس، كأنهم ما زالوا يسكنون معنا في الشقة، يحدقون فينا من المرايا والأركان، أثارهم ما زالت على مساند المقاعد.

هاني ـ أيضًا ـ قائم كما توقعته ـ فقط ـ أكثر إشراقًا وصخبًا، يرتدي قميصًا ملونًا ـ أنا الذي اخترته ـ مفتوحا حتى قرب البطن، شعر صدره الناحل يثير الاشمئزاز، يحاول أن يشتري المرح من لمياء وتامر،

كأنه ينفخ في رماد، ينظران له في ريبة، وتخوف، أما «نجية» فتتحرك خلالنا جميعا في مهارة، علب «البيتسا» وزجاجات «الكولا» متناثرة في الشقة تزيد من فوضاها الغريبة.

بحثت لنفسي عن مقعد، ألقيت بجسدي المتثاقل عليه، أراقبهم وكأنني أدور في فلك آخر غيرهم.

من بعيد أرى زرقة بحر مطروح الخاصة تسرق عيني وروحي كأنها ماض قديم لن ألمسه فأتمنى أن أكون في أية بقعة مع البحر وحيدة بعيدا عن هنا.

أصبحت الآن أدخن كثيرًا، خاصة عندما أكون جائعة كأنني انتقم من نفسي، وبالذات في وجود هاني الذي لا يكف عن محاولة منعي عن التدخين، وضعت علبة سجائري، و«الولاعة»، و«الطقطوقة» الصغيرة التي أصحبها معي في كل مكان إلى جواري، ورحت أراقبهم من خلال الدخان، أتظاهر باستقرار خارجي زائف، وقوة شكلية، تخفيان ما أشعر به من فراغ وغباء وعدم قدرة على ربط الأشياء في سياق واحد، كأنني أعيش أجزاء أو شظايا من عالم قد انفجر.

كهلة أنا، مجهدة، كبيرة، تغير العالم حولي جدًا، كما تغير إدراكي له، الثابت الوحيد ـ الآن ـ هو البحر حاجتي له، واستحالة أن أدركه.

* * *

كنت ذات ضفيرتين طويلتين مشدودتين خلف ظهري، في عنف وإتقان، تسرحهما لي «جازية» خادمتنا الفلاحة العفية التي تضمني إليها في قوة حتى أضحك وأبكي، وينفطر الدمع من عيني، أعود أشاكسها حتى تمسك بي من جديد، ويمتلئ أنفي برائحتها النفاذة

التي لا أعرف من أين تنبعث، أدفن رأسي في صدرها الكبير المربوط بقطع غريبة قوية من الأقمشة التي تصنع لها أمي منها «سوتيان» غريبًا تسميه هي «العنتري»، أضع يدي الصغيرة عندها فتتأوه، ونتمرغ معًا على الأرض حتى يمتلئ أنفي برائحتها التي ما زالت تبعث في رأسي دوارًا.

* * *

دخنت ثلاث سجائر، وضقت بسلوك تامر العنيف مع أخته، ومع هاني، كأنه ينتقم من كل شيء: الأثاث، والطعام، والشراب، والناس، نظرات هاني تستعطفني لكي أضع نهاية للحظات بلا معنى، يرجوني أن نقوم حتى ندرك غروب الشمس على الشاطئ، أتحرك ـ أنا ـ في بطء متعمد وعناد.

أعدت لي نجية الحمام، هناك استمتعت بالماء الوفير، واستمتعت ـ من جديد ـ بالباب المغلق بيني وبينهم، عدت إلى الغرفة لكي أختار ملابسي، «نجية» معي تغرق جسدي بماء «الكولونيا» الخفيف الذي أحبه، تتملق جسدي الوافر بعينيها ويديها، وتؤكد لي أن صبغة الشعر أحسن هذه المرة، فلا أثر لتلك الألوان الغريبة عند الجذور.

من خلال الباب المغلق كنت أضع ـ أنا وهاني ـ برامج متنوعة لنا وللأولاد، محاولين في خبث مكشوف أن نضمن أوقاتا للخلوات والنزهات المنفردة، لم يكن هناك داع للخبث فقد كان الأولاد مرحبين بهذا كأنهم يريدون التخلص مني ومن هاني، «نجية» كانت تشعر بهم، هم يريدون فقط حسابًا مفتوحًا، ووقتًا مفتوحًا ـ قدر الإمكان ـ وألا يحاسبهم أحد، وهذا ـ في الحقيقة ـ كل ما أستطيع أن أقدمه

لهم، «نجية» وحدها هي التي تبقي لنا مظهر الأسرة التي نحاول أن نكون.

أعرف أن البنطلون الضيق والبلوزة الواسعة يثيران هاني، ويجعلانه يدخل معي في صراع بعينيه النهمتين، يصغرني هو بعامين، ما زال يحاول أن يثبت ـ دائما ـ فحولته، وبأنه قادر على الجنس في أي وقت.. يبدو لي مضحكا عندما يتقافز محاولا إثارتي وإثارة نفسه.

اختفت «نجية» للحظات وعادت، وهي تحمل لي شراب اللوز، بعد أن أضافت إليه قطرات من زيت خاص حضره لنا عطار قديم في الحسين.. كانت تبتسم لي مشجعة كأنني أخطو إلى المقصلة.

* * *

اندلع في الخارج احتفال الغروب في الأرض والسماء، امتلأت الشوارع الجانبية وشارع الكورنيش الرئيسي بالدراجات الملونة، وعربات مرسى مطروح التي تجرها حمير متعبة وأولاد أشقياء. وعلى الأرصفة زحام من الأولاد والبنات صخبهم له وزن وثقل. اخترقنا الشارع لكي نصل إلى السيارة الفاخرة التي أستأجرها هاني فور وصوله كان يحب أن يبهرني بمثل هذه المفاجآت، التي أستقبلها ـ أنا ـ بلا مبالاة وتجاهل يغيظ. كثيرًا ما نلعب معًا هذه الألاعيب، وكأنها هي كل العلاقة التي تربطنا.

كانت السيارة حقًا جميلة ومريحة وسرعان ما أصبحنا خارج المدينة ودخلنا في سكون بدأ يحتويني. كان هو ـ على ما يبدو ـ يستعد لصياغة جديدة لمعانيه المتكررة. عن الحب، وإحساسه بأنه يستطيع معي أن يبدأ حياة جديدة، وأنه قادر على أن يمسح عن قلبي وروحي

ما ران عليهما من أثقال. هو لا يشكو من زوجته، فهي ـ للأسف ـ طيبة ووفية، واحتملت معه الكثير. كما أنها أم ممتازة. لكن بينهما.. لم يعد هناك شيء «أنا أقصد السرير، ولكن كل شيء.. اللحظات بينهما صارت فارغة، لا شيء يحركني.. ليس هناك أفق للحياة».

ثم يتبع ذلك بوصلة ـ لا أستطيع أن أقاومها ـ في مدحي، ووصف مفاتني: جسدي وروحي، وما يقدمه وجودي له من سعادة وحرية وأمل في الحياة.

يطرب قلبي، ولكنني لا أصدقه.

* * *

بلغني خبر وفاة حبيبي عزيز في باريس بالسرطان، وأنا في فترة النقاهة الصعبة، بعد حصولي على الطلاق من منير فكار، أمضيت أيامًا فارغة رهيبة، ظلت لحظاتي معه تطاردني، لم أكن أقاومها كنت أستلقي ساكنة وأستقبل ذكراها في كل جسدي وروحي، أعيشها مرة أخرى، وأنا مغمضة العينين أو محدقة لا أدري، أتذكر أحاديثي معه، وأتلفت حولي، وأنا أسمع نبرة صوته، أكاد أشعر بكلماتي تخرج مني من جديد.

كل شيء معك له طعم ومعنى، حتى العمال الذين يحفرون الشارع، حتى وابور الظلط، ومقابر المجاورين، أنت لي محور العالم، أقصد ـ بالضبط ـ محوره، حولك تتجمع الأشياء وتدور. تحضير طبق الفول لك في الأتيليه القديم، وتسخين العيش على وابور الجاز، تمسك يدي وتعلمني أن أفعل ذلك في إتقان، ابتسامة عينيك التي تسحر قلبي، تأخذني دون أن تمد يدك، فقدتك، تركتني وهاجرت

لكنني كنت أعرف أنك موجود، أنك تعلم، وترى وتفكر، لا يهم أن أسمع منك أو عنك كنت موجودًا في هذا الكون، تتنفس، وتلمس الأشياء بيديك أما موتك، وذلك السرطان الذي افترس كبدك فقد كانا بئرًا من الظلام والظلم لم أعرف كيف أعيشهما أبدًا، من يومها وأنا أشعر أنني جسد فقط أما روحي فقد أغلقوا عليها في تابوت خشبي وشيعوها إلى حيث رحلت.

أجلسني إلى جواره في السرير ـ بعد أن أنهكنا الحب ـ وأخذ يترجم لي قصيدة عنوانها «ورقة الشجر المجنونة»، بحثت عنها في أوراقي القديمة، فلم أجد لها أثرًا، كل ما أذكره منها، ذلك الحوار المؤلم بين الرياح، وبين ورقة شجر ساقطة: نصف حية، نصف ميتة.

* * *

امتد بنا الطريق وكأنه بلا نهاية، لم يكن جمال البحر ولا احتفال السماء بالغروب بقادرين على أن ينتزعاني من الاكتئاب الدوري الذي ينتابني، فأكاد أشعر بثقل كل شيء على قلبي.

المدن الجديدة التي ندخل إليها ونخرج منها مكررة تذكرني بمدن الخليج الخالية من الطابع، ومن الناس، شوارع فاخرة، ومبان فاخرة بلا بشر، كانت أشجار التين المهيبة الجميلة تكاد تتلاشى لتحل محلها أشجار «الفيكس» الضخمة، أوراقها كأنها مصنوعة من البلاستيك، تنتشر في كل مكان، ثقيلة الظل وخالية من الروح، تبدو في الظلام الذي بدأ يزحف، وكأنها أشباح لكائنات غريبة لا تمت لنا بصلة، أشجار مكررة أوراقها ثقيلة ضخمة كأنها حيوانات تفتح فمها لتبتلع الهواء.

سكت هاني بعد أن تعب من الحديث المنفرد، تعلم أن يتركني لهذه النوبات، كنت أحب منه هذا وأشكره عليه، لم أدخله إلى تفاصيل حياتي القديمة، وهو لم يبد اهتمامًا زائدًا بها، هو يتمسك بأقواله العامة عن أننا نستطيع أن نبدأ معًا حياة جديدة، يكرر لي هذا في طمع طفولي وسذاجة حتى أكاد أصدقه، فأترك نفسي أشاركه مشاريعه وخططه التي أعرف أنها لن تحدث، لم تكن خبرته لا بالسوق ولا بالنساء تعني شيئًا بالنسبة لي، من البداية قررنا أن نلعب على المكشوف، فأنا قد دفعت كل فواتيري، وسددت ديوني وأكثر للحياة وللناس جميعًا، لا أخشى شيئًا، ولا أريد شيئًا، لا أحمل له في قلبي شرًا، ولا أحاول خداعه.. لكنني لا أحمل له شيئًا آخر، أعرف قدراته وما يستطيع أن يعطي، ولا أنتظر منه أكثر، سنسير دائمًا في خطين متوازيين، ولن نلتقي سوى ذلك اللقاء العابر السريع، أما هو فلم يكن يكف أبدًا عن تلك المحاولة الخائبة لكي يعصر من لحظاتنا معًا رحيقًا ليس فيها.

لم أكن حتى أريد أن أمتحن امتحانًا حقيقيًا عروضه المتكررة للزواج، فأنا أعرف أنه سوف يهرب في النهاية، أو أن الزواج سيكون تجربة أخرى بذيئة أضيفها إلى رصيدي من خيبات الأمل، كنت راضية بوحدتي وسط هذا الزحام، بل وممتلئة أحيانًا باستقلالي الصلب الذي حصلت عليه بالدم والجروح.

وقف هاني عند فندق فاخر جديد على الطريق، عاد يقول إنه لن يسمح بأن تضيع ليلتنا الأولى هنا في هذا المزاج القاتم.. «وكل شيء حولنا يدعو للفرح والاحتفال».

كانت حديقة الفندق جديدة هي الأخرى منسقة بالمسطرة، البار الذي قادني إليه كان باردًا، خاليًا تمامًا أما المشروب الذي طلبته، فقد كان لاسعًا.. وكنت أحبه.

* * *

اتخذت قراري ليلًا، وفي الصباح كنت صلبة ومصممة لم يكن قد مضى سوى ستة شهور على حصولي على الطلاق من منير فكار، كأنني ولدت من جديد، رغم الإجهاد والمتاعب المادية الجديدة، التي واجهتها، بعد أن أخذ كل شيء تقريبًا، كل شيء إلا أنني أتنفس ليلًا، وفي الصباح رجعت أقرأ، وأسمع الموسيقى التي كان يسخر منها دائمًا.

كان قراري أن استقيل من الجامعة، أن أقطع كل الخيوط التي تربطني بهذا الماضي المرعب الذي أمضيته معه، ومع أصدقائه والدوائر التي كانت تحيط بنا، كانوا قد تحولوا جميعا، بعد الفضيحة، وقسم البوليس، وما نشرته الجرائد إلى عيون شامتة، وأيد تمتد لكي تنبش في أخص خصوصياتي. كنت أشعر بهم يتهامسون من حولي في طنين لا يسكت.. ماذا ترك فيها، وماذا ترك لها، حتى عيون الأساتذة الزملاء تغيرت وهي تصافح وجهي في الصباح، لم يعرفوا كيف يخفون نظراتهم لي كمطلقة سهلة، كأنهم كانوا يتقلبون معي ليلًا في الفراش.

معي تامر ولمياء وحساب ضئيل في البنك، وشقة صغيرة انتزعتها من أنياب الأسد، من هذا الكهف بتصميم لبؤة جريحة كان عليّ أن أبدأ وحيدة، وكانت خطوتي الأولى أن أنهي من حياتي ذلك الكابوس الذي اسمه حياتي الجامعية، الذين ذهبوا مثلنا في إعارات كانوا قد

تحولوا إلى كائنات غريبة «أسماك قرش» مفترسة، لا تعرف زمالة ولا صداقة، علمتهم سنوات الغربة كيف يفترسون لحم إخوانهم حيًا، وكيف يصعدون على أكتاف أقرب الناس إليهم، أما من لم يذهبوا فقد خنقهم الفقر والهزال، وأصبحوا يحدقون في الملابس والسيارات التي عاد بها الآخرون في بلاهة وتلمظ، كأن كل شيء في ذلك الكيان الذي كان قد انفجر في لحظة واحدة وتحول إلى أشلاء بلا منطق ولا سياق، بعد أن انتهيت من محنتي مع منير لم يكن من الممكن أن أحتمل هذا المكان للحظة واحدة، انتقل الأساتذة الزملاء ـ الرجال قبل النساء ـ من هذه الكلية إلى تلك، حاملين الأخبار والشائعات عن منير وسناء في همس مدو وضحكات يتندر بها الطلبة والفراشون.

لم يسألني عميد الكلية الطيب أسئلة كثيرة، كاد يضمني بعينيه، وهو يقبل مني الورقة التي تحمل استقالتي.

وأنا أشق زحام الطلبة بعربتي الصغيرة مسرعة نحو كوبري الجامعة كنت كأنني أهرب من غابة حمقاء.

* * *

من خلال زجاج «البار» كنت أرى البحر، مهيبًا ممتدًا بلا نهاية في الظلام، البحر أعظم شيء في حياتي، مطلق ووحيد، أعشقه، وأحسه يقتحمني، وأقتحمه في ندية كاملة مستحيلة، النظر إليه يجعلني راغبة في البحث عن مكان جديد، عن نقطة جديدة أبدأ منها، نقطة قريبة لكنها غامضة، تقع هناك في ذلك المجهول، هناك سأجد ما أبحث عنه، سأجد ما ضاع مني.

كان هاني ـ بعد عدد من الكئوس ـ قد أخذ راحته، وزال التوتر الذي يصاحب حديثه وابتساماته المغتصبة، عاد شخصا طبيعيا بلا افتعال، مشتاقا في الحقيقة إلى امرأة حرة تحبه، تقبل عيوبه وضعفه كما تفرح بما يقدمه من إمكانيات مادية واسعة، امرأة تقبله كما هو، وترضي غروره.

كنت أشعر غالبًا أن زوجته تجلده، وأنه يخاف منها، ولكنه يداري ذلك دائمًا أمامي، ولا يستطيع الاعتراف به أو الحديث عنه، كان يحدثني عنها في كلمات وصور مكررة محفوظة، كنت قد التقيت بها عدة مرات في حفلات وزيارات لبعض الأجانب الذين يتعاملون معهم ووجدتها امرأة عادية، جميلة ولكنها مفتعلة بعض الشيء، لها أظافر حادة، تحسن إخفاءها تحت ستار من الأدب المصنوع.

عرفت أن المشكلة في هاني نفسه أنه ليس ذلك الرجل الذي يعطي امرأة مبررًا لوجودها فلا تعود تسأل أو تخاف، أو تفتقد شيئًا، يطلب الحرية ولا يستطيع أن يصنعها أو يهبها، كنت ـ عادة ـ أقول لنفسي.. إنه رجل من صفحة واحدة، عادي، تنزلق معه اللحظات والأيام، ولم يكن في حياتي ـ الآن ـ ما يمنعني من أن أمضي معه، وكان من حقه، ومن حقي أن نعرف كيف نستمتع معًا.

طلب مني أن نمضي الليلة ـ أو جزءًا منها ـ في فندقه، وأخذ يؤكد لي كيف أنه أعد كل شيء، وأنه رتب أموره مع الإدارة حتى لا يزعجنا أحد، وأن السهرة في شرفته ستكون خرافية.

* * *

كانت أيامي الأولى مع زوجي منير فكار مرعبة، لم نكن أطفالًا، وكان يعرف عن علاقتي الممتدة مع عزيز، وعن هجرته بعد أن كنا على وشك الزواج، ومع ذلك فقد أصر بشكل غريب على أن يجعل من مسألة أنه ليس الرجل الأول في حياتي موضوعًا تحتيًا، موجودًا دائمًا يرجع إليه - غالبًا دون تصريح مباشر - وأحيانًا بأكثر الصور فجاجة وبذاءة.

حاولت بكل ما أملك من حيل أن أكسبه، وأن أشعره أنه «رجلي»، ولكن يبدو أن الأمر لم يكن يتعلق بي مطلقًا أو بجسدي أو تاريخي. الأمر كان متعلقًا به هو، وبفهمه لي ولعلاقتي معه، أراد أن يعرف مني تفاصيل التفاصيل، وعندما رفضت، أخذ هو يصنع قصصًا في خياله، ويصدقها، ويحاسبني عليها.

ظل يفاجئني في أصعب اللحظات بقوله: أنت لا تريدينني، أنت لا تحبينني، أنت تفكرين فيه، ساعتها يكون كل جسدي معه.

عرفت على يديه، ومنذ البداية لعنة الجنس الرديء، الجنس الذي يتحول إلى صراع أبكم، وينتهي بإرهاق للجسد وفراغ في الروح.

وبعد أن دب الحمل للمرة الأولى في جسدي، وأخذت أشعر بذلك الكمال، والقوة التي يبعثها جنين يتحرك شعرت بأنني استطعت أن أضمد له تلك الجروح الغائرة في روحه، إلا أنه كان دائمًا يوقظها، ويعود «ينكش» فيها، حتى اقتنعت أنه يستعذبها، وكأنه حيوان يحب طعم دماء جروحه، فتركته يفعل وأسدلت بيني وبين نفسي - على كل هذا الموضوع - ستارًا سميكًا، ويبدو أن هذا زاد من جنونه.

* * *

النسوة الخارقات اللاتي نسمع عنهن في هذه الأيام، تلك التي تقتل زوجها وتمزقه وتضعه في أكياس بلاستيك تحت مقاعد القطار، وتلك التي تدفن أولادها تحت فراش عشيقها.

لا أدري ما الذي دفع بصورهن إلى ذهني، وأنا جالسة مع هاني قبطان في ذلك البار الأنيق، أخذت أتحدث معه عن هذه الحوادث باستفاضة، وكان هو مصرًا على أن هذه الأمور كلها ترجع إلى الجنس، إلى ضعف الرجل أو فقره، أو الزحام، وأخذ يردد ما يقوله الأطباء النفسيون في الصحف.

ظلت صورهن تختلط أمامي، مع لحظات من حياتي مع منير، ومع غيره من الرجال الذين عرفتهم بعده، وحتى مع لحظاتي مع هاني ذلك المهذب الوديع الذي يجلس أمامي.

شيء ما تغير في ذلك الكون الذي أعيشه، شيء عنيف فاجر يتسلق كل ما أملك من حنان وحب وعواطف إنسانية، يخنق كل شيء ويحوله إلى مطاو وسكاكين.

يبدو أن الشراب، أو البحر المستحيل الذي غرق بعيدًا عني في الظلام، أو ذلك المكان الأنيق الخالي من البشر، يبدو أن كل هذا مع شعور حارق بالوحدة هو ما دفع دموعًا خرساء إلى عيني، مع أنني لم أتعود أن أبكي أمام أحد.

في طريق العودة ـ الممتد الطويل ـ طلبت من هاني أن يتركني الليلة، فأنا لم أعد صالحة لأي شيء.

* * *

استيقظت في سرير مزدوج مزعج، على حرارة شمس متسرعة، وأصوات نهار متأخر غريب، أفتقد سريري القابع في آخر ـ كهفي ـ شقتي الصغيرة بمدينة نصر، «نجية» حاولت أن تعد لي فراشي، وأن تحيطني في محبة بأشيائي التي تعودت عليها، إلا أن غربة السرير والغرفة ظلت صامتة.

لم يكن الأولاد قد استيقظوا بعد، تصلني حركة «نجية» في الصالة والمطبخ، وأنا أفيق على وجودها الذي تعودت عليه.

لا بد أنني بكيت كثيرا قبل أن أنام، فقد كانت الأثقال التي تعودتها فوق قلبي قد خفت أو غسلت بماء وفير، حمدت الله لأنني لم أدخل ليلة أمس إلى ليل «هاني» أو فراشه، فقد أصبحت الآن أحتاج إلى نهار كامل لكي أستجمع نفسي بعد مثل تلك الليالي، نهار كامل على الأقل، لكي أعيد وضع القاطرة على القضبان، لا بد أنه الآن غاضب مني ومجروح، سيظهر هذا اليوم بالتأكيد، سيخترع طريقة ما يعاقبني بها عقابا خفيفا ويظهر لي كم ضيعت.

فتحت نوافذي، وأنا لا أزال وحدي، لكي أرى شريط البحر المحبوس، والمباني والأعمدة المربكة، أطل على حديقة المستشفى القريبة الخربة المليئة بنفايات طبية ملقاة بلا رحمة، حرائق الأمس كانت لا تزال تنفث رائحتها الفذة، أغلقت النافذة ـ إلا قليلا ـ وقررت أن آخذ الأولاد وأهرب إلى بحر، خالٍ بعيد، وشاطئ بكر أبيض، أعرف أنه ما زال موجودا في أطراف مطروح، الأولاد يحبونه بعض الوقت، وأنا أحبه إلى الأبد.

في جسدي وروحي هذا الصباح شوق لبهجة قديمة، للشمس على جسدي، وصمت أمام بحر غامر مفتوح، أسكنه ويسكنني،

شوق لوحدة من نوع آخر، غير تلك التي أعانيها وسط الزحام ومع الناس، وحدة خاصة أشعر فيها ـ أحيانًا ـ بالشبع والارتواء.

سآخذهم إلى هناك. «نجية» فقط معنا، لنمضي اليوم كله وحدنا، أيام نادرة تحتاج إلى حظ وتوفيق ومزاج رائق، نادرا ما تجتمع، أيام مسروقة، أظل في مثل تلك الأيام خائفة من أن يحدث شيء.

اليوم لن أخاف، سأضم أولادي إلى روحي، وأقبلهم في وحدتي وصمتي، سأعود أحملهم جنب قلبي فأنا أحبهم، أحبهم وأخاف عليهم.

فتحت الباب وأخذت أنادي على «نجية» بصوت مبتهج.

* * *

بعد سنوات خمس أو أكثر من السكن وحيدة في عمارة جديدة من عمارات مدينة نصر، يصبح المكان مألوفًا وخطرًا في نفس الوقت، يقترب السكان بعضهم من بعض، ويتطلعون داخل الشقق، يتلصصون على الداخل والخارج، وحتى على أصوات غرف النوم، امرأة وحيدة «بدون» رجل رسمي، مع أولادها ـ فقط ـ تصبح طعامًا شهيًا للعيون، وميدانا للاختبارات المتنوعة، والمطامع المفاجئة، خاصة عندما تكون جافة مع نساء العمارة، وعازفة عن سهرات «القزقزة» والتليفزيون، والنميمة.

لأنني أسكن في الدور الأول فقد دخلت في معارك صغيرة مع البواب وعائلته، استعملت فيها الذكاء والحرص والكرم المحسوب حتى وصلت إلى صيغة مريحة، محتفظة ببعض التقاليد الطبقية القديمة،

ومتجنبة ذلك التعدي والاختلاط الفج الحديث الذي يحدث بين البوابين والبهوات، ورفع الكلفة الذي يتبدى في الخطاب اليومي والجلسات التي تحدث بين الهوانم وبين زوجة البواب وبناته، فضول النساء الذي يغذيه الغبار والفراغ، وتنقله الشغالات والمكوجية وسماسرة الشقق المفروشة، هي البضاعة التي يتاجر فيها البواب لكي يقدم شبكة من العلاقات والمشاكل تعود عليه دائمًا بالربح وتأكيد المكانة، حظي كان غريبًا ـ في البداية ـ مع الشغالات اللائي جئن عن طريق السمسار، طامعات في وضعي، وأولادي، وكوني عائدة من الإعارة، كان عليّ أن أمارس أنواعا من الصلف والقسوة جديدة على نفسي، لم أدفع لواحدة منهن أجرة الشهر، بعد أن سرقت ما يوازي مرتب سنة، وسلمت «بغي» أخرى إلى شرطة الآداب بعد أن كادت تلحق بالبيت فضيحة كبيرة، وتكررت المآسي، حتى فضلت أن يعمل عندي رجل، يأتي ليوم أو يومين في الأسبوع، كان الاختيار مرهقًا، خاصة مع الأولاد، الذين لم أفلح في زرع أي نوع من النظام في سلوكهم اليومي، في غرفهم، وفي استعمالهم للأطباق والأكواب، وصالة البيت.

لسبب ما تأخرت يومها في الذهاب إلى عملي الجديد، كنت على باب العمارة حوالي الحادية عشرة صباحًا، هناك رأيتها محطوطة على دكة البواب، هي نفسها «نجية الفنجري»، كنت قد رأيتها مرات من قبل، في المدخل، وأمام العمارة، كان وجهها الأسمر الطيب الذكي وكيانها القديم، يلفتان نظري، كانت غريبة على هذا العالم الجديد الذي يطحن الجميع ويصبهم في قوالب متشابهة، أكثر ما يلفت النظر فيها صوتها المنخفض، وإيقاع حركتها الهادئ الذي يؤكده جسدها

«التخين» شبه المستدير، نوبية نظيفة كأنها تربت في قصر أو في بلادهم البعيدة، لم يجرحني أبدًا تلصصها على شأن من شئوني أو فضولها، كنت أراها أحيانًا تتحدث في ود مع «لمياء».

يومها كانت «محظوطة» على دكة البواب، كأنها بنيان منهار، أطلال، تضع بين قدميها كيس بلاستيك أسود كبير، وتخفي وجهها الباكي بقماش أسود خفيف.

وقفت معها وعرفت الحكاية، كانت تعمل في «فيلا» من «الفيلات» الفاخرة في أعلى العمارة، عند ممثلة درجة ثالثة، متزوجة من تاجر قطع غيار يزورها أحيانًا، اتهمتها الممثلة بسرقة مجوهرات، وبعد الضرب والإهانة والبوليس ثبت أن الزوج قد استرد بعض عطاياه، استغرقت المحنة ثلاثة أيام، أمضتها «نجية» بين القسم والشقة والنيابة، وعندما جاء الزوج وأخرجها مما هي فيه طلب منها العفو وأن تبقى مع زوجته، إلا أن «نجية» رفضت وخرجت وهي لا تعرف لها مكانا وجلست تغسل صدرها بالبكاء على دكة البواب.

أخذت «نجية» إلى صدري، إلى بيتي، ومن يومها لم نفترق، وجدتها، في مصادفة غريبة استعدت بها كثيرًا من حياتي الماضية، من رائحة أسرتي قبل أن يفسد كل شيء، وفي تعامل متحضر غير محسوب، تقاربنا بلا خبث ولا طمع.

أخلاق الجواري المنسوجة مع الطمع والخبث كانت أبعد ما تكون عن أخلاق «نجية» لقد خلقت هذه المرأة لكي تعطي.. لي، وللأولاد، للمكان الذي تتحرك فيه، هي لا تعرف ـ أيضا ـ صمت الخدم، الذي عرفته عن قرب، وكرهته، الصمت الذي يخفي مؤامرة،

وحسدًا، وطمعًا، فيما تملك أنت أو تنفق، ذلك الصمت الذي يشعرك دائمًا بأنك مهدد ومراقب، وأن هناك مفاجأة خبيثة في انتظارك، هذا الصمت كان عند «نجية» رضا وحنانًا، مع «نجية» لم أعد أخشى المفاجأت، أسلمت لها أولادي، أغلب مفاتيحي، وحاولت معها أن أصلح ما أفسده الدهر في حياتها.. وفي حياتي.

* * *

استطعنا أن نصل مبكرين إلى تلك البقعة التي أحبها على الشاطئ الأبيض خارج المدينة، حاول تامر أن يعترض على ذلك المكان المنعزل، ولكننا أغريناه بالسباحة الممتعة، وبأنه يستطيع أن يمضي السهرة في أكبر «مدينة ملاهي».

حاولت أن أقلل من التدخين، وأن أحافظ على جو البهجة والرحلة، «لمياء» كانت جميلة جدًا في «المايوه الجديد»، أخذت معي كتابي، و«كاسيت» تامر ذا السماعات وثلاثة أشرطة أحبها «لموزار» و«سبيليوس»، ورتبت مع نجية طعامًا وشرابًا نظيفًا صنعناه في البيت.

راقبت لمياء وجسدها الوردي الرائع، عاد لي نوع فريد من الارتباط بها، وبأيامها وهي تحبو وتتعلم المشي والكلام، حاولت أن أصرف عيني عما في وجهها وعينيها من مشاكل، ومن إدانة موجهة للعالم ولي شخصيا، حاولت أن أطعمها اليوم مع الشمس والهواء، حنانًا غير مشروط ومحبة تتجاهل كل ما حدث في حياتنا معًا، كان فيها كثير من براءة أمها القديمة، واندفاعها السهل للفرح بالحياة.. وتامر «رجلي الصغير» ما أجمله اليوم هو الآخر، رغم عفريت المراهقة

والغضب الذي يركبه، ورغم جبهة منير فكار المقطبة التي يحملها، وأنفه الأفطس الكبير.

بعدنا كل البعد عن الشواطئ المزدحمة، وأصبحنا ـ تقريبا ـ وحدنا، مع ثلاث أو أربع عائلات متناثرة نكاد لا نسمع لهم صوتًا، وعلى الرغم من المدينة الجديدة التي تقيمها إحدى النقابات لأعضائها، والتي توقف ـ الحمد لله ـ بناؤها، لفساد مالي ما، قرأت عنه ولم أعد أذكره، على الرغم من المباني القبيحة نصف المنتهية التي تناثرت حولها الأحجار والأخشاب، إلا أن المكان احتفظ بخصوصية استعصت على «البهدلة» والانتهاك، بقعة خاصة، أملكها، وأحظى ببحري الكبير الذي أقتحمه ويقتحمني، أعرف هنا الآن جيدًا ماذا يمكن أن يعطي المكان للإنسان.. وماذا يمكن أن يلقي على صدره وروحه وعينيه.

أدرت ظهري لكل شيء، وتركت عيون «نجية» الصافية الواسعة الحنون ترعى «تامر» و«لمياء» في استقرار ومحبة لا أعرف من أين أتت بهما، وضعت موسيقى «سبيليوس» في أذني ـ هو رجل أحب البحر مثلي، حاول أن يصنع من صوته ونوره وجنونه موسيقى، كان منير فكار يسخر مني ـ دائمًا ـ عندما أرفع صوت موسيقاه صباحا في البيت كي أطرد كآبة غربتي معه في الخليج، كان يضحك في فجاجة ويصرخ، «يا دي سي بيليوس.. لدرجة سبيليوس» فأشعر أنه يطعنني بشيء ما في رقبتي.

أبي المهندس القديم ـ الذي حاول أن يكون فنانًا ـ علمني أن أحب الكلمات، وأن أكره تشوهها وفسادها، وخالي حسين كان يحفظ الشعر، ويجعلني أردد أبياتًا خلفه، عندما رجعنا وعشنا وحدنا أنا والأولاد

حاولت أن أنزع من لسانهما ما علق به من ألفاظ خليجية، وألفاظ تعلماها من الشغالات، ولكن سرعان ما حلت محلها ألفاظ العصر الجديد، التي تفسد النطق، والمعنى والتعبير، كلمات هي والأغاني، وإعلانات التليفزيون مؤامرة على روح «الكلام»، ثم جاءت المدرسة الفرنسية ـ التي لم أجد لهما غيرها ـ لكي تقضي على البقية من ذلك النبات الحلو الذي كنت أريد أن أراه ينمو على ألسنتهما.

تناولت كتابي الذي أحمله معي منذ شهور «رحلة جبلية.. رحلة صعبة» للشاعرة الفلسطينية «فدوى طوقان» أتعبني هذا الكتاب جدًا، بعت له كل أوقات فراغي، عشقت المرأة، وعشقت تعبيرها عن رحلة حياتها عبر قهرها الشخصي وقهر الوطن، أقرأ كأنني أعيش معها، كم أريد أن أعرف تلك الشاعرة العجوز، وأن أضمها إلى صدري، وأجعلها تهدأ هناك، وتستكين، فدوى التي عاشت أهوالاً، وهي تحمل في يدها وعينيها عقدًا من الياسمين أهداه لها حبيبها القديم الذي صادفته في مطلع الصبا، رحلتي.. ورحلتها، رحلتها جبلية.. ورحلتي في أحشاء الرجال، وغربة الخليج، ومدن الملح والأسمنت، ورائحة العصر، وفساد البشر. أغلقت عيني في الشمس، وقبضت على حفنة من الرمل النظيف الساخن.

* * *

لليوم إلى جوار البحر حيل مكررة لا تفقد ـ بالنسبة لي أبدًا ـ جمالها، مفاجآت جميلة متكررة، على الرغم من أنني لم أخلع ملابسي متجاهلة إلحاح «نجية» و«لمياء»، إلا أنني كشفت ساقي للبحر، وشعرت بالشمس في صدري وجسدي كله.

أغلقت الكتاب على قصيدة شعر تتكون في رحم شاعرتي، ونزعت «سبيليوس»، وبحره عن أذني أطارد أوهام المطلق الذي لاح في حياتي، وعذبني دائمًا وراءه، المطلق المجنون المستحيل، الذي شدني من شعري الذي كان طويلا وقصصته، سحبني على وجهي، وعلى ظهري، بحثا عن الحب المطلق، الجمال المطلق، الرجل المطلق الذي لم يكن لي أبدًا، أحببت ـ في الخارج دائمًا ـ كمالًا لا يوصف، وأحببت ـ في داخلي ـ قدرة خارقة لا توجد أبدًا، قدرة على أن أتغير أن أكون ما أريد، أردت ـ دائمًا ـ أن أهب الأعزاء قلبي، وحياتي، ولكنهم كانوا ـ غالبًا ـ يريدون شيئًا آخر، كثيرًا ما رأيت بذور الآخرين تنمو، أما بذوري أنا التي كنت أزرعها في ظل روحي في حدائقي الخلفية فقد ظلت حتى الآن عاقرًا، جافة، لا تنمو ولا تخضر حتى بحري الكبير لا يعرف ولا يرد على سؤالي الجارح: متى مت، متى ماتت روحي، وأمي، ووطني، متى رحلت عني الطهارة والبراءة، ولم يعد لي سوى كهولة، وعفن زاحف.

* * *

قبل ٦٧ وصلت أنا وعزيز إلى قمة المأساة، كان هو بدأ يغرق في الشراب، يشرب الخمر في الصباح، ويحمل الزجاجة ـ غالبًا ـ معه، ترك الرسم، واحترف التصوير الفوتوغرافي لكي يضمن عيشه وعلاج أمه التي لم يكن لها غيره، طرق العمل الثابت تبدو أمامه مسدودة، ما يجده من أعمال رسم أو توضيب في الجرائد أو المجلات يجلب عليه ـ فقط ـ مشاكل و«خناقات»، بدأ يفقد حتى الأصدقاء الذين يتهمونه بأنه أصبح مدمنًا ومهملًا ومقصرًا في حق نفسه، وفي

حق القضية! وهو بدأ يسخر ويلعن كل شيء وبدأت مرارة غامرة تشكل سحابة يتحرك فيها.

ليلًا عندما نلتقي في الأتيليه القديم الواقع في أطراف الدقي، والذي أصبح يدفع إيجاره بصعوبة شديدة، كان يفرش الصور الفوتوغرافية الكبيرة والصغيرة التي يمضي النهار في تصويرها وتكبيرها وتصغيرها، يفرشها أمامه على الأرض ثم يسكب عليها بعضًا من خمره، ويشعل فيها النار.. يكرر كل ليلة: «لم يعد هذا البلد يحتملني.. وأنا لم أعد أحتمله»، تحولت مرارته رغبة في التدمير، وطالتني حالات غضبه، يقول: «أنا أفسدت حياتك.. لن أقدر هنا أن أكون شيئا، منذ سنوات، وأنا لا أعمل، لا أتعلم لا أعيش، أسير تخلف وجهل، عفن أحسه يضرب في أطرافي، بدأ يشعر بالاضطهاد، وبأن في كل مكان مؤامرة ضده، يقول لي اذهبي وتزوجي ضابطًا، أو طبيبًا، ليس لي سوى كوب الخمر.. تزوجي من يحضر لك الأطقم والملابس من غزة، اسمعي لقد أضعت حياتك مع رسام فاشل، ومصور فوتوغرافي درجة ثالثة..

عندما يفيق كان يعتذر ويبكي، ويأخذني إلى بيتهم القديم في شبرا لكي نمضي اليوم إلى جوار فراش أمه التي تحتضر، كانت المرأة تشيح بوجهها عني، وتمسك بيد وحيدها وكأنها تتشبث بالصليب.

ماتت أمه قبل الحرب بأيام، وعندما أفاق من موتها الذي هد ما بقى منه، دخلت عليه أحزان الهزيمة وهو جثة هامدة، بأقدام عارية وفوق أشواك حادة مشينا أنا وهو خلال القاهرة المنكسرة طولًا وعرضًا لأسابيع وشهور، لم يعد يأكل، ولم أعد أدري هل يشرب

الخمر أم إنها هي التي تشربه، شبح يستند على ذراعي، وحيدًا محطمًا أتركه ليلًا في الأتيليه القذر.

أحد أقاربه، تاجر في الإسكندرية، استطاع أخيرًا أن يدبر له أوراقًا، وأن يضعه على مركب مسافر إلى فرنسا، ميتًا حقق حلم السفر إلى باريس، ماتت روحه وقتلني معه، بعد أن سافر أصابني مرض في الدماغ أمضيت شهورًا في غرفتي المظلمة، حسبت ـ وحسب الأطباء ـ أنني فقدت البصر.

* * *

ها هي طيور البحر تنقش السماء المفتوحة الواسعة، لا يصل إلى هذه البقعة سوى الطيور القوية المغامرة، أما تلك الطيور الجديدة الصغيرة السوداء المحرومة، فهي تطير هناك قرب الشواطئ المزدحمة القذرة عند أطراف المدن.

أحب هذه الطيور البيضاء القوية التي تطير عاليًا، ثم تختفي عند الأفق في تشكيلات ـ دائمًا ـ جديدة، إنها تطابق حلمي أو هي تصنعه.

كانت «نجية» قد غلبها ـ بعد الطعام ـ نعاس.. أسندت ظهرها إلى مقعد مجاور لي وأراحت جسدها الأسمر السمين على الرمل الأبيض، اختفى تامر مع لمياء في جولات بعيدة في الماء وعلى الشاطئ وبدا أن الزمن سوف يعطيني غروبا هادئا مهيبا، ساعات قليلة من ذلك المطلق الذي حلمت به، مع احمرار الشمس وتشكيلات الطيور البعيدة، بدت لي حياتي وكأنها أوراق متناثرة تتوق إلى الترتيب، كأن

لحظاتي تريد أن تنسجم وتدخل في سياق، لم يعد التذكر يدمي أو يجرح لكنه ينساب من ذهني إلى البعيد كتلك الطيور.

إنها عودتي الأخيرة مع منير فكار، أريد الطلاق منه كما لم أرغب في شيء آخر في حياتي من قبل، هو كان قد بلغ القمة في الدور الذي يقوم به هناك، وفي محاولات الكتابة والانتشار في كل المجلات هنا وهناك، كل كتاباته كانت مكررة وسخيفة، يكتب كلامًا كأنه مضغ اللبان، ويكتب بسهولة شديدة، أسمع الكلام «يطرقع» في أذني ولا يعني شيئًا، علاقته بالمال تحولت إلى شيء لم أعد أفهمه أحيانًا ـ في الليل ـ أشعر به يدمدم في الغرفة أو في الصالة يدمدم دمدمات أحسبها صلاة لحساباته في البنوك أو لودائعه الأجنبية.

بعد مغامرات جنسية جارحة لي وله، امتنعنا ـ تقريبًا ـ عن أي اتصال، كنت قد قررت ألا أرتدي الحجاب إلا للضرورة، وكان هو قد بدأ يدخل في أدوار من التعالي والارتباك، يتهمني بالكفر، وبأنني لا أصلي، ولا أعلم أولادي دينهم كما يجب ثم يعود ليتهمني بالتبذير، وبأن لي مشروعي الخاص، وأنني أتآمر عليه، وأضر بمشروعه، الذي من أجله يتحمل هذه الغربة، وهذا الكرب «هل تحسبينني مستمتعًا هنا.. أريد أن أضمن لكم حياة محترمة.. «محترمة فقط»، «أنت لم تعرفي الفقر، بنت الكوربة في مصر الجديدة لا تفكر إلا في الكريمات.. والملابس الداخلية الناعمة».

أشد ما يثيره كان صمتي، وعزلتي التي فرضتها على نفسي، عملي في التدريس كان يستغرق أربعة أيام، وبعدها لم أكن أغادر غرفتي ـ تقريبًا ـ حتى الأولاد تركتهم للشغالات اللآتي كان يغيرهن باستمرار بعد أن يتهمهن ـ دائمًا ـ بالسرقة، تركت البيت ـ تمامًا ـ ليتحول إلى

شقة تشبه سكن الطلبة أو المهاجرين، امتنعت عن التدخل في أي شيء لأننا كنا نختلف على كل شيء، حالة الأولاد كانت تقتلني، وعيونهم تدعوني، ولكن ظل منير الثقيل كان يغطي على كل شيء، لا يترك لي حلاً إلا الطلاق أو الانتحار.

نزلنا جميعًا إلى القاهرة، وكان مفهومًا بيننا أننا قد اتفقنا على الطلاق، لم أكن أريد شيئًا سوى أن يترك لي الأولاد، في الغالب كان يبدو موافقًا على كل شيء إلا هذه النقطة، كأنه تاجر يفاصل في الثمن، يريد أن يأخذ «تامر» وآخذ أنا «لمياء»، وسرعان ما يغير رأيه، ويعود ليقول لي افعلي ما تشائين.. أما الطلاق فلا.

رغم أنه كان يملك أكثر من شقة فاخرة في القاهرة، إلا أنه حشرنا جميعًا في شقة حقيرة في المهندسين استأجرها نكاية في، تركني أنا «وتامر» و«لمياء» في الشقة أسابيع، يدخل ويخرج، لا يتكلم، ويغيب عنا ليالي، ليعود ويقول إنها أشغال عاجلة، كان مرتبكًا، ضائعًا، يفتش في أوراقي، ويتلصص على خروجي ودخولي وتليفوناتي وحتى أحاديثي القليلة مع الأولاد، ويصرخ «لابد أن أعرف ما تدبرينه» أما أنا فلم أكن أستجيب، ضائعة حتى آخر رمق، لا أستطيع أن أرى الأولاد إلا وهما نائمان بعد أن تهدهما الحيرة، والقلق والإهمال، نوافذ الشقة كانت ـ دائمًا ـ مفتوحة، وأنوارها ـ دائمًا ـ مضاءة، تنبعث منا جميعا رائحة الموتى.

بعد أن تصورت أن الزمن قد تجمد وأنني سوف أعيش هكذا إلى الأبد، وقف أمامي ـ فجأة ـ في جلبابه الأبيض القذر، مد رقبته إلى الأمام كما تفعل سلحفاة عجوز قال: «غدا في العاشرة صباحا، يحضر المأذون وتخرجين من حياتي إلى الأبد».. أدخل رأسه داخل جلبابه،

واختفى، لا أذكر كيف مضت بي الليلة، ولكنني أذكر طعم ملح دموعي وأنا أعجن «تامر» في «لمياء» وأضمهما معا إلى صدري.

جاء إليه ـ في الشقة ـ أصدقاؤه ليلًا، طلب مني أن أخرج لمقابلتهم، وقال: هم أصدقاؤك أيضًا.. ويسألون عنك، دفنت نفسي في نفسي داخل غرفة الأولاد، واحتميت بمتاريس الظلام والصمت.

ضوء العاشرة صباحًا، والذباب الصيفي الكثيف، والأطباق القذرة الباقية من سهرة الرجال، كانت كلها في استقبال المأذون عندما وصل، أنهى الرجل مهمته في بطء شديد، حسبت الوقت قرنا من الزمان، منظر دفتره الكبير ـ على المنضدة ـ وسط الأطباق القذرة التي لم يرفعها أحد كأنه صورة سريالية، يدي كانت مرتعشة، وأنا أكرر التوقيع.

لم أشعر «بتامر» و«لمياء»، وهما يوقظان «نجية» ويطالبان بما بقى من طعام، توسدت لمياء فخذي وتمددت على الرمال، وأخذت أداعب شعرها المبلل الطويل، وانشغلت «نجية» بجمع الأشياء استعدادًا للرحيل.

* * *

«الحمد لله» كلمتي السحرية، أقولها عندما تهدأ نفسي، وإذا رددتها هدأت نفسي، ينتظم شيء ما في علاقتي بالوجود، أعرف حدودي، أشعر بعطايا اللحظة الفريدة التي لا تتكرر.

ابنتي «لمياء» هادئة، رأسها على فخذي، وجهها ساكن جميل، يلمع من الشمس وملح البحر، نادرًا ما تستكين إلى جواري، ونادرًا ما لا أتوتر وهي معي.

الحمد لله تهبط الشمس اليوم ببطء شديد، في سماء صافية منقوشة ـ فقط ـ بتلك الطيور الراحلة إلى بعيد، يقترب اليوم من نهايته في هدوء بلا حوادث ولا مفاجآت.

* * *

تلك ساعات غامضة مؤثرة في النهار، مثل أيامي بعد أن رحل «عزيز» إلى فرنسا، كل البلد كان صريعًا، ولست أنا وحدي، لم يعرف الأطباء سببا لذلك الصداع الرهيب، والعمى المؤقت الذي أصابني، لم يكن موجودًا معي في بيت مصر الجديدة سوى أمي المريضة، وأبي الذي ضرب الشلل نصف جسده، أما أختي الصغرى «نورا» فقد كانت تستعد للزواج من تاجر خليجي، خطفها من الجامعة، بعد أن سحره منظرها شبه الأجنبي (اتخذت قرارها بسرعة غريبة، وقررت أن تترك الجامعة، وتتركنا، وتترك البلد إلى حياة لا تعرف عنها شيئًا، سوى أن بها كميات هائلة من النقود)، كانت «نورا» ترعاني في أوقات فراغها، تصحبني مرة إلى الطبيب، أو تستدعيه لي، وتمضي معي ساعات قبل أن تنام تحدثني عما اشترته أو سوف تشتريه، لم تكن تخفي سرورها بأن عزيز قد رحل، وانتهت حياتي معه، أما أبي فقد كان يراقب العالم حوله في ذهول، ولا يكف طوال النهار عن مطاردة الخادم الصغير الذي خصصناه لرعايته بطلباته التي تلخصت في طلب الطعام والماء والعناية بنباتات الظل التي كادت تتوحش وتخنق كل ما في الشقة الواسعة.

الصمت والوحدة كانا هما ـ فيما يبدو ـ العلاج الوحيد لي، بدأت نوبات الصداع تتباعد، والنظر يعود إلى عيني اللتين أضعهما أغلب

النهار تحت كمادات شاي دافئ ومحاليل أخرى، أيام ممتدة، يختلط فيها الليل بالنهار، تصلني أصوات العمارة والشارع القريب، وكأنها قادمة من عالم آخر، بالطبع لم أكن قادرة على القراءة أو التفكير، ولكن كان هناك تصميم غريب على أن أعود للحياة، أن أنزل ـ مرة أخرى ـ للشوارع التي دمرتها الهزيمة، وأفرغها غياب الحبيب الذي كان، أفتح الراديو، وأغلقه، على أصوات خشنة متصنعة وكاذبة، وأغان يختلط فيها النواح بالخلاعة، أصوات ندابات بغايا تحاصرني، أغلق «الراديو» ولا أفتحه لأيام، أشعر أنني حيوان جريح اعتزل كل شيء في مكان بعيد ليسترد عافيته، وهو وحده يستطيع أن يعالج مرضه وجروحه.

كنت قد عينت منذ شهور معيدة إدارة أعمال في كلية التجارة، ولم تتح لي الفرصة لكي أمارس عملي.

دخلت في إجازات مرضية متتالية، أستاذي الدكتور «السحار» كان الوحيد الذي يسأل عني، يرسل لي ـ أحيانا ـ ابنه وأحيانًا تلميذًا من تلاميذه يسأل عني وكأنهم يزورون ميتًا أو مجنونًا، عندما زارني هو بنفسه مرة في الصباح أمسك برأسي بين يديه في أبوة غامرة وقال وهو يودعني «يمكنك أن تجعلي من فترة النقاهة هذه، ميلادًا جديدًا، أنا في الجامعة ياسناء.. أنتظرك»، كان الرجل ـ يرحمه الله ـ آخر الأساتذة الكبار الذين صادفتهم في الجامعة، كان هو الذي سهل سفري بعد عام إلى لندن في بعثة استمرت عامين، حصلت فيها على اللقب الذي لا أدري ماذا أفعل به الآن: دكتورة سناء فرج.

أهم ما ساعدني على الشفاء، رغم الدمار الداخلي والخارجي هو أنني أصبحت قادرة على أن أرى علاقتي «بعزيز» على أنها شيء خاص حدث

لي أنا وحدي وانتهى، أعطاني ذلك الرجل الجميل الذي دخل حياتي وخرج منها معنى وجودي، عرفت معه معنى أن أكون امرأة، وأن أكون مصرية، في فترة النقاهة تلك ترسبت في روحي المتعبة كل تلك المعاني بلا زيف ولا إدعاء، عرفت معه أن المرأة شيء آخر غير الماكياج والثياب، غير الجسد والجنس والحمل والولادة، شيء متصل بالأرض والطبيعة، شيء لا يعطيه لك أحد ولا يقدر أن يسلبه منك أحد، وعندما كنا نتكلم أنا وهو في السياسة، وأحوال البلد كانت الحوادث والشائعات تتساقط كأوراق الشجر، ويصل هو إلى لب الأشياء في كلمات بسيطة طبيعية، فأرى أمامي صعوبة الواقع وقسوته، وضرورة التمسك ببرعم أخضر صغير ينبت في قلب الناس والوطن، لم يكن الحديث معه مكابرة أو تفاصحا، ولكن حلم ببصيص فهم أو قدرة على تحول وتغير.

كيف هان عليه أن يدمر كل شيء؟ بالشراب المتصل أولًا، ثم بالرحيل، في أيامه الأخيرة معي كان ينظر إليّ ولا يراني، كان مشدودًا من عيونه إلى مصير غامض، بدأ يقرأ في كتب عن تناسخ الأرواح، ويحدثني عن العودة المتجددة للوجود، ويقول سوف نلتقي ـ حتمًا ـ في وجود آخر ستكونين أنت.. يمامة أما أنا فسوف أكون حبات رمل في صحراء.

يقول لي خطأ حياتك الفادح أنك لم تدرسي الفلسفة أو الفن، مالك أنت ومال التجارة وإدارة الأعمال، أنت لا تستطيعين إدارة حياتك، لم يكن يعرف أي قدرات تولدها الوحدة، والألم والتصميم، على الدفاع عن النفس والبقاء.

* * *

من يرانا في طريق العودة إلى الشاطئ يحسبنا أسرة سعيدة غاب عنها راعيها ـ أو سبقها ـ ليعد لها بيتًا وطعامًا، «لمياء» تمسك بذراعي وتحدثني بلا انقطاع عن زميلات لها ومشتريات ترغب فيها، ووقائع نصفها حقيقة ونصفها خيال، أستمع لها وأشرب ملامحها المليئة بالحيوية والاندفاع، أما تامر فقد ركب على نفس «نجية» التي كانت تعرف كيف تروضه، وتسمع له، وكأنها مستمتعة ومستغرقة في كل ما يفعل أو يقول.

انتهى الرأي إلى أن يذهبوا إلى الشقة لتغيير الهدوم، والاستعداد للسهرة في مدينة الملاهي. حاولت «لمياء» دون إصرار أن تمد صحبتنا الخاصة بأن تبقى معي، لكنها لم تقاوم إغراء «تامر» بليلة في المدينة الصاخبة.

تركتهم عند ناصية قريبة من البيت، ودخلت وحدي وسط زحام أول الليل في مدينة تتصنع البهجة، كنت أحاول أن أتذكر الطريق إلى مقهى مطعم قديم، يقع في شارع جانبي، كان يملكه يوناني عجوز وزوجته.

لماذا تكسو المدن نفسها ـ دائمًا ـ بقناع أو ماكياج يخفي حقيقتها، الشوارع الكبيرة، والمباني الضخمة السخيفة تتصدر كل شيء، كاتمة على أنفاس الشوارع الجانبية الحنونة التي تتكون من بيوت قديمة جميلة لها طعم ورائحة تكاد تنطق بالقصص والحكايات.

رحت أطارد الليل الهابط خلال تلك الشوارع الجانبية بحثًا عن ذلك المقهى المطعم الأخضر القديم، الذي أكلنا فيه ليلة سمكًا

وشربنا زجاجة نبيذ، عندما كان «عزيز» يشربني أنا، ويسقيني كل الوجود معه.

تصافح وجهي أشجار عجوز مائلة على تراب الشوارع الناعم، امتلأت نهايات الشوارع «بغرز» الشاي والدخان، وعربات الساندويتشات المضيئة، وعربات النقل الصغيرة والكبيرة الراكنة، ولكنها جميعًا، لم تقدر على خنق «روح المدينة» التي كنت أحبها، أذكر سجاجيدها الصوف الملونة، وأسواقها البدوية عند أطراف الصحراء، فأحسب الدنيا ـ كانت ـ قافلة عروس تستعد للسفر، الموجود أطلال ـ فقط ـ لكنها كثيفة الرائحة.

عندما وجدت ما أبحث عنه، أدركت فعلًا أن كل شيء قد اندثر، لم يعد هناك وجود لليوناني العجوز ولا زوجته، والمقهى المطعم الأخضر القديم تحول إلى «كافتيريا» قذرة، تلمع على مفارشها البلاستيك، انعكاسات أضواء لمبات «النيون»، تفحصني المعلم الجديد صاحب المكان بارتياب، يكاد يسألني: وحدك؟ اخترت منضدة مجاورة للنافذة المغلقة، عندما جاء الجرسون يمسح المفرش.. تذكرته، كان الدهر قد أكل عليه وشرب، كنت أريد أن أتذوق كوبًا باردًا من «البيرة»، لكنني عرفت أنهم لا يقدمونها إلا في فنادق السياحة، فطلبت أي شي بارد، ورحت أشربه في قلق واستغراب.

* * *

كانت النقاهة الحقيقية هي تلك الشهور التي مرت بعد أن رجعت إلى الجامعة، البلد كله والجامعة على الخصوص كانتا في حالة لا توصف، كأن كل شيء قد اقتلع من جذوره وألقي في وسط الطريق،

خطوات الناس مرتبكة وعيونهم زائغة، وحتى أصواتهم وانفعالاتهم لا يتحكمون فيها، كنت وحدي الخارجة من نقاهتي كأنني جديدة، لا شي بعد القاع المظلم الذي سقطت فيه، كنت أعتني بأن أسمع، بأن أفتح عيني وصدري وعقلي، كأنني غريق يأخذ أول نفس من هواء، ساعدني الدكتور «السحار» كانت له غرفة نصف مظلمة يبقيها ـ دائماً ـ مغلقة، يجلس فيها أغلب الوقت وحيدًا، يراجع أوراقه، أو يطلق سحابات من دخان «البايب» القديم الذي لا يغيره، يحاول أن يبقي نفسه منفصلاً عن الضوضاء والصراعات، يعرف الآخرون قدره، ويخافون منه، فتزداد وحدته وعزته وعزلته وعذابه بما يراه يحدث في البلد وفي الجامعة لا يستطيع حياله شيئًا، ولا يستطيع أن يقبله، استعمل آخر ما له من نفوذ في أن يدفعني ويمكنني من الحصول على البعثة، لسبب لا أفهمه، لم أكن أشطر المعيدين المتقدمين ولا أكثرهم نشاطًا، ربما لأنني كنت أقلهم نفاقًا له، وأكثرهم عزلة عن الانغماس فيما يحدث، هناك شيء من الكبرياء والتعالي جمعنا معا، في تلك الغرفة نصف المظلمة، المليئة بالكتب القديمة.. كنا نتبادل حزنا حقيقيا.

ماتت أمي في صمت وسط نباتات الظل التي رباها أبي لكي تخنقنا جميعا، أغرب ما في وفاتها أن أبي لم يذرف دمعة واحدة، كأن ما يحدث لا يعنيه، أما أخي الكبير «أمين فرج» الطبيب المهاجر إلى كندا فإنه لم يحضر، واكتفى بمكالمة تليفونية قصيرة، و«نورا» أختى التي كانت لا تزال عروسا حضرت إلى القاهرة مع زوجها الخليجي، وأقامت ليالي في فندق كبير، اعتقادًا منها أنها بعد وفاة أمي قد تستطيع الاستيلاء ـ هي وزوجها ـ على الشقة القديمة، كنت أرى أسرتي تتحول إلى تراب يتساقط من كفي، أبي وحده ـ مع خادمه الصغير ـ يكافح الشلل

في قوة، وينطق كلمته الآمرة في صعوبة، هو الآخر يكاد يتحول إلى نبات، أما أنا فقد كنت أراقب كل هذا في لامبالاة وحسرة.

تدبير احتياجاتي المادية للسفر وخلافه كانت أول صفعة أتلقاها على وجهي، ترددت «نورا» وهي تقدم لي مساعدة مادية على سبيل القرض، لمحت في أحاديثها وخطاباتها أنها تخاف أن تصبح هذه «عادة» أما أخي الكبير المهاجر إلى كندا فقد اعتذر بوضوح لأنه كان قد اشترى بيتًا ريفيًا جديدًا خارج المدينة.

صرت وحدي ـ فعلا للمرة الأولى ـ بلا عائلة، بلا حبيب.. وبلا وطن، ركبت الطائرة، ولم يكن أحد في وداعي.

* * *

في لندن عرفت أن «عزيز» كان عنده حق عندما قال إن أكبر أخطائي هو دراستي هذه لإدارة الأعمال وعلوم التجارة، وجدتها سجونًا صغيرة صنعتها لنفسي، الاكتشاف الأوروبي كان مذهلًا، وجميلًا، لا أدري لماذا يبدو الآن خافتًا.. وبعيدًا.. كأنه حلم لم يحدث، حاولت أن أملأ حياتي هناك كما فعل توفيق الحكيم وطه حسين بالفن والمسرح والموسيقى، لكن قلبي كان فارغًا وروحي مثقوبة، كنت مشدودة إلى ما تركته ورائي، متعلقة بالوطن الذي حاق به الدمار، أتقلب في غربتي ولا أجد من أراسله، كتبت مرات لأستاذي الدكتور «السحار»، ولكنني قرأت بعد فترة أنه ـ هو الآخر ـ مات في حادث سيارة.

كان «عزيز» قريبًا على مرمى حجر في باريس، ولكننا كنا قد دفنا

ما بيننا معًا، ولم يكن هناك معنى ولا جدوى من نبش القبور، عرفت من بعض الزملاء أنه يلاقي بعض النجاح كرسام تجاري، وأنه يكتب ـ أحيانًا ـ في صحف المعارضة التي تصدر هناك.

العائلات المصرية هناك كانت امتدادًا جديدًا لما تركته ورائي، الارتباط و«اللخبطة» والأسرة المدمرة، والعلاقات العنيفة الغاضبة، كانت تواجهني في كل البيوت، حالتي كامرأة وحيدة، غير مرتبطة بأية علاقة واضحة، كانت تدمر علاقاتي مع الرجال الناضجين الذين غالبًا ما يكونون متزوجين من نساء غيورات، أما اللهفة على الجنس، وفهم الحرية على أنها رفع للخصوصية، فقد كانا يقضيان منذ البداية على أية علاقات مع الزملاء الشبان، حتى اكتفيت في علاقتي بهم بسلام.. سلام.. أحمد نور دارس الزراعة الأسمر الطويل هو وحده الذي اقترب مني، كان صامتًا وقورًا، يعيش في مدينة بعيدة عن لندن، وينزل إلى لندن في عطلة نهاية الأسبوع، أمضينا معًا عدة إجازات، وعرفت أنه من الإخوان المسلمين، بدا لي عادلًا ومعقولًا، يفكر ويستطيع تقدير الأمور، يمتد ظل إنساني وافر حوله في تسامح يغري بالتأمل، عندما اقتربنا أكثر، وزرته وزارني لعدة شهور، أحسست أنه يكره استقلالي، يحب أن يتظاهر بأنه يعطيني الحرية، ويكره أن آخذها، لم يكن غريبًا أن أكتشف بسرعة، تحت تسامحه اللفظي ديكتاتورًا صغيرًا وعنيفًا، اختفى من أيامي بسرعة، وعدت أكتفي بالوحدة مع دروس الإدارة والاقتصاد، أو صداقات عابرة ـ في العطلات ـ مع بعض السمر الأجانب، أو الإنجليز الذين لا طعم لهم.

في العام الثاني ـ على الخصوص ـ عادت علاقتي مع الشعر والكلمات، كنت أبحث عن دواوين الشعر الجديدة التي تصدر بغزارة

هناك، في البداية لم أكن أفهم شيئًا، لكنني كنت أعاود القراءة، حتى أعثر على النغم الذي ينتظم الكلمات، ثم أعاود القراءة حتى توافيني الصورة الفريدة التي تختفي خلف الكلمة والجملة والشطرات، أحببت «ديلان توماس» شاعر (ويلز) الذي كان اسمه يتردد كثيرًا في ذلك الوقت، قصائده تبعث القرى الجبلية الغارقة في الضباب والبرد والفقر حية دافئة، تسخر من دم الإنجليز الأزرق البارد، كنت أضم كتبه في أغلفة من ورق ملون، وأسمع أشرطة مسجلة عليها أشعاره وهو يقرؤها وقد تحشرج صوته الرجولي المخمور بصدق طاغ ومحبة غامرة للناس، تجاربي مع صوته وأشعاره مترسبة في ذهني كأنها علاقة جسدية أشعر بها في كل كياني.

* * *

أحسست عيون الجرسون القديم تراقبني من الركن المظلم الذي يقبع فيه، ارتفعت أصوات الزبائن الجدد بضوضاء فجة، أكدت لي زوال كل ما كان في المكان من تاريخ قديم، لم يبق منه سوى المفارش البلاستيك القذرة، ولمبات «النيون».

وضعت نفسي في عربة «تاكسي» ووصفت للسائق عنوان الشقة المفروشة، بدون «نجية» ولا الأولاد بدا المكان عاريًا ومزعجًا أكثر من اللازم. دخنت عددا من السجائر، كأنني أعوض ما فاتني خلال النهار، بعد لحظات دق جرس الباب وحمل لي البواب «بوكيه» ورد أحمر وأبيض، مع ظرف مغلق صغير، تلصص البواب على الصالة وهو ينتظر البقشيش، كانت كلمات هاني مكتوبة بخط منمق: «لك الورد.. يا قمر، ولي الوحدة، حبي.. هاني» من أين يأتي هذا الصوت

المعدني ذو الرنين، داعبت بيدي الأزهار والورود التي تعاني من الحر والإهمال، فقد تركها عند البواب من أول النهار، امتلأ قلبي بأسى ثقيل، تحدث معي الأشياء، بعد فوات الأوان، أتذكر الكلمات التي يجب أن تقال بعد أن أغادر المكان، أشعر بالفرح بعد انقضاء اللحظة، فتشت في قلبي عن نبضة حب، نبضة فرح، فلم أجد إلا فراغًا لاهثًا وخوفًا من المجهول، تذكرني وروده المسكينة بالحب المضوغ الذي نلوكه معًا، بذلك الإعياء الذي أشعر به بدلًا من اللهفة على اللقاء.

جلست في مقعدي، أواصل التدخين، وأنا أراقب الليل الثقيل يسكن الشقة، تضيئه أحيانًا أنوار عربات عابرة أو إعلانات متحركة قادمة من ناحية البحر.

بعد أن استقرت «نجية» معنا لشهور، ضرب القاهرة قيظ خانق شديد، عندما ينقطع التيار الكهربائي ـ أيضًا ـ وتتعطل أجهزة التكييف في غرفة نومي وغرفة الأولاد، تتحول الشقة إلى فرن حقيقي، ويستحيل النوم أو حتى محاولة البقاء في الفراش.

أفتح نوافذ غرفة الأولاد، وأخرج أنا ونجية إلى الشرفة الصغيرة نجلس وحدنا في الظلام، حكت لي نجية بصوت رتيب خال من الانفعال حكاية زواجها، ورحلة القهر التي مرت بها، لم أكن أرى في الظلام سوى بياض عينيها اللامع يبرق في كتلة من السواد.

عرفت «نجية» زوجها «أنور الإسكندراني» في قصر جماعة أجانب، خدمت عندهم طويلًا، أبوها كان سائقًا لسيارة الخواجه، أما (أنور الإسكندراني» فكان الطباخ الأول، جميلًا جدًا كان، ونزيهًا في ملبسه وكل تصرفاته.. «وأنا كنت سنيورة سمراء»، حقيقي، قد لا تصدقين،

نحن النوبيين لا نتزوج من أغراب، لكنني لم أستطع مقاومة حبي «لأنور»، ماتت أمي، ورفض أبي بكل الطرق أن يسمح بالزواج، كنت أحلم ليلًا ونهارًا بأن أتزوج وأسافر مع أنور إلى الإسكندرية، حيث أهله أصحاب محلات البقالة، كنت أصدق كل ما يقول مثل ما يصدقني «تامر» الآن أو «لمياء» نزل في قلبي مكان الأهل، والأرض، والدين، لم يعد لي أحد سواه قاطعني أبي وإخوتي الذين لم أكن أراهم أصلًا.

في يوم جمعة غادرنا «القصر» تاركين حسابنا حتى لا يشعر أبي، وتزوجنا في فرح إسكندراني يوم الخميس الذي يليه، كانت «نجية» تقوم لتأتي ببعض الماء البارد، وتلقي نظرة على الأولاد، أشرب، وتشرب بعدي، وترش رأسها بالماء ويستمر صوتها وكأنه يصدر من داخلها.

ليس هناك أفظع من خيانة الروح والنفوس، لم تمض أسابيع حتى كان أهل أنور جميعًا ـ رجالًا ونساء ـ ينهشون في لحمي حيًا، لم يوفر لنا مكانًا خاصًا فعشنا وسطهم، كنت مستعدة لأن أتحمل أي شيء ـ وأنت تعرفين ـ لو شعرت للحظة واحدة أنه إلى جانبي، تركني عند أول ناصية، وانضم إليهم، يأتي كل ليلة مسطولًا، أسمعه يضحك مع أهل حارة «دم الغزال» كلهم، ومع أهله الساهرين في الصالة، ثم يدخل غرفتي ويسب لوني وبرودي، ويلعن حظه الذي يشبه وجهي، لم أعرف سببًا لتحوله السريع سوى هؤلاء النساء اللاتي يزحمن البيت متباهيات أمامه بلحمهن الأبيض، بعد أن كنت أحلم بأن أكون سيدة في غرفة أو شقة صغيرة أصبحت جارية أخدم جمعًا من النسوة الغجر، ربنا لا يحكم على أحد بالقهر مع الفقر وقلة الحيلة، لم يكن يريد أن

يطلقني، هن لا يردن ذلك، كان يأتي إلى فراشي ويفعل ما يشاء، دون كلمة، دون صوت، دون حياة، وعندما قلت له إنني حامل، أعطاني ظهره وقال: نزليه!

وحدي خلف قلعة «قايتباي».. الله وحده يشهد وموج البحر، أجهضت نفسي بنفسي، حملني الرجال غارقة في دمي إلى بيته في حارة «دم الغزال».

أول ما وقفت على قدمي غادرت البيت والإسكندرية ولا أعرف حتى اليوم إن كان قد طلقني أم إنني ما زلت على ذمته.

لم تكن «نجية» تبكي أبدًا أو تنفعل وهي تحكي لي حكايتها مرات ومرات، مضيفة تفاصيل حارقة جديدة تكشف عن وحدة رهيبة في الروح، كانت تحكي في نبرة باردة كأن ما حدث، حدث لشخص آخر أو كأنه من طبيعة الأشياء.

دق جرس الباب ـ مرة أخرى ـ لو كان «هاني» فإني سأذهب معه ـ الليلة ـ حتى إلى الجحيم.

* * *

هل لأن الشمس تخللت جسدي طوال النهار وهواء البحر؟ أم لأن روحي عصرتها أيادي الماضي القريب والبعيد، تحرك في داخلي غضب وشبق ورغبة غامضة في الانتقام من شيء ما، أو من نفسي.

هو هاني قبطان ـ بالتأكيد ـ من يدق الباب الآن.. جاء يحصل على ما منعته عنه بالأمس، فتحت له، وعلى وجهي قناع من الترحيب والاعتذار البارد، مد ذراعيه يريد أن يحتويني في حرارة محيرة، لم أضع

النور واكتفيت بأنوار الشارع والإعلانات التي تغمر الشقة للحظات لا أستطيع معها أن أتبين قبحها المنفر.

وهو يلامس وجهي وفمي في تقرب متسرع قال إنه التقى بالأولاد في طريقهم إلى الملاهي وصحبهم إلى هناك، عرف منهم أنني شاردة أتجول، بحث عني حتى كاد ييأس، لكنه الآن، وقد وجدني، لن يتركني.

أوقف حديثه بقبلة سريعة، وتركته حائرًا تحت الأضواء المتغيرة، أحب أن أبقيه في انتظار مفاجأة ما.. الانتظار والتوقع يجعلانه في أحسن حالاته، لم أعتن بحمامي كما تعودت، يبدو أنني أنا الأخرى في عجلة من أمري، نثرت على جسدي قطرات من العطر النفاذ الذي يحبه ويهديه لي دائمًا، وارتديت فستانًا صيفيًا واسعًا، ما زال باقيًا على جسدي بعض من حرارة الشمس وهواء البحر.

لمحته من باب غرفتي يشعل سيجارة حشيش نفاذة الرائحة يهدئ بها تلهفه الصبياني الذي لا يعرف كيف يخفيه.

هناك «سكك» في علاقتنا لو توقف عندها عقلي لانتهت الليلة بخناقة، أو اختلاف صامت أمر من السم الزعاف، منها حالة «السُطل» والبلادة التي يدخل إليها بعد سيجارتين أو ثلاث من تلك العلبة التي لا تفرغ أبدًا، يحيله هذا الدخان عندما يبتلعه وحده إلى كائن غريب، لا أعرف كيف أصل إليه.

لن أتركه الليلة يدخن كثيرًا، أو يشرب كثيرًا، أريد الليلة صحبة إنسانية بعض الشيء، حميمة بعض الشيء، هل يستطيع هاني قبطان..

تلك القامة الطويلة المعقوفة التي أرى انعكاسها الداكن في مرآتي.. أن تمنحني أي شيء.. أي شيء.

لست عجوزًا بعد أيها الرعديد، لست عجوزًا ما زلت راغبة في الحب الحقيقي، قادرة على عمله وصياغته.

* * *

دبرت في البيت بسهولة رحلة أسوان حتى أكون مع عزيز فقط، نسافر أكثر من عشرين فتى وفتاة من الفنون، والتجارة لكنني لا أرى غيره فقط، ولا أفكر إلا فيه.

كل القطارات والقرى، والنخيل، والآثار، والمعابد، ليست سوى جزء من لقائنا المندفع في تيار أقوى من النيل، وجهه وجسده سيكونان لي وحدي وأنا سوف أعطيه نفسي.

استطاع عزيز أن يرتب لنا رحلة مستقلة، نذهب فيها وحدنا إلى أستاذه وصديقه الرسام الذي يعيش في قرية من قرى النوبة القريبة.

كانت القرية شبه خالية، ناعمة ممتدة في اتساع إلى جوار نيل لم أر ـ أبدًا ـ مثله، واسع وصاف وصامت كأنه يسمع كل حديث الكون، البيت يفتح مباشرة على النيل، والأرض رملية طرية تنطبع فوقها أقدامي ـ وأقدام عزيز ـ العارية في جولات لا تنتهي.

صديقه الرسام كأنه أحد الرهبان، مشغول جدًا، وطيب جدًا، حتى لا تكاد تشعر بوجوده، أعطانا حجرتنا الواسعة والمستقلة المفروشة فرشًا نوبيًا بسيطًا، أجمل ما فيها الفراغ والاتساع والنظافة، وألوان «الخوص» الصفراء والحمراء التي تلمع في النهار وفي الليل.

الرجل كأنه اختفى، عندما نريده نبحث عنه، لتدخين سيجارة أو تبادل بعض الكلمات، النهار والليل لنا، نمشي ونقرأ، أو نغلق على أنفسنا باب الحجرة، نعيش داخلها كل الدهشة والاكتشاف، وتلك اللذة المصفاة التي تمتد من أطراف الأنامل إلى داخل الأحشاء.

لم أعط نفسي كاملة لعزيز إلا في هذه الغرفة التي يتسلل إليها ضوء النهار، فلا يجرح ولا يعتدي، يحيطني داخلها ذلك الصمت المقدس الذي أشربه مع كلمات عزيز التي يحدثني بها على كل جسدي.

عزيز يرسم «اسكتشات» بالرصاص لصخور ونخيل، يستغرق فيها فأحبه أكثر، أرى خطوطه وأشكاله تكشف لي أسرارًا خاصة بي لا يعرفها أحد غيري، يضع ورقته أمامي، وينظر إليَّ في تساؤل، ألقي بنفسي مرة أخرى عليه، وأطوق رقبته، كل رسائله تصلني، يمسك بيدي يعلمني الرسم، أقف معه على النيل في الفجر، أتعلم استقبال السكون والضوء والهواء بعيوني، وكل كياني.

جسدي كله يتفتح في خصوبة وقوة، حريتي حقيقتي معه، يداي تنالان ما تشتهيانه، أطراف أصابعي اكتشفت هناك أنها من نقطي الحساسة، يأخذ كفي بين يديه كطائر صغير، يخاطبني خلال أناملي، أغلق عيني، يختلط عليَّ الوجود.

ذات صباح ـ قبل أن نسافر ـ استيقظت لأجد أنه قد وضع «طشت» كبيرًا في نهاية الغرفة تحت بقعة ضوء، وجاء بماء ساخن، وأوقفني هناك، وغسل لي جسدي كله بالماء والصابون تحت ضوء الصباح الناعم.

* * *

في لحظات كنا عند الفندق القديم، كان له «شاليه» قرب نهاية الفندق منعزل ومستقل، في الداخل كان كل شيء معدًا، كمسرح صغير، يتصدره فراش واسع مغر، ولوازم السهرة موزعة في الغرفة، اعتنى هو بتجهيزها مع جرسون الفندق.

خلع ملابسه ووضع نفسه في جلباب واسع ملون، واستراح في مقعد وثير، مع كأس مترعة من «الويسكي الفاخر».

كان عليَّ أن أختار من أين نبدأ، صعبة دائمًا لحظات البداية هذه معه، لا شيء يخرج مني أو منه في تلقائية.

تعلمت أشياء كثيرة في الحياة، تعلمت كثيرًا من المسارب والطرق الملتوية، لكنني ما زلت أجد صعوبة بالغة، أو استحالة في استعمال البشر، في أن أرتب تعاملي معهم على أساس المقصد والغرض، والمنفعة والربح، خذ وهات.

لو أستطيع هذا مع هاني، لكان كل شيء عمليًا ومنطقيًا ولذيذًا، هو في حاجة إليَّ لأيام أو ساعات يكسر فيها ملل حياته الزوجية، وجفاف زوجته، وتعوده عليها وهو يوفر لي رفقة طيبة، وفراشًا ممتعًا - أحيانًا - لامرأة على مشارف الخمسـ ......

هل حقًا مضى كل ذلك العمر.. ولا شيء يزرع المعنى، هلع بلا قرار في قلبي، يصرفني عن هاني الذي كأنني أنسى وجوده للحظات.

في البداية كان مشروع الزواج - المزعوم - لعبة مسلية، دخلت فيها وأنا عارفة.. وراضية، أدخل معه في التفاصيل، وفي ترتيب شئون حياتنا المشتركة، وحياة الأولاد، واحتمالات الحياة في أوروبا، أو في

أي مكان بعيد أختاره، مشاريعه هو العملية المرتبطة بي، وبترتيب حياة مريحة ناعمة لي.

يريد أن يعوضني عما فات.. عما حدث لي.. تستفزني نغمة العطف والإشفاق، أؤكد له أنني حصلت على ما أستحق، وأنني لا أشعر بالمرارة، يضحك عندما أردد أنني لا أقبل تعويضات من أي نوع.

مللت هذا الموضوع، أراه هشا، زائفا، ولن يكون. شيء ما في أطراف عينيه يؤكد لي أن ما نفعله ليس سوى علاقة عابرة، تأخذ ما تأخذ، ثم تسقط تحت عجلات حياته المتصاعدة السالكة طريقًا آخر غير طريقي، حاولت أن أعيده إلى أرضي وأرضه، إلى هذه الغرفة وهذا الفراش، ولكن كئوسه وسجائره المتصلة كانت تحاصره في دور لا يستطيع *أن يلعبه بإتقان كاف*.

غيرت الموسيقى الخفيفة التي كانت تصاحبنا من أول السهرة، فتحت بعض الهواء في الغرفة، وطلبت له ولي طعامًا ساخنًا دسمًا.

ونحن ننتقل إلى الفراش كان يردد بمعان مختلفة أنه لا يريد معي ـ أنا بالذات ـ علاقة عابرة، أنا بالذات لا أصلح لعلاقة عابرة، قالها بالعربية، والإنجليزية، والفرنسية.

وهو يضمني.. أخذ يردد: أحبك.. أحبك، عندئذ انقسمت روحي نصفين.

* * *

أخيرًا كفت أوضاعي المالية عن أن تصبح مزعجة، نصف مرتبي الذي أقبضه بالدولار يضعني ـ الآن ـ في أمان مؤقت بالنسبة لمطالب الحياة، لا يحق لي أن أشكو وأنا أرى ما حولي.

النقود التي مع هاني ومع من هم أغنى منه ليست نقودًا، هي تيار فاسد ومفسد، لم أرغب فيه أبدًا، بل أكرهه.

منير كان يقول لي دائمًا: «أنت تحبين أن تصرفي النقود، ولا تعرفين كيف تكسبينها»، وهاني يقول: «أنت المرأة الوحيدة التي لا تغريها النقود».

الهلع المجسم كان في السنوات التي أعقبت الطلاق، كنت أعيش على الفتات الذي أستخلصه من منير، والنفقة القانونية الشحيحة.. بقيت بعد استقالتي من الجامعة خالية بلا عمل، مع خوف الفقر، وخوف الغد، ووحدة امرأة لفظتها طواحين الهواء يصبح العالم مكانًا عدائيًا بشعًا، ما يقرب من عامين عشت وحيدة في كهفي ـ شقتي في مدينة نصر ـ لا يطرق بابي سوى من يطالبني بنقود، أو يتلصص، أو يلقي عليَّ نظرات أو كلمات الرفض والاحتقار، كان عليَّ أنا ـ دائمًا ـ ان أرفع أكوام الزبالة.. أن أحملها على رأسي حتى أظل أنا وأولادي وبيتي في نظافة كما نستحق، أخذت هذا الحق لنفسي من بذاءة تجربتي مع منير، لم يكن في الحياة أي هامش صغير لشيء آخر غير الدفاع عن الوجود.

احتاج الوقت إلى قوة هائلة، لا أدري من أين جاءت.

أشعر براحة غامرة. أكاد أقول سعادة عندما يبلغ اليوم نهايته، أضع لمياء وتامر في الفراش، أعود إلى صالة الشقة وحيدة، أجد على منضدة السفرة قماشًا لفستان جديد كنت قد اشتريته، وأوراق التفصيل والمقص، أتابع ضرباتي غير المدربة بالمقص اللامع، وأرى ألوان القماش تتناثر أمامي بلا شكل ولا معنى.

أحمل وحدتي إلى فراشي ومعي قطع متناثرة بلا شكل ولا معنى من ماضيّ البعيد والقريب.

* * *

الحمد لله على الانفتاح وشركات الاستثمار، والمكاتب، والبنوك الأجنبية، لولاها لما وجدت مثل هذه الوظيفة في مكتب «الحاروني» للاستيراد والتصدير، أو كان عليَّ أن أحشر نفسي في أحد المكاتب الحكومية القذرة المزدحمة، أو ألقي بنفسي في شركة قطاع عام خاسرة تبعث، الحزن والكآبة، هنا مكاتب نظيفة، وأجهزة تكييف تعمل ـ وعلى الأقل ـ بعض الاحترام لنظام عمل.

من حسن حظي أن «فايز الحاروني» الرأسمالي المصري العجوز، كان حاضرًا بنفسه في يوم المقابلة، واختارني من بين عشرة من المتقدمين، قال وهو يرحب بي في طاقم مكتبه الخاص: ليس لأنك دكتورة.. ولكن لأنك تحترمين العمل وتحبينه.

في الحقيقة كانت ثقة «الحاروني» فيَّ، وإعجابه الواضح بتصرفي «الدوغري» المختلف عن المحجبات جسدًا وروحًا، أو غيرهم.. ثقته هذه هي التي ضمنت لي البقاء والترقي، في المكتب كان يعتمد عليَّ في تلقي خطاباته و«فاكساته» والتليفونات المهمة التي تصل إليه طوال اليوم من الخارج، والتي لا يحتمل الرد عليها أو البت فيها أي تردد أو تأخير، كنت حاضرة بالنسبة له دائمًا، فقد كنت أحب الرجل، مذهولة بنشاطه، وهو فوق الثمانين، كأنه معجزة متحركة، أو أثر من الآثار التي تبعث الفخر في المصريين.

عندما توطدت علاقتنا، كان يشكو لي من أولاده «أشباه الرجال» أفسدهم مال أبيهم قبل أن يصبحوا رجالًا، لا في الحياة ولا في العمل ولا حتى مع زوجاتهم.

كان العمل إلى جواره متعة. رغم الملايين التي يتحرك فيها، فإنه كان مقتصدًا مدبرًا يحب حياته، ويومه وعمله ويحيط نفسه بأشياء صغيرة يحبها ولا يغيرها.

دقائق من العمل معه، أو حتى مجرد الحديث الذكي العابر، تعوضني عن سخافة التعامل طوال النهار مع الزميلات من النساء العاملات معنا. كسولات مهملات يتقن دائمًا إلى «النم»، والكلام الخارج، عندما أضبط «راقية» ـ التي تجلس على المكتب المقابل ـ تنظر إليَّ، أرى وكأنها تخرج لسانها لي وتقول «لقد استمتعت مع زوجي ليلة أمس».. و«سعاد» تنتهز فرصة أي خلوة بيننا لتذكرني بقدرتها على أن تقدمني إلى شباب «صالحين لكل الأغراض».

أما ناجي زميلنا الشاب، فقد كان يحيطني برعايته في وله، تبدو فيه تعقيدات أحاسيسه المختلطة تجاهي، أشعر بها في انبثاقات عاطفية أو شهامة رجولية شابة.

عالم المكتب كان بعيدًا عن واقع البلد، والشارع، كأننا في جزيرة نلعب لعبة «أتاري» مسلية، و«الحاروني» يبدو دائمًا نظيف اليد عادلًا، لكن لا بد أن عزيز حبيبي كان سيسميه «الرأسمالي المستغل.. سارق الأحلام»، أظن أن هذا لم يعد مهمًا الآن، كلنا نسرق أحلام بعض، أو على الأصح لم تعد لنا أحلام، المهم أنني أملك مفتاح درج مليء

بالأسرار، وأنني أرى من خلال هذا المكتب ـ وهذا الرجل ـ عالمًا غريبًا لا علاقة لي به، في هذا المكتب قابلت هاني قبطان.

* * *

عندما أنزل إلى القاهرة في إجازة أنا ومنير فكار كان يظل يرتب لسهرة تجمعنا معا عند صديقه القديم «الجمال» العازب الأبدي وصاحب الحكايات والأساطير في مجالات النساء والكارت وصداقة المشاهير والنجوم، منير كان يفتخر بصداقته دائمًا ويقول إنه الصديق الحقيقي الوحيد، ولكن عندما أراهما معا كنت أشعر أن «الجمال» يحتقر منير، وينظر إليه على أنه «دودة» و«كلب فلوس».. أشعر أنه يراه من باب العشرة القديمة.. وهي مرة أو مرتان في العام على أية حال.

فرض عليه منير في هذه الليلة زميلنا في الإعارة الدكتور عبد الصبور أستاذ الفلسفة الذي تحول بعد دقائق إلى «فرجة» لكل الحاضرين بعد أن شرب وأكل بيديه ونظارته، وكل جسده وملابسه، كان يريد أن يفعل كل شيء في نفس الوقت، يأكل ويشرب ويتكلم، منظر مألوف للعائدين في إجازة من الإعارة، ودائمًا ما ينتهي نهاية مأساوية، بعد أن فرغ الحاضرون من التندر به و«التريقة» عليه انصرفوا عنه. شعرت بأنني مسئولة عنه بشكل ما، فقد جاء معنا، ولا أحد يعرفه، انتقلت إلى جواره أحاول أن أرده إلى صوابه، أو أصرفه إلى حديث آخر، وليتني ما فعلت!

أمسك الدكتور عبد الصبور بيدي وانخرط في بكاء مفاجئ، أخذته إلى غرفة مجاورة وأجلسته على مقعد في الهواء حتى أعد له

فنجان قهوة، عندما عدت كان بكاؤه قد تحول إلى نشيج مكتوم يداريه ـ دون جدوى ـ بكلتا يديه.

قال إنه نزل في هذه الإجازة بناء على طلب زوجته، عندما حضرت عرفت أن ابني الأكبر ـ ثلاثة وعشرون سنة ـ يطالبني ويطالب أمه بنصيبه الشرعي في الميراث، يريد أن يعرف ما عندنا ـ بالضبط ـ ويأخذ نصيبه الشرعي فيه، عندما واجهته تطاول عليَّ وقال.. إن لم يحصل على ما يريد سيجعل حياتنا جحيماً.. سيهدم البيت على من فيه، هو في السنة النهائية في كلية الطب، ابني الكبير، يريد أن يبدأ حياته بعيدًا عنا، هذا حقه، ألم أذهب أنا إلى هناك «علشان» الأولاد ومستقبلهم، هذا مستقبلهم، قاطع أمه، وخاصمني، صار يرسل إليّ خطابات تهديد، يهددني بالذبح.. أو بحرق الشقة، أمه تخاف أن تبقى وحدها معه.

أخذ الدكتور عبد الصبور يردد: «ابني.. يا مدام.. ابني يا دكتورة» في لوعة وألم وكأنه حيوان ذبيح، ظللت واقفة إلى جواره.. أتسند، أنا الأخرى عليه، حتى هدأ النشيج وراح يدمدم بأشياء لا أسمعها، ثم دخل في إغفاءة وتعالى صوت تنفسه.

انتابني فزع وغثيان شديدان، وظلت الرغبة في القيء تلازمني طوال الليل، عندما لاحظ منير ما أنا فيه قال: «لازم حامل» فأفرغت ما في جوفي بالفعل.

ظلت حكاية الدكتور عبد الصبور وابنه تطاردني وكأنها الفزع الأكبر، تظهر وتختفي في مجملها وتفصيلاتها، تدخل في تركيب يومي، وتطاردني مع أولادي أو في فراشي.

«عرفت بعد عام أن الدكتور مات بأزمة قلبية مفاجئة، وأن ابنه خرج من كلية الطب ليدخل مصحة عقلية».

* * *

بعد أن فرغنا ـ أنا وهاني ـ من جنس متعمد ممدود، أعطاني ظهره وراح في إغفاءة، عدت إلى مراقبة الغرفة في ضوئها الشاحب. استيقظ في الظلام عقلي، كأنني عشت هذه اللحظة من قبل بنفس هذه الأشياء، والمشاعر، والتفاصيل، في جسدي خدر وإرهاق، وفي ذهني يقظة كاملة ووعي حارق، كرهت نفسي وما أنا فيه، لماذا دائماً أريد أن أتعلق برقبة رجل.

شعرت بالذنب والتقصير، وعدمت الفرح، لماذا لم يعطني القرب منك ما أبحث عنه من راحة أو فرح حتى ولو للحظة واحدة، هل هو الجنس؟ هل صرت عجوزًا ضعيفة.. باردة.. عاجزة عن إرضاء رجل أو حتى إرضاء نفسي.

كدت أختنق وأنا أراقب تنفسه الذي بدأ ينتظم، أكاد أقسم أنني عشت هذه اللحظات من قبل، وحتى لا يتجمد زمني ويثبت هذا الشعور إلى الأبد، نفضت الغطاء عن جسدي العاري واندفعت أقف تحت الماء.

بدلًا من أن أغني تحت الماء المنهمر الوفير رحت أسأل نفسي: هل فعل الحب اعتداء أم امتلاك.. أم بحث عن مطلق مستحيل؟

* * *

في الخارج كانت مدينة «مطروح» امرأة راقدة في فراش منكوش بعد حب لا يشبع ولا يروي، منتهكة وغاضبة، «الكورنيش» وحده مضيء ولامع، وباقي الشوارع فظيعة قذرة مليئة بالحفر والمطبات.

كنت قد أيقظت «هاني» بعد أن مكثت وحدي أكثر من ساعة،

شربت كأسًا وحدي، ودخنت سيجارة من سجائره وحدي، نظرت من النافذة، حدقت في ظلام الحديقة وسكون الفندق كلما تحرك في الفراش أحسبه استيقظ يبدو أنه يحلم، قلق وغير مرتاح هو الآخر.

أيقظته، وضعته تحت الماء، طلبت منه أن يتحرك بسرعة قبل أن يكشف ضوء النهار ليلتنا المسروقة.

لم يعد عندنا ما يقال، في جسدي إرهاق، وفي عقلي غباء مصمت بليد، لا أدري لماذا ترك الكورنيش واخترق الشوارع الجانبية، قال يريد أن يطيل بقاءنا معًا، ضحكت.. أدار «الراديو» على برنامج غنائي قديم، استمعت إليه وأنا صامتة، لم أعد أعرف من أنا، اختلط عليَّ الزمان والمكان.

عندما توقف أمام مدخل العمارة، كان شبه نائم، حذرته من طريق العودة، وضغطت على يده، طلبت منه أن يتصل آخر النهار، مدخل العمارة رخامي، خال، مضيء.

لا أدري لماذا أصبحت الآن أخاف من مداخل العمارات، أشعر أنها مكان صالح لارتكاب جريمة ما، مكان يستدعي فضيحة ما، زمان وأنا طفلة كنت أتعلم الرقص في مدخل عمارتنا بمصر الجديدة، استمعت إلى صدى خطواتي على الرخام.

انتظرت أن ينفتح باب شقة، أو تطل عيون متلصصة، دخلت الشقة، كما يدخل الأزواج السكارى في رسوم الكاريكاتير، كانت نجية قد أضاءت نورًا جانبيًا خافتًا.

جلست نائمة في مقعد كبير، أعدت أمامها ـ لي ـ صينية مغطأة: كوب عصير برتقال، وعلبة زبادي، وفنجان من القهوة السوداء.

جلست أمامها حائرة، كأن شيئًا لا أعرف ما هو قد فقد مني، تراكم عليَّ الإرهاق الجسدي والضيق، وأحسست أنني كومة من الغسيل القذر، ماذا أفعل بنفسي، ولماذا يجب أن أربط نفسي برجل، أتعلق في رقبته، أبحث عن معنى لأيامي عنده، «نجية» هذه لم تعرف أي رجل بعد أن هربت من زوجها، «لم أعد أشتهيهم ولا أطيق رائحتهم» لو لم تكن هذه المرأة موجودة في حياتي لمزقت ملابسي واقترفت الجنون، هل أصبحت هي محور العالم، كما كان عزيز «لها ذلك الحضور الإنساني» حتى وهي جالسة هكذا كومة سوداء، نصف نائمة.

* * *

مات عبد الناصر في منتصف رحلتي الإنجليزية، أقمنا له نحن المصريين هناك مأتمًا في كل بيت، وفي كل ليلة، يتضاعف إحساسي بالوحدة والغربة، لم أكن من عشاق الرجل المتعصبين، ولكني كنت أحب كبرياءه، ونظافته، وحضوره الطاغي الذي يربط الوطن والناس في حركة لها معنى.

عندما مات شعرت بأن أحبالًا قوية كانت تربطني بالبلد تقطعت، خاصة بعد العواصف التي هبت، وغيرت من كل شيء، تغيرت كل اتجاهات الريح.

مصر التي عدت إليها لم تعد مصر التي غادرتها، أشياء غريبة وقوية انطلقت من الحواري والشوارع والبيوت، لكي تمسح كل شيء، وتغير كل شيء، ذلك القرار الجماعي الذي اتخذته الأمة كلها بأن تهجر البلد، وتهاجر، وتذهب إلى بلاد النفط تبحث عن المال، أو عن الحل، أو تلقي بنفسها في بحار الضياع، بعيدًا عن الفقر والزحام

والتراب، بعيدًا عن المأساة، عن العشيقة التي خانت والحبيبة التي تحولت إلى بغي.

عندما عدت وجدت أبي قد استعاد بعضا من عافيته فيما يشبه المعجزة، صار بإمكانه أن يخطو داخل المنزل وحده، وأن يحرك يده اليمنى التي كان الشلل قد ضربها، عاد يروي بنفسه نباتات الظل التي أكرهها، يحصل لها على أنواع جديدة من السماد، كأنه يحقنها بالهرمونات صارت نباتاته تخنقني عندما أدخل إلى الشقة، وتخيفني عندما أراها تتحرك ليلًا تحت أضواء الطريق.

حدث له هو أيضًا شيء غريب، أخذ يتابع الأخبار في الجريدة، المال والاقتصاد، ويدرس أسعار الاسترليني، والدولار، بشغف واهتمام كأنه من كبار المستثمرين.

عندما تأتي «نورا» أختي وزوجها التاجر الخليجي كان يبدو في أحسن حالاته، لا يكف عن السؤال عن الأحوال المادية، وتقديم الاستشارات المالية المضحكة.

حلت شهوته الغريبة للمال حتى بمجرد الحديث عنه محل ما كان في نفسه من اهتمامات بالفنون أو بالعمارة أو أبيات الشعر القديمة، ما حدث له كان يؤلمني ويزعجني كأنني أراقب إنسانًا يتحول إلى قرد.

قابلت زوجي المرعب منير فكار في يوم من تلك الأيام الغريبة التي كان السادات يقوم فيها بصدمة من صدماته الكهربائية: طرد خبراء، أو حملة اعتقالات، أو خطبة من خطبه العصماء المضحكة، لم أعد أذكر.. قابلته في الجامعة، كان قد جاء في إجازة من الإعارة، أخذ يقلد السادات وأضحكني كثيرًا حتى دمعت عيناي، أغلق باب

الغرفة، وأخذ يقلد صوته، وحركاته، ويسمعنا بعض الأبيات التي قالها «نجم» ويغنيها (الشيخ إمام»، يومها خرجنا معًا، وحدثني عن نفسه، كم كنت حمقاء وغبية عندما دخلت بقدمي إلى هذا المستنقع.

استبدلت بحار حريتي بمستنقع الطين هذا، لم أخرج منه إلا بعد عشر سنوات، أحمل على كتفي أولادي، وقلبًا لم يعد يصلح لشيء، بعد شهور من التفكير والمطاردة، والحسابات المشتركة، واستقطار حب مصنوع مجهد.

استسلمت، أخذته من يده لكي يقابل أبي، رغم أن هذا لم يعد ضروريًا، فقد كنا اتخذنا القرار، أبي كان قد دخل إلى حالته الاستثمارية الانفتاحية، وقاس الدكتور منير بكل المقاييس الجديدة، وأبدى حماسًا غير عادي له، لحد أنني خشيت أن يمسك به ويزوجني له قبل أن يذهب أو أن يطلب منه أن يبحث له عن عقد عمل.

أبي.. أبي.. منذ طفولتي، وأنا أحبك وأكرهك في نفس الوقت، أحببت آفاق الحلم الذي زرعته في نفسي، كرهت ضعفك الذي - دائمًا - ما تحسن إخفاءه تحت قرارات تبدو جريئة وديكتاتورية، كرهت أنانيتك، واستعمالك لنا، أمي وأنا وأخواتي، كأننا عوامل مساعدة أو أشياء في المحيط الذي تتحرك فيه، أظن أن عدم ثقتي في نفسي وخوفي المزمن واكتئابي المتردد كلها بذور زرعها شعوري - الدائم - بالخوف من تقلبات مزاجك، وحياتك الباردة الخالية من التحقيق.

* * *

تركت «نجية» تنام في الصالة، ودخلت إلى غرفتي.. فتحت النافذتين، أخذت أراقب الليل ينحسر تاركًا في الشارع بقايا أضواء

وأصواتًا متناثرة هنا وهناك.

لم يعد النوم ممكنًا، سأمضي يومي التالي في السرير مدعية التعب متصنعة الصداع والإرهاق، بينما حقيقة الأمر أن الليلة تركتني خالية من أي قطرة من الحماس أو الرغبة في الحياة.. أعرف تلك الأيام، وتلك الدوائر المفرغة من الأفكار السوداء التي تفضي الواحدة منها إلى الأخرى، صانعة حصارًا جهنميًا حول أركان الكون الأربعة، ليصبح الوجود أضيق من خرم الإبرة، أعرف تلك الأيام، وأترقب قدومها كأنها اللذة الوحيدة الحارقة التي بقيت لي.

رقدت في سريري المرتب أراقب. بعيون مقروحة، الشفق الأحمر يختلط بأنواع «الفلورسنت» فيسد علي النوافذ.

* * *

أعتقد أن كل غرائزي، وأحاسيسي الجنسية، تفتحت على يد خادمتنا الطويلة العفية السمراء «جازية».. تتناول جسدي الصغير بيديها كأنني عروس من الكاوتش، عندما أحاول أن أصيح وأصرخ من اللذة أو الألم، لست أدري، تضع يدها على فمي، وتقول: «عضي.. ولا تصرخي»، وكنت أفعل حتى تصرخ هي فتدفعني وتضربني، ثم تعاود الكرة مرة أخرى، تختلط ـ في عمري كله.. لسبب لا أدريه ـ لذتي بألم وندم لا أعرف كيف أصرفه.

بيني وبين «جازية» دائماً فضيحة دفينة. تعاملني أمام أمي وأخواتي على أنني سيدتها الصغيرة، وتخصني بمعاملة أكثر رسمية من الجميع، وعندما نختلي في الغرفة، ودائماً أمام المرآة الكبيرة، تخلع عني ملابسي،

وتتجرد هي من ملابسها الداخلية القذرة ذات الرائحة النفاذة، وتحدثني في صوت يشبه الفحيح عن المرأة والرجل، وعن المناطق التي يجب أن «تقرص هكذا»، والتي يجب أن «تعض هكذا» ضبطتنا أمي يومًا أمام المرآة الكبيرة، جازية تشرح لي كيف أغطي صدري النابت الصغير بشعري الذي أحل ضفائره، وأترك «عريسي» يدلكه لي هكذا.. صرخت «جازية»، وبكت لساعات طويلة عندما ضربتها أمي بالشبشب، أخذت تردد أنها كانت تعلمني كيف أمشط شعري الخشن إلى الأمام، أما أنا فأغلقت على نفسي غرفتي وبقيت لأيام مرعوبة خائفة مما فعلته، ومما فهمته، ومما لم أفهمه.

بعد أسبوع أو أكثر طردت أمي «جازية» لأسباب مختلفة، ووقع ظلم ماحق على لذتي المؤلمة، ولم يبق إلا أثر خالد لفضيحة مدفونة.

* * *

نجية لم تستيقظ مبكرة بالقصد، لكي تترك فرصة «للمياء» لتأتي إلى فراشي وتحاول مداعبتي وتدليلي، هي تعرف أن حضن ابنتي ينعشني ويغذيني.

هي الدواء الوحيد لتلك الليالي التي أصبحت حتى «نجية» تعرف كم صارت بالنسبة لي محبطة وخالية من السعادة.

عندما جاءت لمياء أخيرا وألقت بنفسها إلى جواري تصنع ضوضاء وتلقي بالأسئلة كأنها طلقات الرصاص، لماذا النوافذ مفتوحة هكذا، لماذا السرير مرتب، لماذا عيناي حمراوان؟

ألم أنم دقيقة واحدة؟ أين ذهبت؟ وماذا فعلت؟ متى عدت ليلًا.. وأين ذهبت أنا وهاني؟

وأنا مجهدة مخنوقة كان عليَّ أن أجيب عن كل هذه الأسئلة، ألا أكذب، ألا أقول كل الصدق، أن أحافظ أمامها على صورة متوهمة لأم عملية مشغولة، نصف جادة، لا تدعي الفضيلة، ولا تعلن الانحلال، تدور في دوائر مرتبكة من أحكام أخلاقية مزيفة وخانقة، من عينيها، ونظرات المكر والإشفاق المختلطة بالفضول الجارف، كنت أشعر أنها في حاجة إلى مصارحة ومكاشفة مستحيلة، هي بالقطع تعرف كل شيء.

حاولت أن آخذها في حضني، وأن أدفعها مرة آخرى إلى النوم بعد أن أغلقنا النوافذ لمنع ضوء النهار اللاسع والضوضاء، والذباب اللزج.

* * *

أين اختفت عائلتي، وأصحابي، وبلدي، وكل ما كنت أحلم به؟ هل ابتلعنا حوت عملاق، ونحن نعيش ـ الآن جميعًا ـ في بطنه نضرب في بحر الظلمات؟ أخي أمين الطبيب ـ صديقي ـ الذي كان يتحدث معي أنا وعزيز عن طب الريف، وخدمة الفقراء، وتبسيط العلاج والمصاريف، وعلاج البلهارسيا، وفقر الدم.. متى وكيف انسحب؟ كيف أخذ الجنسية الكندية، وأنجب أولادًا شقرًا لا يتحدثون العربية؟ يطلبني على التليفون مرة كل عام، يسأل عن أحوالي في خطاب نصفه استفسارات وطلبات، أختي الصغيرة نورا ربيتها وحميتها ـ ابنتي تكاد ـ تصغرني بأكثر من خمس سنوات، كيف ضاعت؟ خطفها

ذلك الغول وصنع مِن بقاياها كائنًا آخر لا أعرفه، لا أصدق أنها «نورا» أختي، لا في الملابس، ولا في الصوت أو الماكياج، ناهيك عن الأخلاق، والسلوك المزيف الكاذب المدعى حتى النخاع، بالنسبة لي صارت مثل «مصاصة القصب» امرأة مسحوقة أمام رجل غبي، تاجر غني يتاجر فيها، ويكسب من ورائها، ويمكن أن يبيعها غدًا لأعلى سعر، متى حدث لها كل هذا؟ ولماذا حدث؟

حدثت لي أشياء كثيرة، ولكن كأن شيئًا لم يحدث، خالية فارغة وحيدة، كأنني أرقد عند حافة العالم بلا أرض ولا جذور.

أفظع ما حدث حدث «لعزة البارودي»، صديقة الصبا والشباب، والحب المبكر، وليالي السهر والقمر والأحلام، رأيتها في «سوبر ماركت» في الخليج كومة من السواد منقبة حتى أطراف أصابعها، عرفتها من صوتها ـ الذي هو عورة بمعنى من المعاني التي يطبقون بها على أنفاسنا ـ عندما خلعت النقاب، وجلسنا قلقتين على مقعدين متقابلين في مدخل شقتها، كانت خائفة من قدوم زوجها الذي لا يمكن أن يسمح لأمثالي بدخول بيته، هو مسئول عن عمل إسلامي كبير وخطير، كان وجهها أصفر شاحبًا سحبت منه الحياة، تهدلت الملامح، ولمعت عيناها ببريق الجنون، لم أع من كلماتها سوى كلمات الجحيم، والحريق، والعذاب، بحثت في كيانها أو كلامها عن ضحكة أو ابتسامة أو نسمة حب أو ود قديم، لم أجد شيئًا، كل شيء حولها أسود محترق، كأنها تعيش في دار خشبية تفحمت في حريق قديم، حملت جثتها على قلبي، وسكن معها سؤال صار لا يفارقني: هل أنا كافرة، هل سأسكن إلى الأبد في قاع الجحيم؟ صرت أخاف من دينهم هذا الذي يخلقونه كأنني أخاف من مرض عقلي وبائي ليس له علاج.

صار الناس حولي جزرًا مستقلة، أشلاء عالم ـ كان ـ وانفجر، تحولت فيه اللغة إلى عواء والمشاعر إلى شهوات عاجزة حمقاء.. وأنا وحيدة صريعة غبائي وقلة حيلتي، وتمردي الذي أراه، وقد شارفت الخمسـ.. يتحول إلى ذرات تراب.

كل هذا الإحباط والسواد يتراكم عليَّ، لأنني لم أعرف أن أنام جيدًا مع رجل نصف سكران.. لا أحبه ولا يحبني.

حاولت أن أسكت هذا الصوت، وهذه الأفكار، ولكنني كنت كمن يسبح في مستنقع لزج من الغباء، تمسكت أكثر بحضن ابنتي التي نامت، هي ملاذي الوحيد، وضوء النهار الغازي يهزم مرة أخرى ظلام الغرفة المصنوعة.

* * *

هل أظل إلى الأبد أجلد نفسي لأنني تزوجت منير فكار، السنوات العشر التي أمضيتها زوجة له، أنام في فراشه، يتناول جسدي وقت أن يشاء، ويطلق عليَّ ما يشاء من أسماء وصفات أراها الآن بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات أخرى على الطلاق، كأنها سنوات أمضيتها في قاع الجحيم في بيت دعارة، تخصص في جلد وإذلال النساء، صمد جسدي، ولكن كيف صمدت روحي، وكيف التأم ما أصابها من جروح؟ هذه معجزتي، ومعدني الصلب الذي ـ أحيانًا ـ أفخر به.

وجدت نفسي وحيدة فقيرة بعد أن عدت من إنجلترا، فقيرة فعلًا ليس لي سوى مرتب الجامعة الذي يضيع نصفه تقريبًا في المواصلات بين مصر الجديدة والجامعة، مع الفقر الذي عرفت كيف أتعامل معه

كان هناك الخواء، أسمع الريح تصفر في داخلي.. بعد محنة عزيز لم يكن سهلًا أن يدخل أحد إلى قلبي وحياتي وجسدي، أراقب الرجال عن بعد، أعقد مقارنات دون أن أدري، أغلق حتى الأبواب التي تبدو مفتوحة، مع حالة اليأس المبكر هذه، كان هناك ذلك الذي يحدث حولي «المولد كله قد انفض»، ذهب كلٌ إلى حال سبيله، الموجودون على الساحة حولي فئران مذعورة هربت من سفينة غارقة، تجري في كل اتجاه وراء أشياء أهمها النقود، والبضائع المستوردة، وكل ما هو ساقط مبتذل من الفنون، والأغاني، والأفكار، ينتابني دوار مستمر فأخرج في جولات سير طويلة على الأقدام، أسير خلال الأحياء العشوائية الجديدة، غالبًا ما أضل الطريق وأنا مستغرقة في مراقبة الوجوه التي اكتسبت فجأة جهامة وقسوة لا يعرف أحد مصدرها، هل ترجع إلى الفقر المتصاعد؟ أم إلى تفكك كل الروابط، وسقوط كل القيم، رائحة الأتوبيسات العامة لا تطاق، والمعاملة في «الميكروباصات» غير إنسانية، وسائقو التاكسي نهمون وبلا ضوابط أو أخلاق، أما السير على الأقدام فهو محفوف بالمخاطر.. من كل هذه الثغرات دخل منير فكار إلى حياتي وتربع على عرش الأطلال والخرائب، حسبت نفسي من «الشطار» وحسبت أموري بدقة بدت لي مقنعة، تبادلنا ما تصورنا أنه «صراحة» فإذا به، من ناحيته، خبث مزمن قديم، ومن ناحيتي سذاجة وانزلاق إلى مستنقع الأنانية، في لياليَّ الأولى معه لم أشعر كيف أفقد بسرعة كل ما في نفسي من طهارة وبراءة، أفقد اهتمامي بكل شيء خارج ذاتي، يتصاعد المشروع الذي بدأنا نصنعه معًا، الاستمرار في الإعارة بأي ثمن هو لب المشروع المؤامرة، أنا جزء ضروري مكمل، وضمان أكيد لزيادة العائد.

لم يكن منير يتورع عن أن يستغل أي شيء ويستعمله لكي يقنعني ويقنع نفسه، الزواج، ثم السفر، ثم الصمود هناك، استعمل كل شيء، أفكاره اليسارية القديمة، ومحاولاته مع الكتابة، وفن القصة، والتفرغ في النهاية لحياة البحث في التراث والكتابة، حتى قصة «رقصة الديك» التي كان يحاول كتابتها أحيانًا كقصة، وأحيانًا قصيدة أو مسرحية، ويسميها «كنزي الفني».. لم تكن في الحقيقة سوى صفحة مزيفة من تاريخ حياته، اصطنع لها تفاصيل، وأخفى تفاصيل، لكي يداري الحقيقة الوحيدة التي سيطرت على روحه وحياته، لن يسد فراغ هذه الروح، ولن يسكت هذا العواء الداخلي إلا بالنقود والأشياء الثمينة الغالية التي صار يعبدها من دون الله.

تركت أرضي ووقفت معه على أرضه فغرقت حتى شعر رأسي في مستنقع الغباء والأنانية والنفط.

* * *

ألقى «تامر» بنفسه فوقنا في السرير، لم يسأل أسئلة أخته، ولكنه أخذ يهزني، ويدير وجهي ناحيته لكي أسمع تفاصيل ما حدث في مدينة الملاهي، لم ينقذني سوى صوت «نجية» الذي أخذ يدعوهما للشاي والإفطار، ودفعتني أنا دفعًا لحمام ساخن جديد، خرجت من الحمام، وأنا أشعر أنني كيس رمل فارغ، أدور في الغرفة التي أعادت نجية ترتيبها، أنقل الأشياء من موضعها، وأعيد وضعها فيها من جديد، أقلب الملابس القليلة التي صحبتها معي، أتأملها، ثم ألقي بها في غضب.

أخيرًا امتدت يدي المرتعشة إليها، أخرجت علبة الحبوب المهدئة، أخذت حبة لكي أنام، وأنا أسقط في البرزخ بين الحياة والموت، شعرت بـ«نجية» تضع على جسدي المسجى باردًا فاقدًا للحياة ملاءة خفيفة، لامست جبهتي وكتفي وقالت هامسة:

يا حبيبتي.. يا أختي.. حمد الله على السلامة.

* * *

ملعون النوم بالحبوب المهدئة، كان الرأس وحده وسطح العقل ينام، بينما تغلي العروق ويفور الدم مختلطًا بالذكريات والصور كلها تلدغ وتضرب في الأحشاء.

تنهدم الخطوط التي صنعتها ـ بصعوبة ـ لنفسي أحدد بها جسدي ووجودي، أنفرط أنا في مكاني: جسد بلا شكل، وجه بلا ملامح، كومة من غسيل قذر، أقاوم قوى مجهولة لكي أكون، يقود الوعي إلى غباء محض، وتسقط الأفكار أجنة مجهضة، تسكن هزيمة مريرة في الروح، تنهار سدود الزمن، فيجتاح ماض كثيف ثقيل لحظتي وحاضري والآن، دافعًا بي كجثمان نافق إلى حافة الكون وأطراف الوجود. ملعون ذلك النوم المصنوع، ملعون ذلك اليوم الذي ـ كأنني ـ أدخله في نهايته، أتقلب وحدي في الفراش الحار كأني محمومة، أصوات الخارج ـ الشقة والشارع وصوت البحر البعيد ـ ليست حقيقية، أغلق عيوني فتندلع الصور، تزحم الغرفة التي تخترقها ـ وتخترقني ـ رماح النور، تتصاعد بسرعة، صانعة ضحى غريبًا وظهيرة أغرب، أمضيهما أتقلب في فراشي، يتساقط داخل رأسي مزيد من الصداع.

* * *

غل حار يتصاعد في جسدي، لا تقدر امرأة أن تنسى أن نساء الأرض ـ كلهن ـ خلقن طاهرات وأبكارًا، وأن الحسن كان رياضًا خلابة، وأن الحب كان أخضر مرويًا كحقل برسيم في ندى الفجر، لكن كل شيء يمر بي مثل الأيام، مرت بي الأيام، مرت بصدري وبطني وجسدي، من يوقظني.. من يوقظ الأحلام؟

عزيز ـ حبيبي ـ يقف هناك في «الموت» على شاطئه الغامض يناديني، ينادي روحي وجسدي والمستحيل، أمد له ـ وأنا راقدة ـ رأسي ورقبتي وصدري، ألم يخترق الكتف، أريد أن أسكن على بقعة معينة في صدره، أريد أن أضع رأسي على وسادتي اللينة، أن يزورني نعاس إلى جواره في النور، أسمعه يقول لي: «أدخلني يا حبيبي إلى جنتك، هناك أرى حبي مترعًا مرويًا كحقل برسيم أخضر».

أدخل أنا وعزيز إلى كنيسة قديمة خالية في وسط البلد، مظلمة رطبة في عز النهار، شموع كثيفة تبعث نورًا حانيًا، ينعكس على صلبان وصينية من فضة قديمة، جسدي ينتفض من البرودة المفاجئة، والرائحة الكثيفة والخشوع، أجلس صامتة إلى جواره، أتطلع إلى بقع الضوء النافذة خلال الزجاج الملون، يضم كتفي إليه، يسكن رأسي عند بقعة معينة من صدره.

لكن كل ما في روحي الآن هش غريب، أنظر إلى فراغ الغرفة بعيون متعبة غائمة، خائفة من لا شيء، أحب، أبوح، لا أقدر، أصرخ، لا يخرج الصوت، لا أسمعه، أعاود الصراخ، أسمع الصوت في بطني، «مد حبيبي يده من كوة الباب أنَّت عليه أحشائي».

* * *

طعم ملح في فمي، خيوط عنكبوت حولي، الشقة ليست شقتي، البلد ليس بلدي، الرجل منير ـ زوجي ـ يشغل الهواء الذي أتنفسه،

يتحدث، أسمع صوته ولا أعي ما يقول، تزداد وحدتي عندما يتكلم، يعيش عالمًا لا أصدقه، أعيش ولا أصدق أنني موجودة فيه.

في الصباح أجد نفسي في شقة الغربة وحيدة، وحدة في قلب وحدة في محيط من غربة وغباء، الهلع يسكن قلبي والسؤال الأبدي يتصاعد: ماذا أفعل هنا؟ ومن هؤلاء؟

أشعر به فوق جسدي كأنه كان يضربني ليلًا، آثار الجنس معه أصبحت لا تطاق، أعرف أنه يستعد لليلة في الفراش مبكرًا، عندما ألمحه يتناول خلسة حبوبه المنشطة، يعد الشاي المتأخر بنفسه، عيونه تخلع عني ثيابي في الضوء.

اليوم ـ ككل يوم ـ فارغ بيننا، ردودي عليه، تأتي متأخرة، كأنني في مكان آخر، أستجمع قواي خائفة، أتمنى أن يحدث شيء جديد، لكنها حركات كل ليلة، لمسات كل ليلة، كلمات كل ليلة، وأخيرًا ذلك العنف المؤلم المتصاعد الذي يتركني أغرق في مستنقع لزج، وحيدة أنام كما أستيقظ وحيدة، تعلمت البقاء وحدي طويلًا، جالسة في الحمام لا أفعل شيئًا، أضمن هناك ألا يخترقني، ألا يتناول جسدي وهو يمضغ الطعام، يهزمني مجددًا كلما نتقارب، أو نتكلم، وضوح مقاصده وأغراضه وحركاته لا يجعله إنسانًا، ماكينة بشعة للأكل والجنس وجمع النقود، يزيحني من طريقه كي لا يتأخر دقيقة واحدة، أسأل نفسي كيف يراني ولا أجد جدوى من السؤال.

كل الأقنعة سقطت، عاريًا تحت جلبابه الأبيض، لا يهمه إن كان قذرًا أو نظيفًا، يغلق على نفسه حجرة المكتب، يأخذ معه طبقًا من الحلوى الرخيصة التي يحبها، وكوبًا من الشاي الغامق، أسمعه

يخاطب نفسه بصوت عال كأنه يحفظ نصوصًا، يغيب ساعة أو ساعتين، يخرج منتصراً يحمل كومة أوراق، يلقي بها أمامي، يقول: خمسمائة دولار يا هانم.. مقال رهيب عن التصوف الإسلامي، طبعًا لن تقرئيه، أحاول أن أقرأ، تجري عيوني على ما جمع من مقتطفات قديمة، جواهر في كوم زبالة، كذاب مغرور بلا صدق، ولا مشاعر، نفس الكلام الممضوغ بلا أفق، بلا حلم، بلا مغامرة، أرى في الأوراق ـ التي يكتبها بخط واضح سليط ـ فراغ نفسه، ودناءة مشروعه الأجوف الذي جرني إليه، مقال كل يوم أو يومين من نفس النوع، لهذه المجلة أو تلك النشرة، تصدرها حكومات أو جامعات، أوراق لامعة غالية، وثائق تعلن خيانة الفكر، واحتراف الكذب والإدعاء، كتابة هدفها إبقاء الحال على ما هو عليه، تعلن انتحار المستقبل، وهو يغرف منها النقود ويقول إنه يكدح، وإنه يكتب، تاجر غشاش، وأنا زوجته، صرت أخشى فضيحة ما، كما يحدث في الكوابيس، أن أضبط وأنا أسرق من محل، أو أضبط عارية في طريق، نقودي التي أقبضها من الجامعة أول كل شهر، كأنها مزيفة، لا أحب رائحتها، أضعها أمامه في الغرفة يأخذها يعدها، يعيد ترتيبها، في الغد تختفي، أنا غارقة تمامًا في المستنقع ولا جدوى من المقاومة.

تشدني ـ وأنا هناك ـ صور بلادي. أسمع في قلبي نشيجًا ولا دموع، أصوم، أصلي أبحث داخلي عن بقايا طهارة قديمة، لا أجد سوى دمار، أسمع في صدري دمدمات تحدثني عن أشياء بشعة تجتاح ناسي وبلادي، أنا المجرمة المسئولة، لا، أنا «تابع» لست الفاعل الأصلي، مجرمة بالتبعية.. بالزواج بذلك الرباط غير المقدس، هل كل

النساء هكذا.. حتى في الجرم والذنب تابعات، أكره نفسي، جسدي، عادتي الشهرية، صدري ذلك المنتفخ بلا حب ولا حنان.

في ليلة نادرة خرجنا معًا، منير والأولاد وأنا والزملاء، أربعة أو خمسة كلهم منير أو يكادون، وزوجات ممتلئات، منفوخات، فاغرات الفم من التخمة والبلادة، أولاد كثيرون كأنهم قرود في جبلاية، معنا طعام كثير وشراب كثير، نسير في طريق مظلم، وسط ليل وصحراء إلى بقعة نائية غريبة على بحر ساكن أسود لا تتحرك فيه موجة ولا نسمة هواء.

هناك أخذوا جميعًا يحتفلون في صخب بفكاكهم المؤقت من الأسر الذي يعيشون فيه، احتفلوا بدس الطعام والصراخ، وأشرطة الكاسيت المصرية الجديدة، تركت أولادي وزوجي ورائي، سحبت جسدي المهزوم وروحي المطعونة، سرت وحدي في صحراء وحدتي، وحدي أمام البحر الأسود الساكن ـ وجهًا لوجه ـ في السماء نصف قمر مخنوق يسقط ببطء في المستنقع الذي يمتد أمامي بلا نهاية، القمر المخنوق الغارق يطاردني مثل الكابوس، يلتف الضوء المربع المريض والشاحب على عنقي يمنعني من التنفس أو البكاء.

بعد أن رجعنا ناموا جميعًا، وبقيت وحدي أرى القمر المخنوق يطبق على صدري، وأنا أبلل «موكيت» الغرفة القذر بدموعي.

* * *

لا تفعل فيَّ الحبة المهدئة هذه الأفعال عادة. كأنني امراة مغتصبة منتهكة، كل جزء في جسدي يتألم، ربما لأنني أخذتها بعد شراب، أو

بعد جنس أثارني ولم يشبعني، ربما لأنني صرت عجوزًا بلا أمل ولا رغبة في الحياة.

النهار يقارب من نصفه، أسمع صوت التليفزيون عاليًا يذيع فيلمًا قديمًا، صمت الأولاد أمامه مقلق كأنهم ـ هم أيضًا ـ يغرقون في نفس الفراغ الذي يبعث في قلبي الهلع، كانهم يحدقون في حياتي، عيونهم ـ التي لا أراها ـ جامدة بلا رحمة، لا تعرف الصفح ولا الدموع.

دخلت نجية على أطراف أصابعها إلى غرفتي المغلقة، غيرت هواء الغرفة ووضعت إلى جواري كوب ماء بارد، بللت ريقي، أحسست أنني عشت هذه اللحظة من قبل، نفس الضوء، نفس الوقت، نفس المكان، ونفس هذا الكائن القريب البعيد الذي أعرفه ولا أعرفه، سقطت مرة أخرى في هلوسة أراها تحدث أمامي.

نجية تحكي لي ونحن وحدنا جالستان على صخرة قرب الهرم عن الممثلة الصغيرة التي عملت عندها قبلي بسنوات، تصفها وكأنها ابنتها ـ تولت كل شيء في حياتها ـ كما تفعل معي وأكثر.. «حلمت أن أعيش أخدمها إلى الأبد، أحميها وأرعاها في الغابات التي كانت فيها، تزوجت فجأة من رجل مسئول كبير في الحكومة، مخابرات أو شغلانة غريبة كده، شغله غريب، وضيوفه أغرب، تجار أو مهربون، بعد أسابيع عرفت أن الرجل يبيع زوجته، كرهني عندما عرفت، بعد شهرين كانت بتشم، طردني الرجل وهددني، بكت هي وأنا أذهب وأنا كنت أبكي عليها بدل الدموع دمًا».

انتفض جسدي، سمعت صوتي ينادي على لمياء ابنتي بلا مناسبة بصوت ملتاع يحول بيني وبينها جيوش من البشر، تسير في جنازة بلا

نعش، يحيطون بها ويمنعونها من الوصول إليَّ، نصف جسدها عار تسيل منه الدماء.

عندما صرخت أنادي عليها، جاء جميعهم إلى السرير، الصداع يفلق رأسي وهم يرتبون كيف سيكون احتفالهم غدًا بعيد ميلادي، أسلمت رأسي مرة أخرى للوسادة حزينة مقهورة، طعم الملح في فمي، وخيوط عنكبوت تلامس وجهي.

* * *

ظلت الترتيبات تجري فوق رأسي، وأنا أقاوم أن أصرخ فيهم، أطلب الصمت، أطلب الحرية، أطلب أن أتنفس، انتابني ذعر من أنني لن أنام، وأن هذه الهلوسة ستستمر وتتصاعد، امتدت يدي المرتعشة ـ مرة أخرى ـ إلى الحقيبة ودسست في فمي حبة مهدئة جديدة.

كان ذلك في عيد ميلاد تامر الثالث أو الرابع، استقر كياني كله على قرار رغبتي في الطلاق أصبح العداء ظاهرًا بعد أن كنت أحاول أن أداريه، تولدت قوة غاضبة حتى أصبح يخاف مني حقًا، ويقول إنني قد جننت، أصبحت أنا الأخرى أخافه، فقد كان يدبر لي أمرًا، فجأة سقط مريضًا، ربما من طعام ملوث أو توتر عصبي زائد أو من الإفراط في تناول الحبوب المنشطة، أخذ يستعطفني ويطلب مني أن أنقذه، لا يريد أن يذهب إلى أي مستشفى، يصرخ ويتلوى من الألم، يطلب مني أن أمرضه، أن أبقى ساهرة إلى جواره، الموت يطل عليَّ من رائحة فمه، يقول: اقتليني أنت هنا أحسن، في المستشفى سيضعونني في ثلاجة وبعدها يرسلونني إلى مصر في صندوق، تحول وهو مريض

إلى طفل أحمق مذعور، يبكي وينادي على أمه، وأقاربه، وأنا إلى جوار سريره انتابتني نوبة غضب فمزقت بعض الأوراق النقدية الكبيرة التي كانت إلى جواره وألقيتها في الزبالة، أخذ ينظر إليَّ في ذهول، عيونه المريضة تحدق فيَّ كأنني جني أو شيطان، ارتفعت درجة حرارته وتصبب عرقًا، كان أضعف من أن يتشاجر فنام، بعد أن أفاق أخذ يردد: كافرة، كافرة.

* * *

سقط الدكتور عبد الصبور في الطريق ميتًا، بعد أن أطبقت عليه محنة ابنه الذي طلب نصيبه في ميراث الرجل، مات بأزمة قلبية بعد أن ظلت خيالات ابنه تطارده ليلًا وتمسك به نهارًا، لم يعد يتكلم في شيء، اشتكى طلبته في الجامعة من أنه يدخل المحاضرة ويظل صامتًا يحدق في الفراغ، أشيع أن الجامعة سوف تنهي عقده، لكن الحالة كانت تتدهور بسرعة أكثر، يرفض أن يركب السيارة، يذهب إلى الجامعة ويعود سيرًا على الأقدام في حرارة الشوارع القاتلة، طوال الطريق كان يحدث نفسه، قبضت عليه الشرطة مرة، وحمله بعض المصريين مغمى عليه إلى بيته، في الثالثة سقط ميتًا في الطريق في عز الظهر، كنت مع زوجته وهم ينقلون جثمانه المجمد من الثلاجة ليضعوه في صندوق، سمعتهم يدقون المسامير في الخشب على أرض المستشفى.

أشباح الأولاد تبتعد عني، وهم ما زالوا معي على السرير، أصواتهم - أيضًا - تبتعد، وأسقط في نوم كأنه الإغماء.

* * *

رأيت أن حبي كان وهمًا، رأيت أن عزيز لم يكن له وجود، رأيت أنني أسير في فراغ، أغرق في البحر الأسود مع القمر المخنوق.

عزيز يقف في نهاية شارع خال، كبير الحجم، جميلًا كما لم أره من قبل، عيونه تناديني، أسير منومة إليه، أجده تمثالًا، لمسته فانهدم، جلست جنب أطلاله أبكي.

منير زوجي يقف معي على سلم قسم الشرطة، الحديد في يدي، الصحفيون والمصورون يلتقطون لنا الصور، وهو يضحك ويلوح بيديه منتصرًا، العساكر يسحبون لمياء وتامر بعيدًا.

الغرفة التي كنت فيها مع هاني لها جدار من زجاج، عيون وأنوف ملتصقة بالزجاج، من سماعة الموسيقى تخرج أصوات تصفيق وصراخ، أجري في الغرفة عارية، أحاول أن أسد الأصوات، وأدفع العيون، هاني يجلس في مقعده، يشرب خمره وسجائره، يدفع رأسه إلى الخلف ويضحك، يشير إليَّ بإصبعه ويضحك، أنا لا أجد شيئًا أستر به جسدي، أسير على أرض خشنة ساخنة، أرض محروثة بها بقايا جذور، وأحجار وقطع زجاج مكسور، أقدامي حافية دامية، أنبش وسط أركان الأرض عن بذور كنت قد ألقيتها، لا أجد شيئًا، أصابعي أيضًا دامية. فوق رأسي طيور مسرعة سوداء تنقض قرب رأسي وتهمس «بلهاء.. غبية بلهاء».

بلت شفتي من كوب الماء الذي لم يعد باردًا، أصغيت فلم أسمع لأحد صوتًا، كانت الشقة خالية.

عندما استعدت وعيي، غادرت الفراش بسرعة خوفًا من كل ما حدث في ذلك الكابوس الممتد، الوقت حوالي الخامسة عصرًا، في

الصمت وفي الجو كله مؤامرة ضدي، ذهب الصداع وخلف مكانه حزنًا وإرهاقًا وغباء، في الصالة تعاليق وأوراق ملونة وبالونات، ورقة صغيرة من لمياء تقول:

ذهبنا مع هاني جميعًا نشتري أشياء.. وأشياء.. كل سنة وأنت طيبة ياجميلة..

وحدي تحت التعاليق والأوراق الملونة جلست أنتظر الغروب.. وأدخن.

* * *

عادوا محملين بالهدايا، وكنت أنا قد اتخذت قراري، استعدت خطوط جسدي الخارجية، وقدرتي على الحركة بنشاط متعمد، والضحك بصوت عال من الحلق، علب صغيرة، وعلب كبيرة، أشياء خاصة وأشياء للحفلة، «نجية» في وسطهم قلقة سعيدة لأنني استعدت لياقتي وشخصي الصلب المتماسك، «هاني» يقف بعيدًا، يراقبهم وينتظر ردود أفعالي، يعاودني منظره في الفراش، يتصبب عرقًا رغم التكييف، يريد أن يصل إليّ فلا يستطيع، حتى الكلمات تتساقط من فمه نصف السكران، يلمع في عينيه نهم عاجز، أدفع كل شيء جانبًا وأستقبله ـ كما أفعل دائمًا أمام الأولاد ـ في ود ومعزة كأنه أحد أفراد العائلة.

بعد أن وضعت عليّ أبسط ملابسي وأكثرها حرية، شعرت أنني اندمجت تمامًا في الدور الذي ألعبه، ممثلة قديرة تؤدي دورًا أتقنته لعشرات الليالي، نادرًا ما يواتيني هذا الشعور كأنني ألعب، يتقاطر

على روحي شعور بالخفة والسعادة، قلت إنني ذاهبة أبحث عن «كوافير»، وأنني أريد أن أكون وحدي لبعض الوقت، من حق امرأة مثلي تحتفل بعيد ميلادها أن تكون وحدها لبعض الوقت، همست لـ«نجية» بأن توافيني بعد ساعتين في «الكازينو» القريب وحدها، وضعت في وداعي «لهاني» ما يترك لقاء الليلة محتملاً، أما «تامر» و«لمياء»، فطلبت منهما أن يفرغا من الترتيبات مبكرًا، وألا ينتظراني وأن يضعا هداياهما تحت المخدة لكي أفتحها بعد أن ينتصف الليل، أريد أن أتولى أنا القيادة، ما أسهل أن تدور العجلة، وتنزلق الأشياء عندما أمسك بعجلة القيادة، أن أكون فوق اللحظة لا تحتها.

* * *

دخلت مسرعة إلى زحام الكورنيش، لا بد أن منظري كان مضحكًا وأنا أمشي بهمة ونشاط قاصدة إلى لا مكان، وسط جموع المتلكئين الذين يتركون أجسادهم يدفعها لهم الآخرون، طوال حياتي أكره هذا التنطع، غالبًا ما أضبط نفسي أسير بسرعة أو أتحرك بسرعة أزيد من اللازم.

قطعت مسافة كبيرة حتى خف الزحام من حولي، ابتعدت عن الهلاوس والمخاوف التي كانت تسكنني طوال النهار ، تنتظم مع الخطوات الثابتة خطط للعمل والقراءة ووهم قديم بممارسة كتابة ما، لم تعد شعرًا أو أدبًا، شيء ما قريب من الاعتراف أو التفكير على الورق، ما زال نبض الحكم قائما يحمل معه شعورًا بالتحقق يجعل الدم يسري في العروق، تحقق لا أدري من حرمني منه، من نفاني خارج ذاتي الحقيقية التي تاهت تحت ركام الأحداث والوقائع، هل

صارت مضحكة ـ هي الأخرى ـ تلك الرغبة في الكتابة؟ عذبني طوال عمري ذلك الفن المقبور، أذكر تلك الأوراق المتناثرة والكراسات القديمة، أقلب فيها أحيانًا، ثم أخشاها وأخفيها، أقول:

ما فيها يهمني وحدي، ربما لو عشت مع عزيز كنت قرأت له سطورًا منها.

أقول: اتركي الأمر كما هو، ولا تفتحي بوابات الجنون لمن يمكن أن أتكلم الآن؟ من يسمعني؟ من حقا؟ كيف خلا العالم من حولي إلى هذا الحد؟ كل هذه الدوائر المغلقة التي يسير فيها البشر من الميلاد إلى الموت دون وصل أو تواصل، جزر مغلقة منعزلة في بحار من الزحام والضوضاء والطمع، يلتقي الناس مصادفة، ويفترقون حتمًا، ولا يتبادلون سوى المنافع والفواتير العاجلة والمؤجلة، الحديث بينهم لم يعد ودا وتواصلًا، أجهزة إرسال فقط، الجمل ناقصة نصفها: «كده، تقريبًا.. ويعني» كنت أحب الكلمات الواضحة الناصعة، أراها مكتوبة أو منطوقة، وأحب حركتها الداخلية، وهي تصل إلى معنى يقدمه إنسان إلى آخر كأنه هدية أو إشارة حب، الآن أسمع الحديث حولي: صرخات استغاثة، أو خبطات على أبواب مغلقة، إنهم حولي جميعًا يذيعون على موجة لا أستطيع التقاطها، أتمنى أحيانًا لو أنني صماء لم يعد هناك ما يسمع.

وقفت أمام فندق كبير، جزيرة هو الآخر، أو مدينة صغيرة معزولة، لا علاقه له بما حوله، به محلات وسينما ومدينة ملاه، طوابقه كثيرة جدًا تختفي في السماء، الحراس، الجرسونات في زيهم الموحد، وحركاتهم المصطنعة كأنهم مستوردون من بلد آخر، أكاد لا أذكر

لهم ملامح، سألت أحدهم عن مكان «الكوافير» فأشار بيده إلى نهاية الممر، حيث تحتشد كمية هائلة من نباتات الظل، اقتحمت «الوكر» الغريب المكيف الهواء اخترت لي شابًا بدا لي محايدًا، وأقل إزعاجًا من الآخرين آخر ما أريده الآن هو أحاديث الصالونات اللزجة، كسوت وجهي بقناع صامت بارد، وقلت في حسم: غسيل وتسريح فقط.. من فضلك بسرعة.

* * *

وجدت نجية تجلس وحدها على منضدة قريبة من البحر، كأنها أثر فرعوني قديم، صامتة هادئة، أمامها كوب شاي تشرب منه على مهل، جلست وبقينا صامتتين، نحن ـ معا ـ صنعنا هذه العلاقة التي لا علاقة لها بأي شيء حولنا، معها يصبح للصمت معنى مريح، لمحت شعري المغسول، ودارت بعينيها في وجهي، وكأنها عرفت ما أفكر فيه، وما اتخذت من قرارات بشأن الليلة، ما بيننا من فهم أمر نادر، لا يراودني أدنى إحساس بأنني أجلس مع دادة أو خادمة، تضحك وتقول: «علميني القراءة والكتابة، وأنا أدير بلد بحالها»، تفهم وتعرف أنها تفهم، دون غرور ولا فخر، بطريقة ما انتفى من حياتها الغرض والقصد واستغلال البشر، كأنها «مطلق» إنسان، مطلق محبة، أو بحر لا نهائي جميل، هي في نفس سني تقريبًا، تصغرني بعام واحد، كأن الجنس في حياتها والرجال ذكرى قديمة، أو وهم لم يوجد قط، طعنة واحدة دامية، وتعلمت، أغلقت كل الأبواب والنوافذ، عادت عذراء، بكرًا، راهبة بلا كنيسة أو دير، كائن متكامل، ذكر وأنثى في نفس الوقت، لكنها أنثى، امرأة جميلة ما زالت، رغم الملابس والجسد

المستدير، والوجه الخالي من كل شيء إلا نضارة الروح المرتاحة الطيبة، أعشق هذه المرأة، وأحمد الله على أنها في حياتي.

لم أحب أبدًا الطريقة التي تتحدث بها النساء عن تجاربهن الجنسية، ومع «نجية» لم أكن في حاجة أصلًا للحديث، كأنها تفهم وتعرف، تقف في مكان ما بين الغفران والتشجيع، لا تحب هاني حقًا ولا ترتاح كثيرًا إليه، تتركني أفعل ما أشاء، كأنني ابنتها، «العاقل الرشيد»، هذا ما يحيرني أكثر، لماذا مازلت أنا أبحث عن رجل؟ لماذا أريد أن أتعلق في رقبة رجل؟ ليس السؤال في الجنس نفسه ـ رغم أنه جميل ـ ما لا أفهمه هو ذلك الشعور بأن الوجود دون رجل وجود ناقص، فراغ ما يجب أن يملأه أحد، كأنني لا يمكن أن أفهم وحدي، لا يمكن أن آكل وأشرب وحدي، كأن الدنيا كلها متوقفة على ذلك الرجل المختار الذي أمارس وجودي الناقص معه.

نادرًا ما أتحدث معها عن علاقتي مع عزيز، عرفت مني تفاصيل التفاصيل في علاقتي مع زوجي منير، كلما أردت أن أتخلص من غصة حكيتها لها، الليلة حدثتها عن عزيز وعني طويلًا، وأنا أنظر إلى البحر الساكن من ورائها، كانت صامتة ذلك الصمت الذي يدفع إلى مزيد من البوح، فتحضر الذكرى صافية بلا شوائب، كنت كأنني أرثي حصانًا عربيًا أصيلًا لاح في أفق حياتي ورحل، مكسورًا وحيدًا، الرجل الذي أشبعني وأحبني وعلمني، وقبل الذروة التي أردنا أن نبلغها معًا تحول إلى طفل صغير حائر جائع، حاولت أن أعطيه صدري أن أضمه إليَّ، لكنه «تحول وعبر» تركني مبذولة، عطشى إلى

الأبد، تنعق في سمائي الغربان، لم أكن أبكيه أو أبكي على نفسي، فقط أتعجب كيف يخطر حتى في أحلامي أو كوابيسي أنه لم يوجد، أو أنه كان وهمًا بينما أنا لا أعيش إلا بما خلفه لي من جراح.

شربت مع «نجية» شايًا جميلًا طويلًا، لم أشربه من سنين، ثم قلت لها فجأة: سوف أسهر الليلة مع «هاني»، ولن أتأخر كثيرًا.. خذي «تاكسي» إلى البيت..

قالت: لا.. بل أسير.

* * *

أخذت«تاكسي» بسرعة إلى فندق «هاني» القديم، اقتحمت الممرات الهادئة إلى حيث يقع الشاليه المنعزل البعيد، التوقيت كان ملائمًا، كان قد دخل قبلي بدقائق، يخلع ملابسه ويستعد للحمام، المرأة التي دخلت الآن لم تكن هي المرأة التي كانت هنا بالأمس، المكان هو الآخر كان مختلفًا، لم يعد مسرحًا صغيرًا وزعت فيه الإضاءة لغرض فاحش، لكنه كان بيتي، مكان بحثت عنه وها أنذا أخيرًا أجده، تحركت بخفة عارية القدمين، دفعت به إلى الحمام، و«دعكت» له ظهره، وجدت له غيارًا نظيفًا، وقلت: إياك أن تشرب وحدك الليلة، سنشرب قليلًا معًا، كأننا «ناس متحضرون»، أطفأت الأنوار، بعد أن أعددت له مقعدًا، ولنا كأسين، وأشعلت شمعة، ناديت عليه بعد أن وضعت على جسدي جلبابًا من جلابيبه الملونة، وجاء.. رطبًا نديًا تفوح منه رائحة هادئة نظيفة، كان صامتًا مأخوذًا بما يجري حوله، الليلة كان له أنف جميل، وذقن مستديرة ناعمة، عيناه في ضوء الشمعة كانتا تحيطاني بقدر نادر من المحبة، والنداء والتشجيع، لم يكن صامتًا،

ولكن أنا التي كنت أتكلم، حدثته عن «الكوافير» الذي ذهبت إليه، وعن «نجية»، وعن المشوار الطويل الذي سرته على الكورنيش في الطريق إليه، هل كان يسمع حقًا، أم أنني توهمت ذلك؟

عندما اقتربت ساعاتنا معًا على الانتهاء، قال وهو يضمني إليه من جديد:

لم أشعر أبدًا كما شعرت الليلة بأن هناك امرأة تريدني بكل هذه الحرارة،

فقلت: يا أحمقي العزيز هل تظن أنك ـ وحدك ـ تريد.

* * *

نمت الليلة نومًا هادئًا، كأنني أرض عطشى نزلها ماء وفير، ضممت هدايا تامر ولمياء كطفلة تحتضن حذاء العيد، حاولت ألا أذكر الأرقام أو عدد السنين وقلت:

العمر الحقيقي هو ما تشعرين به، وضحكت من كل صناع الأكاذيب الجميلة، ورحت في نوم عميق، في العادة لا تكون أحلامي طويلة، ولا تفصيلية كهذا الحلم الذي شغل ليلتي هذه بأكملها، كنا في قاعة كبيرة، وهناك احتفال راقص وصاخب بشيء ما لا أعرفه، عدد الحاضرين كبير، وإن كان أغلبهم بلا ملامح، بين الحين والآخر ألمح وجهًا كأنني أعرفه، وعندما أتقدم نحوه أكتشف أنني مخطئة، في الحضور أيضا عدد من المشاهير، لمحت عبد الحليم حافظ، وأنيس منصور الذي وقفت أتحدث معه في شيء من كتاباته، كان يبدو ساحرًا، يتكلم كأنه يغني، وتمنيت أن أعرفه عن قرب، تمنيت لو أنني

أملك القدرة التي أجعله بها يحبني، ويصحبني معه في رحلاته، لم يكن يلتفت إلى محاولاتي، يتجاهلها ويشرح باستفاضة نظرية فلسفية لا أعرفها، وفجأة ظهر إلى جواره زوجي منير فكار في جلبابه نصف النظيف نصف القذر، أخذ يهمس في أذنه بكلمات لا أسمعها، لكن بالتأكيد كلمات بذيئة عني، كان منير يستولي مني على أنيس منصور شيئًا فشيئًا ، فوجدت نفسي أصيح وسط الحفل: هذا الرجل طلقني، طلقني منذ مدة طويلة، هو ليس زوجي كان يبدو على أنيس منصور أنه لا يصدقني، ينظر إليَّ كما لو كنت خدعته أو غررت به.

استيقظت من نومي، قلت:

لا بد أن أحكي هذا الحلم بالتفصيل «لنجية» وعاودت النوم الممتع من جديد.

* * *

انطبع هذا اليوم في ذاكرتي، لأنني استيقظت ممتلئة، طبيعية، يخامرني شعور بالتحقق، وبأن كل شيء على ما يرام، رغم أنهم يتحدثون كثيرًا عن أحزان عيد الميلاد، والكآبة التي تجتاح النساء أمثالي عندما يجدن أنفسهن مجبرات على تذكر كم بلغن من العمر وكنت أضحك بلا سبب مع لمياء وتامر، وهما معي في السرير، و«نجية» تدخل وتخرج صاخبة على غير العادة، قالت وهي تعد الحمام: «وجهك يا أختي زي الورد النهارده» فطبعت قبلة على جبهتها السمراء العريضة، بعد الحمام تناولنا ـ جميعًا ـ إفطارًا عائليًا بهيجًا لم يقطعه سوى جرس الباب الذي دق مبكرًا يعلن قدوم «هاني» يستأذن في مرح أن ينضم إلى الاحتفال العائلي، لم يغير قدومه من الأمر شيئًا، كان وجهه مرتاحًا هو الآخر،

زال ـ إلى حد كبير ـ ما يشعر به من توتر، وما يبعثه وجوده ـ معنا ـ من تصنع متبادل، تحولت الشقة المفروشة السخيفة إلى مكان أكثر إنسانية، لا أدري هل يرجع هذا إلى الأوراق الطفلية الملونة والتعاليق والبالونات، أم تلك الحرارة الإنسانية التي بعثها في المكان هؤلاء «الغجر السعداء»، كأنني كنت أشاهد لوحة ملونة لفنان يعرف معاني الألوان والخطوط لكل واحد مشروع وخطة لليوم، ولهم ـ ما عدا نجية وأنا ـ طلبات ورغبات، وعدتهم بأن أنفذها جميعًا، لأنني أعرف أن في اليوم في النهاية أربعا وعشرين ساعة فقط، ولكن يبدو أنه كان يومًا أطول من المعتاد.

* * *

وأنا راقدة في فراشي أقرأ بعد يوم طويل وشاق، دخلت «نجية» ملتاعة لتقول إن «تامر» سخن، وأنه يهذي، وجسده كله ينتفض، بعد لحظات كان الولد يفرغ ما في جوفه، ويتصبب عرقًا باردًا، ارتبكت خطواتنا، وتصادمنا، استدعت «لمياء» «هاني» الذي «لف» تامر في بطانية، وسرنا جميعًا إلى المستشفى القريب، هناك تأكدت أن الولد سيضيع، وأنني أقع في يد عدد من الأطباء الصغار، الهواة، نصف النائمين.. يتضاربون في الأقوال ولا يقدمون ولا يؤخرون، أخذت «تامر» منهم، ولم أعد أدري كيف يمكن أن أطير، أضمه إلى صدري وأنا أشعر به كتلة من نار حارقة تكوي فؤادي، في عناد مجنون قررت أن أركب أول أتوبيس إلى القاهرة، لم أسمع لأحد، ولم أستشر أحدًا، حاول «هاني» كل شيء، أن نعود إلى المستشفى ونطلب طبيبًا كبيرًا، أن نبحث عن مستشفى آخر، أن ننتظر طائرة آخر النهار.. أن..

وأن.. لكنني مندفعة أحمله، لا أشعر له بثقل وأدفعهم جميعًا إلى محطة الأتوبيس.. حصلنا على أربعة مقاعد بصعوبة، وهاني يكرر: السفر خطر على الولد، يامجنونة خطر، كلمة خطر دفعتني إلى البكاء، لم أسمع ما قاله هاني بعد ذلك من أنه سيلحق بنا، وأنه.. وأنه.. أصلحت نجية من وضع رأس تامر على فخذي، وراحت تغرق جبهته بثلج وماء بارد لا أدري من أين أتت به. هل أغفيت؟ أم أنني حقًا أطير، نام هو، أم أن الحمى هدأت لتهاجمه من جديد، كل ما كنته هباء، لا وجود إلا لهذا الجسد الساخن المضغوط معي في مقعد الأتوبيس الضيق، صحراء طويلة، وعدم، أخذت أحدق في وجهه، أراقب عينيه وتنفسه، عاودني البكاء الحارق عندما انحشر الأتوبيس وهو يدخل إلى القاهرة وسط مرور شارع الهرم الكثيف.

* * *

تعليق نهائي لا بد منه

أنا الدكتورة سناء فرج، وهذه بعض من أوراقي الشخصية فعلًا لا أعرف كيف وصلت ليد من نشرها، ولا لماذا رتبها هذا الترتيب، هي بعض أوراق تروي جانبًا تافهًا من جوانب حياتي المملة، بعضها له معنى، والبعض الآخر «مجرد رغي». المهم أنني عثرت على ورقة صغيرة أخرى لا أدري كيف لم يلتفت إليها ناشر هذه الأوراق أمامكم، ورقة صغيرة مكتوبة بخطي الذي يشبه «نكش الفراخ» مكتوب فيها: ثلاث مرات: «اصنع لنفسك فُلكًا من خشب فها أنا آتي.. وبعدي الطوفان».

عيــون البنفسج

مقدمـــة

«تامر فكار شاعر مصري من مواليد ١٩٧٥ بالسنة النهائية بكلية الآداب قسم فلسفة.

ولد في الخليج، ابن منير فكار أستاذ الجامعة السابق (رواية أطفال بلا دموع) والسيدة سناء فرج (رواية قمر على المستنقع).

هذه بعض من اعترافاته وصور من حياته، أضاف إليها الكاتب أشياء قليلة من عنده».

(١)

خرجت مسرعًا صباح الجمعة قبل الصلاة حتى لا تحاصرني في شقتي أحزان الوحدة الخانقة. شوارعي القديمة في القاهرة في فصل الخريف بها لمحة من جمال لم يقتله بعد تلوث البيئة. أهرب إليه لكنه يراوغني وتنتهي الشوارع دائمًا إلى غبار جاسم.

لو أن لي من العمر ألف سنة لما تحركت ثقيلًا هكذا، فاقدًا للحماس، هل هي آثار الليلة الماضية، والكيوف المختلطة والدخان الذي لا ينقطع، أم هو الثقل المعتاد والإرهاق الذي لا مبرر له الذي أشعر به كثيرًا فوق قلبي.

جسدي الآن لا حدود له، لا خطوط خارجية تفصل بيني وبين الناس، لا ملامح ولا هوية. في أية لحظة قد أتراكم أشلاء بشرية إلى جوار حائط يعبرني مارة مسرعين. صارت الشوارع مهدرة الطابع والمعنى.

فدخلت إلى مقهى «الاستقلال» القديم الواسع. كل يوم يزداد قذارة وإهمالًا. الزجاج الواسع العريض قذر، وتحت الكراسي والمناضد تراكمت الأوراق والطين وقذارة الزبائن العابرين.

رائحة الدخان العطن والخمر الرخيصة التي تقدم في الركن الداخلي مختلطة مع رائحة دورة المياه التي لا تصلح ولا تنظف أبدا هبت عليَّ وألقت بي على مقعد مجاور للباب.

جئت إلى هذا المقهى مرة وأنا صغير مع أبي وشربت مشروبا أحمر باردا في كوب كبير، كان مكانا جميلا مفتوحا والشمس تسقط على البلاط النظيف.. ابتسم الجرسون العجوز يومها في ود وحرارة.

إلى نفس هذا المقهى، رجعت طوال عمري، عندما صرت وحيدا في هذه المدينة المرعبة، رجعت إليه دائما كما تهرش في جرح قديم.

الآن.. فراغ موجع يعشش بين اللحظات.. قطع من «الدمينو» الأبيض المعدول والمقلوب. تخطف عيوني وقلبي، وتعود تتناثر أمامي من جديد.

جلست في المقهى منهكا وحيدا أنتظر في ـ لا مبالاة ـ كيف سيمضي بي النهار.

(٢)

أشتري كل بضعة أيام قلمًا جديدًا، أخيرا أهداني «حسين» قلما جديدا وقال: لا أظنك ستكتب به شيئا له قيمة، أتأمل هذا القلم الأسود كثيرا. تنتابني ـ أحيانا ـ رغبة في أن أسحقه مثل عقب سيجارة. في القلم خاصية سحرية غريبة: هو يستدعي حسين دائما للحضور.

عندما يحضر صديقي تنتابني تجاهه مشاعر مختلطة أكون فعلًا مشتاقا إليه، ولكن شيئا في وجوده يضايقني، كأنه يعطلني عن عمل مهم، أو لعلني أدعي ذلك. دقائق ويصبح اللقاء حميما جديدا ومفاجئا، خاصة إذا استطاع أن يلف لنا سيجارتين.

فجأة دخل المقهى. وانحط أمامي صامتا، فرد ساقيه الرفيعتين الطويلتين أمامه، وشد جسده على الكرسي فعرفت أنه كتب قصيدة جديدة.

كنت أشعر به متوترا إلى جواري وأنا أقرأ نفس الأبيات التي كتبت بنفس القلم على نفس الورق بذلك الخط الواضح والمعتنى به، لم أستطع أن أرفع إليه نظري بسرعة بعد أن فرغت من القصيدة.

كان يقرأ وجهي جيدًا، أحسست بأنه يعيد ترتيب نفس الكلمات القديمة وأن لا شيء حقيقي يتكون من ذلك «التفنيط» المستمر لأوراق الكوتشينة.

أنا متأكد أنه يعرف رأيي الحقيقي في قصائده، كما أظنه يعرف أيضا أنه صديقي وأنني أحبه.

استرد أوراق القصيدة في هدوء وأنا أقول الكلمات التي تقال عادة في هذه المواقف ووقع علينا صمت مريب زاد من كآبة المقهى ومن ثقل تلك الساعات الثقيلة التي تسبق العصر وتعقبه.

اقترح أن نقوم أو أن نبحث عن طعام واقترحت ألا نفعل شيئا. وبقينا جالسين نقلب في بعض المجلات ونتفرج على العابرين، رأيي الحقيقي الذي أخفيه عن حسين كاظم وحتى عن نفسي أن الشعر

أقدار مقدرة وأنه طرق ومسالك كتب علينا أن نسيرها ونقولها ونعيشها، الشعر حياة أخرى ألهمنا بها ووهبت لنا، أما كل الرطان والكلام الكبير عن المدارس والحداثة وما قبلها وما بعدها فهي مجموعة من حيل السحرة التي تبتلعها كلمة شعر حقيقية أو بيت وإيقاع صادق نصل إليه.

أخفي اعتقادي هذا حتى عن نفسي وأجد نفسي وسط مشاحنات حمقاء وحوارات مجهدة للروح حتى مع حسين إلا أنه الوحيد الذي أستطيع معه أن أضحك حتى تدمع عيناي من كل تلك النصوص والأشعار الفجة التي يكتبها غيرنا والتي تشبه نقوشا كاركاتورية عاجزة عن التعبير.

بعد أن دهمنا المساء ونحن ما زلنا على المقهى، انتهت «القعدة» نهاية حمقاء فقد مزق حسين قصيدته الجديدة إلى قطع صغيرة ووضعها في «الطقطوقة» ودون أن أشعر مد يده إليها بعود كبريت مشتعل.

عندما تصاعد اللهب من القصيدة جاء الجرسون مفزوعا، ولولا أنه يعرفنا لطردنا واتهمنا بتدبير عملية إرهابية في المقهى.

(٣)

عندما عدت مع أمي من الخليج وبدأت أذهب إلى «مدرسة المستقبل الخاصة» كنت طفلا عليلا متوحدا في الثامنة. لم أكن أعرف أحدا ولا أريد أن أعرف. أعيش داخل شرنقة جافة مؤلمة تسبب

لروحي ألما شديدا ونوبات متكررة من العدوانية والرغبة في الانتقام. كل وجوه الأولاد والبنات تبدو قبيحة مخيفة.

لم أكن أرغب في أن أقترب من أحد أو أحدق في وجه أحد، أسرع إلى شقة أمي في مصر الجديدة أشرب وجهها وجسدها صامتا، وأدبر مقالب مزعجة لأختي «لمياء» أحسن شيء أن أخلو إلى نفسي أراقب ظل أوراق نباتات الظل التي زحمت بها أمي الشقة.

كانوا يسخرون من لهجتي ومن نطقي لكلمات «الدجاج» و«السيارة» ومن عدم معرفتي بألعابهم ومصطلحاتهم التي كنت أكتشفها بفرح حقيقي واهتمام. لم يسمحوا لي بمكان بينهم وأنا لم أكن أريد. سادت أيامي الأولى هنا معهم عدوانية وإعجابا بشروري الصغيرة.

الدروس سخيفة جدا والحصص فارغة. أراقب، نادرا ما أشعر أن ما يحدث حولي حقيقي. يعطيني مرضي المتكرر فرصة لأن أتغيب كثيرا، وأن أكون مختلفا وغامضا حتى بالنسبة للمدرسين والمدرسات.

انتابت المدرسة كلها حمى غريبة، أعلم أن شخصية كبيرة سوف تزورنا بعد أيام، المديرة والمدرسون والأولاد وحتى المباني. الترتيبات تلغي الحصص وتوقف الدروس.. لا أفهم سر تلك الغرابة التي انتابت تصرفات الجميع وأخلاقهم. كان هناك شيء قبيح يجب إخفاؤه جيدا، شبكة من خيوط العنكبوت والعلاقات المتعلقة بدروس أو صفقات جانبية كان يتم استبدالها بأواني زرع، ونخل كالأقزام يرص على جوانب الممرات الرملية الملونة.

الأستاذ فوزي ناشد مدرس الرسم كان هو الكائن الوحيد الذي يثير اهتمامي وأحاول الاقتراب منه، كان رجلا جميلا قصيرا يمتلك هدوءا غريبا وابتسامة ساحرة.

في وسط هذه الحمى الجديدة التي انتابت المدرسة اختار هو مكانا بعيدا في آخر حديقة المدرسة، وأخرج منضدة كبيرة ليضعها في الشمس وملأها بعلب كبيرة من الألوان والأوراق والأقلام. جلس هناك مع بنتين كبيرتين يرسمون صورا ملونة لكي تعلق في المعرض الذي سيقام من أجل الزيارة.

وقفت بعيدا قريبًا حتى لاحظني وناداني بيده وابتسامته أن أقترب. أحببت الرجل ساعتها بلا حدود. لم يتكلم كثيرا لكنه وضع أمامي أوراقا وألوانا كثيرة، وابتعدت المدرسة وكأن المكان كله غرق في صمت.

لم أكن أعرف كيف أرسم حتى أمي كانت تقول لي دائما: «شوف لمياء ترسم حلو إزاي» كنت أسرق رسومها وأمزقها، وأرسم أنا وأمزق أوراقي أيضا، أما يومها فقد كان كل شيء جميلا. الورقة والألوان والخطوط والأشكال تضحك لي تكاد تتحرك، وقف إلى جواري وقال: ضع ما تشاء من الألوان، النقط الملونة على الورق تكلم بعضها، هل تسمعها؟ وضحك وضحكت وضحكت البنتان. أمضيت اليوم كله معهم.. أرسم وأرسم إلى الأبد. في آخر النهار علقنا لوحتين من رسمي قرب مدخل المدرسة. سألت المديرة عن من رسم، ووضعت المدرسة الفظيعة اسمي على واحدة. صحبني الأستاذ فوزي أنا وواحدة من البنات إلى البيت بعد أن أخبر أمي بالتليفون أننا سنتأخر لأنني أرسم لوحات للمعرض.

في الشارع تحدث إليَّ كثيرا، ووضع يده على كتفي لم يكن أطول مني كثيرا. أخبرني أنه يجهز أوراقه لأنه سيسافر إلى الخارج بعد أسابيع، على باب الشقة لم أكن أريده أن يذهب. تمنيت أن يدخل وأن يبقى معي إلى الأبد.

(٤)

شقة «شوقي عامر» كأنها ميدان التحرير أو غرفة الانتظار في عيادة طبيب مشهور. «شوقي عامر» كاتب ورسام وتاجر لوحات وآثار، هو صديق أبي وزميله الذي لم يعد يراه. الرجل والشقة كأنهما قلب القاهرة، بدونهما لا تكون. عندما لا يكون هناك في الحياة أمل ولا خرم إبرة. هنا أجد كل ما أريد. تعلمت هنا أشياء كثيرة وعشت أشياء كثيرة لم أكن أعرف أن لها وجودا. رسم شوقي قليلا ولكنه يعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة في اليوم. حتى وإن أغلقت كل النوافذ، فنافذة غرفة نومه مضاءة أبدا، وبعد كوب من الشاي تجده قادرا على أن يسمع أي خرافات تحملها على قلبك، بعد ساعة يأتي واحد غيرك ويستغرقك الحديث في أشياء أخرى، ثم تلتفت فلا تجده، عاد إلى فراشه ونام والنور مضاء. هنا منذ الأبد، في هذه الشقة القريبة من ميدان الأوبرا، في آخر قصر النيل. هو والشقة يتحديان كل المتغيرات. الانفتاح والسماسرة، الحداثة والديكورات الجديدة، التيك أواي. كلها أشياء لا تدخل من باب الشقة وإن دخلت فلا بد ستخرج بعد ساعة، هو يقاوم حتى الرمق الأخير دخول التليفزيون إلى شقته.

أغلب الوقت تجد الشقة مزدحمة بالناس، ولكنها المكان الوحيد الذي تستطيع أن تكون فيه وحيدا وحرا، كيف استطاع أن يحتفظ بشيء أصيل وكريم في وسط كل ما يحدث حوله؟ لا أدري. ربما لأن قلبه على أطراف أصابعه. تشعر به وأنت تسلم عليه، حيث يبقي يدك بين يديه، لفترة لا تطول ولا تقصر. وتتلقاك عيناه الطيبتان المندهشتان.

عنده هناك قابلت «كارين» وأحببتها. شيء كهذا لم يحدث لي من قبل. كل شيء في حياتي كان يسير بي إلى هذا الحب. بعد أيام قلت لها «رومانتيكي أنا أعلم.. ولكن أليس ما يحدث لنا غريبا» لم تكن تتكلم كثيرا تصيغ جملها في إنجليزية بسيطة.. تصل إلى روحي من أقرب الطرق، أمر بعيوني على جسدها كأنني ألمسها كأنني أطير.

في الأيام الأولى والحب ما زال مترددا كطائر يتقدم ويفر هاربا.. كان كل شيء يبدو مستحيلا جاءت من بولندا تزور ثلاثة أو أربعة بلاد في المنطقة، تعد رسالة في الجامعة بعنوان «الفنان يعمل» تكتب وتصور الكتاب والفنانين وهم يعملون، تكبرني بست سنوات، تعرف أشياء كثيرة، حضورها سحري آسر، وجودها معي بلا ثقل كأنها موجودة منذ القدم. أغرب شيء كان ذلك الشعاع البنفسجي في عينيها، لون لم أره من قبل، أظنه غير موجود اخترعت لها بيني وبين نفسي اسم «عيون النبفسج» أحببت الاسم وصرت أردده عليها، وأردده بيني وبين نفسي حتى أمتلئ به وأفيض. يغمرني صوت وضوء مستحيل يتكور جسدي دون ألم، ويغسلني حضورها برائحة العشب الأزرق.

يومها عاصف مليء بالنشاط. لم تكن تحب السهر كثيرا. الساعة معها طيبة والوقت صادق، رتب لها شوقي زيارة إلى الفيوم لتزور

فنانا هناك، وزيارة أخرى إلى «أخميم» لتعيش أياما مع نساج قديم، لم أسافر معها. قالت إنها لن تفعل شيئا لو كنت معها، أكتب لها كل ليلة وأكرر اسمها حتى تعود.

عندما قرأت لها قصيدة لي قالت: الحركة كل شيء، حتى الشعراء يجب أن يعبروا بالحركة في قصائدهم. لم أفهم بالضبط ماذا تعني. لكن عندما خلت حياتي منها ورجعت وحيدا عاريا كنت أبحث عن تلك الحركة التي تختبئ في قصائد الشعراء فلا أجدها، هي لم تأخذها معها، أكدت لي أنها موجودة. سأبقى العمر أبحث.

القبلة الأولى بيننا لحظة غريبة سجلتها في التاريخ والشعر والحلم والعمر، عند مدخل الشقة التي تسكن فيها مع زميلتها. نور بسيط ولا صوت. شعرت بلسانها يلامس قلبي، هل أغمضت عيني، أم أبقيتهما مفتوحتين، أكيد أنني رأيت الدنيا كلها، جبال عالية بعيدة وشمس حانية تغرب في آفاق لا أعرفها، قالت تدفعني بعيدا عن جسدها الذي يذوب:

غدا.. غدا.. يا حصاني الجميل.

(٥)

الفضيلة الوحيدة التي أظن أنني أمتلكها الآن هي فضيلة الصبر. ليس ذلك الصبر الطيب الذي يتحدثون عنه، ويوصي به المؤمنون. صبري محسوب ومخطط وبارد. صبرت وخططت لحياتي في برود قاتل

محترف. لكي أصبح في النهاية وحيدا. لا يقدر أحد أن يعتدي عليَّ. أو يقتحم تلك الشرنقة المؤلمة التي نسجتها لنفسي.

لا أقصد بأحد شرا. لكنني لا أبالي بأحد. هذا شري الصغير الذي لا يكبر أبدا. تضيع خطوطي الخارجية. أعود أستحضرها من جديد حتى لا يبتلعني الزحام الجهنمي الذي لا أفهمه. يعود ويستغرقني صراع حياتي الأبدي. أبقى عاريا بلا تحقق ولا إنجاز. أحيانا يضمني ركن، أشعر بإنسانيتي كبرق خاطف، وعندما ينطفئ أعود لا أبالي بشيء، هذا يوم آخر. دار وانقلب. أجهدني البقاء خارج «البيت». منذ سنوات، وشقتي في ميدان «لاظوغلي» صرت أطلق عليها «بيتي». أمي أعطتني هذه الشقة بلا شروط ولا توابع ولا تعقيدات. قالت: هذه شقة خالك القديمة.. وأنت حر. أول شيء حقيقي قديم له تاريخ دخل حياتي. أسرع إليها أحيانا كثيرة وأغلق الباب والنوافذ ولا أصدق أنني تامر منير فكار.

الليلة وقد انفض مبكرا سامر المقهى السخيف. أعود عبر شوارع جانبية معلومة، أكرر السير فيها كما يفعل الحمار. أمر على شعبي وجماهيري. ثلاثة.. أعرفهم، يعيشون دوما لصق الجدران. حولهم قطع قماش خلقة، وأوراق، وزجاجات بلاستيك فارغة. زهور سوداء. أسحلهم ورائي بالحبال أم أفر منهم رعبا.. لا أدري.

أعبر قلاع وزارة الداخلية والمباحث والأمن حتى أجدني تحت تمثال لاظوغلي نفسه. هو لا يفشل أبدا في أن يجعلني أبتسم وأنا أسمعه يصرخ بلهجته التركية في المارة والعابرين والعسكر الساهرين.

في مدخل العمارة وجدت الفرح منصوبا.. «تهاني» ابنة الأستاذ عباس العازف السابق في فرقة أم كلثوم تتزوج اليوم، ولا نقود كافية لفرح في فندق. انتهت المناقشات والمسامرات إلى فرح في البيت وزفة بالسيارات على كوبري أكتوبر. سمعت بعض المناقشات وحكى لي هو البعض الآخر. كان الرجل القديم، ذو التاريخ والأساطير، يذوب كل يوم في ظل زوجة تزداد كل يوم شراسة يرعيان ابنتهما «تهاني» العاطلة من كل المواهب.

المدخل الرخامي «الضيق» مفروش بنشارة خشب خضراء، وبقايا المدعوين حول الأستاذ عباس الذي يبدو أنه أسرف في الشراب يرقص مذبوحا من الألم، ويدفع ابنته في النهاية إلى داخل سيارة ملونة.

أحكمت إغلاق بيتي. مكتفيا بما يتسرب لي من ضوضاء وضوء. ليس في الشقة منذ مدة حياة. صالة وغرفة واسعة كئيبة يغطيها التراب.

أتركه يتراكم كأنه يغطي وجهي ولا أريد أن أمسحه. مع الإرهاق والضيق المتصاعد والدموع المتحجرة المستحيلة أفتقد «كارين» جدا. أفتقد ضوء عيونها. عيون البنفسج. يمتلئ جسدي بغيرة حمقاء. يصرخ لي وجهها الحبيب بنداءات غير مفهومة، ثم يغيب عني في أحراش بعيدة. عام وبعده عام. أحسبها يوما يوما.

غيابها حاضر وقاس. ونفسي شتات.

ألقي بنفسي على السرير. أخاف أن يكشف أحد عورتي. فراغي الذي أشعر به. أن يضطلع أحد على لا جدواي. أن أعلم ويعلم الناس أنني غير ضروري.

هناك دائما من يترصدني. يظهر لي فجأة أمامي دون ضوء ولا مرآة.

يختفي فجأة، ويظهر فجأة.. ويتركني وحيدا، أعاني استمرار الحياة.

(٦)

طالب في الجامعة ولست طالبا. أشرفهم بزيارتي يوما وأنسى أمرهم لشهور. حتى الامتحانات هناك أعذار وشهادات مرضية. ليس ورائي أحد. من يعرفون أبي من الأساتذة القدامى اقتصرت علاقتنا على ابتسامات باهتة نتبادلها عن بعد وسط الزحام.

الجامعة التي أسمع عنها أو أقرأ عنها في الكتب مكان غير موجود الآن.

الآن هي عربة أتوبيس مزدحمة. أو حي عشوائي من التي يتكلمون عنها في الجرائد. كنت في البداية أحضر محاضرات. وأبقى في المكتبة حتى الليل أقرأ وأراقب الدخول والخروج. وسط هذا الزحام تأكد لي أنني بلا جذور. معلق في الهواء بلا أب أو أم أتحدث عنهما. ليس لي طبقة ولا طموح هنا. دخلت مع الإخوة الإسلاميين وخرجت من نفس الباب الدوار الطارد الذي ينتهي حيث يبدأ. لي ديني الخاص وفهمي الذي لا يهتم به أحد. ربما أنا لا أعرف كيف أقوله. العدوان على حرية الآخر يزعجني ويدمرني بلا حدود. عدوان الضعفاء على بعض يثير الفزع.

تقريبا لم أخرج من سنوات الجامعة الثلاث ـ الأربع الآن ـ سوى بصديقي الشاعر حسين كاظم. يومها كان هناك تجمع أمام مبنى الإدارة لسبب سياسي لا أذكره. وجدت نفسي خارج دائرة الإسلاميين التي تحتل قلب التجمع.

استندت إلى سيارة وأخذت أراقب الوجوه الغاضبة المهتاجة.

وجدته إلى جواري مستندا إلى نفس السيارة يدخن سيجارته بنهم.

بدأ بيننا حديث ما زال ممتدا. كنت أحسدهم على الحماس والاهتمام وكان هو يسخر من الشعارات القادمة من المتاحف كما يقول. هو طالب في كلية الحقوق، ناصري، اشتراكي، كنت أغيظه وأقول:

أليست شعاراتك وأفكارك هي الأخرى صارت إلى متاحف التاريخ؟.

ربما لأنه فقير جدا، أو لأنه يعيش وسط أسرة مزدحمة بالإخوة والأخوات. في شقة ضيقة في إمبابة. ربما لأن أباه طاغية، ما زال يضربه حتى الآن. ربما لأنه لا يجد مكانا يتنفس فيه و يمارس عادته السرية. ربما لكل هذه الأسباب مجتمعة كنت أشعر عندما أراه غاضبا على كل شيء، يتهم الحكومة والبلد، ويسب الدين، أشعر أن كلامه دخان يتصاعد من قدر يغلي. كان مأزوما حادا. لا يرى لحياته مخرجا أو طريقا.

لأنه صار بعد فترة صديقا، فإنني لم أعد أشفق عليه أو أرثي لحاله. كنت أعيش معه دون أن أشعر بضيق حياته المرعب، حاولت دون ادعاء أو أوهام أن أحمل عنه شيئا.

يعود دائما للسياسة، ويتحدث بغضب عن الواقع والفقر. أرى من خلاله أشياء لم أكن أتصور أنها موجودة. واقعه غريب وقاس يخوض فيه ليل نهار. أحاديثه تدفعني إلى أن أشعر أنني في مكان غريب محاط فيه بناس لا أعرفهم يتدافعون في الجامعة والأتوبيس، والشوارع والأسواق.. ما الذي يجمع هذا الحشد حقيقة.

هل نحن ـ جميعا ـ مصريون.

أمارس معه رزالة أخرى فأقول مستفزا: أنا لم أعد أعرف ماذا يعني أن أكون مصريا؟ وأندفع أكثر قائلا: هل تستطيع أن تقدم لي تعريفا للوطن؟

أشعر به يتكسر تحت وقع كلامي المستفز، ويندفع يحدثني عن أشياء مكررة كثيرة ومختلطة: عن النيل والناس وقرى الصعيد، وعن فؤاد حداد الذي يعشقه، وسيد درويش الذي يردد أغانيه.

وحدي بعد أن ينصرف حسين أجدني مشتاقا إلى شارع يمتد وسط قرية مصرية قديمة. أو مقهى رطب في حارة هادئة ظليلة.

(٧)

«الموزّة» في المصطلح هي الفتاة التي تخلع ملابسها في أول لقاء.

المهندس باهر زميل المقهى كان زعيماً في قنص هذا النوع من البنات. يترك كل ما في يده ويتفرغ تماما للعملية حالما يبدي أحد الأصدقاء رغبة أو حتى يفكر في الموضوع.

هو وعربته الفولكس الصغيرة جاهزان دائما لتنفيذ العملية وتجهيز ما تقتضيه من مستلزمات بحماس مذهل.

مشكلة حسين أنه دائما مفلس. أما أنا فأكتفي غالبا بصفة المراقب. أشارك فقط عند الضرورة. باهر لم يتأخر عن بث الحماس في المشروع، وانطلقت الفولكس بنا نحن الثلاثة صاعدة إلى المقطم القديم.

تمت العملية. انضمت إلينا «غادة» بعد لحظات. شرطها الوحيد كان أن نصحبها إلى تاجر البرشام والمزاج في بطن «قايتباي» قبل أن نذهب إلى أي مكان.

لم أكن أرحب بهذه اللقاءات كثيرا في شقتي لأسبابي الخاصة وللجيران القدامى. أشعر الليلة بلا مبالاة، ورغبة بليدة في أن أشعر حولي ببعض الإثارة والعنف.

وكما توقعت تماما، ما إن سخن الشراب وارتفع الإيقاع، حتى وقع باهر مع حسين، كادت المسألة تقلب غم. أخذت حسين جانبا وجلسنا في الصالة أخذ يهذي في غضب. وعلى صدره جبال من الحزن. يكتم بصعوبة بكاء دفينا. ويتلظى بنار الإحباط والكبت والكرامة المهدرة.

تحامل حسين على نفسه وانصرف متعثرا في ساقيه الطويلتين. أخذ يؤكد لي أننا سنناقش المسألة «ضروري» غدا في المقهى.

صرت وحدي في الشقة مع زوج من الحيوانات الغائبة عن الوعي. لها عشرات الأيدي والسيقان. تصاعدت غصة في حلقي.

أخذت شرابي وخرجت إلى «البلكونة» الرفيعة التي تطل على الميدان. قلاع الحكومة ومبانيها مضاءة ضخمة، والميدان خالي من الحركة. حسبت «لاظوغلي» غادر قاعدته وذهب يقضي حاجته.

أغلقت الشيش عليهما، وما زال الفحيح والعواء يصلني حتى بعد أن استدرت ناحية بيوت وعمارات القاهرة القديمة. تحول الغبار فوقها إلى ستائر من دخان يتكسر عليها ضوء الليل الذاهب.

كبذرة مرة وسط ثمرة فاكهة. تعذبني فكرة الطهارة. أن أغتسل وأغتسل من الخارج ومن الداخل حتى أذوب. أن أهاجر. أن أسافر أن أتوحد وأعتزل إلى الأبد.

أريد أن أهرب من مصير الأرواح الملعونة الساقطة إلى الأبد في قاع الجحيم. كان «أبي» وسط هذه الأرواح يستصرخني. ولم أكن أستطيع له شيئا.

في الداخل: جمع «باهر» الغنائم وانصرف، تاركًا في الشقة فراغًا كثيفًا وقذرًا.

بين الصالة والبلكونة أنسج من آخر خيوط الليل فجرًا من البنفسج بلله الندى.

يتبرعم له قلب أحمر وقان. صبح كأنه قمر، سيطر على سماء وجودي الصامت.

لماذا تقهرني دائما جيوش الليل سريعا هكذا.

(٨)

محافظ الإسكندرية، هكذا يطلق عليّ أصدقائي عندما أبهرهم بمعارفي بحواري الإسكندرية وشوارعها الجميلة، والمطاعم والحانات التي ما زالت تعمل في قلب أحيائها القديمة، وئام نفسي تضعني فيه هذه المدينة العبقرية. لذلك أخذت قطار الثامنة صباحًا وغادرت القاهرة. أحشاؤها تكاد تنفجر. في القطار يهدأ الإرهاق والخوف والقلق قليلًا. أسلم نفسي لسرعة منتظمة ومكان بعيد عابر.

المدن المزدحمة التي أعبرها في لحظة، لا أكاد أتبين أسماءها تصيح بي أن الانتماء لأمر أو مكان أصبح ـ بالنسبة لي ـ شيئًا مستحيلًا.

الإسكندرية في حياتي كأنها «كارين» حبيبتي، عيون البنفسج، لها نفس اللون والضوء المستحيل. تنعش كياني ولا أشعر بثقل لها.

أمي هجرت الجميع، وسكنت هناك مع زوجها «هاني قبطان مليونير» آخر الزمن. أزور الإسكندرية ولا أراها، حتى بعد أن مات الرجل من جرعة هيروين زائدة.

لي في الإسكندرية البحر، شواطئه الخالية البعيدة في الشتاء، ودائرة الماء الأسطورية في قلب المدينة، كأنها هبطت من القمر، أمتلكها وأهبها من أشاء.

لي في الإسكندرية ـ أيضًا ـ «نجية» مربيتي السوداء. حضنها

وصدرها الباذخ المكان الوحيد الذي أدفن فيه وجهي وأغلق عيني فكأنني لم أتعذب أبدًا ولم أولد بعد.

عندما تم تدمير أسرتنا من الداخل وتفرقت شظايا اختفت نجية في الأدغال. بعد سنوات وجدتها ولم أفقدها أبدًا.

وجدتها في بيت داخل حواري «بحري». بيت رفيع أبيض محشور بين عمارات صغيرة بذيئة. كأن البيت بني عليها باليد وهي بداخله. تسكن في غرفة مسروقة بين الطوابق. لها نافذة واحدة طويلة، يدخل منها ضوء بنفسجي رقيق تستقبل دومًا نسيم البحر.

هي لا تكاد تخرج، لكنها ليست وحيدة، بقايا الأهل والجيران يرعونها عن بعد. أصابعها جميلة ووجهها يزداد مع العمر بهاء ورضا. ما زالت مليئة باسمة، تتحرك في ليونة قط جميل من السرير إلى الكنبة تحت النافذة الواحدة الطويلة.

شيخة بلا زحمة مريدين. أنا مريدها الوحيد، أزورها كثيرًا حاملًا بعض «الهريسة» وزيوتًا عطرية للمفاصل.

رغم أن أمي تعيش في الإسكندرية إلا أنني لا أفكر فيها هنا. لا أزورها إلا للضرورة. قطع من حياتي معها تحرق جلدي أحيانًا. وجه أعرفه يضيع مني في الزحام. قصيدة قديمة حاولت أن أكتبها ـ وما زلت أحاول ـ عن جيوش من النمل الصغير تفترس فراشة وهي بين الحياة والموت. أفكر في القصيدة عندما أفكر في أمي.

وقصيدة أخرى لا أعرف كيف أكتبها عن «عروسة ملونة» مختنقة داخل علبة من البلاستيك، شفافة ضيقة، لا هي تستطيع أن تتحرك

ولا يستطيع لمسها أحد. ما أبشع حياة النساء. وأنا أغادر نجية تسألني دوما وهي تسوي شعري بأصابعها الجميلة: هل تسأل عن أمك؟

خيول الليل المتأخر والفجر تفرحني.

وأصحاب عربات «الحنطور». أعرفهم رغم ندرتهم الآن. أعرف الأصحاء منهم والمرضى. وأعرف أصحابهم الطيبين والخبيثين والذين لم يعودوا يبالون بشيء. صادقتهم أنا و«كارين» ونحن ننزل في اللوكاندة الرخيصة القديمة التي تطل على البحيرة الأسطورية في ميدان الرمل.

كان القمر شتويًا رائعًا يصارع سحبًا قوية ملونة. قفزت من شرفة حجرتي إلى شرفتها. كانت سعيدة كطفل، وراقبنا الخيول والقمر. سألت هل يمكن أن تأخذ هذه البحيرة معها؟ كم يصبح الإنسان خفيفًا عندما يلقي في الهواء بكل ما يحمل من حزن ورثاء لنفسه.

في الصباح، كنا نسير على شاطئ البحر. نقبض بأيدينا على حوار قديم:

ـ أتحبني..؟

ـ أحبك..

(٩)

أختي «لمياء» ضاعت مني هي الأخرى. سقطت في البالوعة: تزوجت «ابن الباجوري» التاجر الأشهر. كأن أحدًا لا يتعلم.

يكررون في حمق نفس الأخطاء. ولا يتعلمون من رأس الذئب الطائر. يخطف أبصارهم بريق الذهب فلا يرون شيئًا. ويرتبطون بأوغاد يمتلكهم المال ولا يملكونه.

لمياء رفيقة الصبا. تدربت فيها على التعامل مع الآخر. قريبة جدًا مني. مختلفة تمامًا عني. ليس في الجسد فقط ولكن في الروح وفي التعبير عن النفس وفي الصلة بالعالم. حركتي في الدنيا إلى الخارج، أما هي فقد كانت تتحرك صوب عالم سري غامض في داخلها.

أنا دائمًا الطفل العليل صحيًا. أمرض مرة أو مرتين في الشهر. أما هي فقد كانت طول عمرها: هشة، قابلة للكسر، مدمنة محترفة للبكاء، جميلة وضعيفة كريشة سقطت من طائر غريب.

حفل زفافها الأسطوري كان المرة الأخيرة التي اجتمعت فيها عائلتنا غير المقدسة في مكان واحد: أبي وأمي والعروسة لمياء وأنا. الشرط الوحيد الذي أرسل إلى أبي مع دعوة الفرح، التي أرسلت باليد مع مخصوص إلى «بركة السبع» حيث يقيم كان: أن لا يصطحب معه زوجته الجاموسة الفلاحة كما تسميها أمي.

واحدة من الخدمات القاتلة التي قدمها «المجحوم» هاني قبطان زوج أمي البائد كانت إصراره وتدبيره لهذا الزواج المشئوم. لم تكن لمياء قد جاوزت الثانية والعشرين، ولم تكن قد أنهت دراستها في كلية التجارة بعد.

وافقت الغبية الحمقاء. طمعت وسالت إفرازاتها الأنثوية. سحبها ابن الباجوري إلى الجحيم الجديد المكيف الهواء. عندما وجدت وقتًا لكي تسألني رأيي قلت: أنت حرة.. اسألي «بريد الأهرام»!.

هل كنت أستطيع أن أقف في وجه حماس أمي المندفع الذي انتقل إليها هي وقادها إلى هذا المصير. قادتهما النقود الضخمة، مغمضتين، فاقدتي القدرة حتى على القلق أو التفكير أو التردد. كانت القوة أكبر مني ومن أي شيء. لم تكن تسحبهما وحدهما.. كانت تسحب البلد كله.

قلت لها أكثر من مرة وهي في غمرة الاستعدادات أن الرجل غبي وحيوان، وأنه رغم النقود التي تسيل منه: بخيل وأناني، وأنه لا يرى في الدنيا كلها شيئًا سوى نفسه. لكنها تدور في فلك أمي وفلك هاني قبطان. بينما أدخل أنا أكثر وأكثر إلى شرنقتي الجميلة المؤلمة، التي أصبحت مادة لحملة سخرية يقودها ضدي زوج أمي الوقح، مؤكدًا لهما وللجميع أنني فاقد للهمة وللطموح فاسد الرأي وأن حكاية الشعر ستحولني إلى صعلوك لا قيمة له. حفل زفاف أختي لمياء كان مؤلما جدا بالنسبة لي.

بكيت وأنا أراها فريدة رقيقة وجميلة، يسحبها زوجها وحرسه ورجاله المتشابهون لكي تذبح وتقطع وتعرض في «الفتارين». لا أحد يعترف بمسئوليته عما يحدث. نضحك، ونحتفل، ونزف العروس.

لا أحد يرى الجريمة أو يوقف السكين. أكبر جرائمي ارتكبتها في هذه الليلة، لأني لم أتقدم فوق رءوس الجميع وأنقذ أختي. ها أنا الآن غير قادر على إنقاذها.. أو حتى مواساتها. ضاعت لمياء ولا عزاء.

هي تسكن الآن شقة غبية واسعة مزدحمة بالأثاث والصالونات وترى النيل، تحيط بها غابة من العمارات العالية، فيها كل الشقق خالية، فارغة من الحياة ومن الناس. لو صرخت أختي حتى الصباح

لما أنقذها أحد. وحيدة مع الفأر الذي أنجبته وأحاطته هي وأبوه بمئات اللعب الباردة المستوردة.

لم يمض على زواجها شهور حتى تحولت لمياء إلى جهاز لإرسال الاستغاثات في كل الاتجاهات: أمي، هاني قبطان قبل أن يموت في فضيحته المفاجئة المكتومة. وأنا والمعارف الكبار، وحتى المسئولين في الدولة.

كان يفعل بها كل شيء من الضرب إلى الطرد في منتصف الليل حتى اصطحاب النساء إلى سريرها. يقدر دائمًا أن يكتم صراخها وأنفاسها، ليعيدها محظية شرعية منتهكة. يواصل تعذيبها في فنادق فاخرة وقرى سياحية. لم يعد أحد يسمع استغاثاتها فسكتت. صارت أخبارها معتادة كجرائد الصباح.

الآن تأكل نفسها ووقتها وتدفن نفسها في النوادي والمحلات والسيارات المكيفة التي تنقلها إلى لا مكان. عندما أمضي معها ساعتين وحدنا، ألاحظ كم أصبحت تكره جسدها الرقيق الذابل مذعورة تقذف بأشيائها القريبة ولا تكف عن التدخين.

يستفزها سكوتي واستظرافي، والقصص التي أستخرجها من طفولتنا، أو من الأماكن الغريبة التي أرتادها. تضيق بي وتحسدني. روحها خامدة. تزداد يومًا بعد يوم تشتتًا وغباء. أفشل في أن أثير حماسها لشيء ولا حتى لمشاكساتنا القديمة.. منذ سنوات لم أر لمياء تضحك.

قرب الظهر، وجدتها وحدها في الشقة الكبيرة تشرب قهوة وتبكي. زوجها سافر في داهية، ونجحت هي هذه المرة في أن تبقى هي وابنها

خارج الركب الذي يتحرك فيه دومًا. أخذت تحكي وتتكلم وتبكي كما تشاء. ثم خمدت مرهقة، عجوزا، وبعيدة لم أستطع أن أفعل لها شيئًا. تريد أن تسحبني كما يفعل الغريق إلى بحار من الفراغ والكآبة والصمت. تسحبني إلى بؤس قاتل. انتفضت منصرفًا وأنا أقول لها: لمياء.. الانتحار هو الحل. الانتحار أو الطلاق المستحيل.

(١٠)

كهف الدكتور منير فكار الذي يخرج منه الناس بالمجوهرات والذهب والفضة أغلق علينا جميعًا. لم يعد يخرج أو يدخل منه أحد. انتهت من حياتنا القصص والأساطير.

يعيش أبي قرب «بركة السبع» في بيت كبير مبني بالطوب الأحمر يطل على طريق نصف مرصوفة، له حديقة خلفية، يزرع فيها خضارًا وموالح، وإلى جوار البيت جراجات للمقطورات الثلاث وحظيرة كبيرة للدواجن والماشية. البيت دائمًا تحت الإنشاء.

هو وزوجته «سكينة» مشغولان دومًا حتى ما بعد صلاة العشاء بالحسابات وإدارة شئون السيارات والحظيرة والأنفار.

مات أبي تقريبًا ثلاث مرات إثر أزمات قلبية حادة، أجرى بعدها عملية كبيرة في القلب. تداخلت أزمات القلب مع أزمات شركات الاستثمار، وضاعت فلوس الخليج، كان هو يزداد قوة، بعد الجراحة الأخيرة، وزواجه وانتقاله النهائي إلى بركة السبع عاد بالنسبة لي شابا نضرًا في مقتبل العمر. إنه بعث رجلًا آخر غير الذي أعرفه.

في الحقيقة أنا لم أعرفه قط، كنت أسمع عنه فقط. من أمي ومن لمياء، ومن شوقي عامر وباقي الناس. أذكر طفولتي المبكرة معه، ولكنها صور عنيفة مختلطة. كبرت وسيرته في البيت موضوع خطر غامض، يثير دائمًا ردود فعل عنيفة ومختلطة. عندما دخل هاني قبطان حياتنا وتزوج أمي وغاب بها في بحاره القذرة، لم يعد أحد يذكر أبي، صار الموضوع محرمًا. أخذت أبي إلى داخلي كي أنفرد به. لم أكن أريد أن أحكم عليه أو أحاكمه. كنت أريد أن أجده. أن أتعرف عليه. أفتقده أحيانًا كثيرة. وأغضب منه وعليه ثم أعود فأراه وحيدًا مطرودًا يسير في شارع موحش بلا نهاية.

كيف يمكن أن يرى الإنسان كل ما يحدث.

استطعت أن أحصل على كتبه القديمة التي جمع فيها محاضراته عن الأدب العربي. جمعت من مجلات الخليج ومصر مقالاته. أحتفظ بها وأعيد ترتيبها وقراءتها. عثرت أيضًا على قصائد قديمة له نشرها في شبابه. في قلب هذه الأوراق كانت «رقصة الديك» قصته ومشروع المسرحية التي لم تكتمل، تحتل المركز. مشروع حياته. أعيد قراءته وأفك رموزه، وأعتقد أنه عمل عبقري لم يلتفت إليه أحد.

عندما أراه الآن وأحاول أن أذكر شيئًا عن كتاباته أو كتبه، أراه يبتسم ابتسامة شاحبة خجولة، ويشرد بعيدًا عني ويسرع كي يغير الموضوع. استقرت علاقتنا، ولم أعد أراه إلا عندما يستدعيني. يحرص في كل مرة نلتقي فيها على أن يعطيني كميات مختلفة ومحترمة من النقود يضعها في يدي أو جيبي صامتًا وكأنه يعتذر أو يسدد دينًا قديمًا.

عرفت أنه يحصل على نسخ من قصائدي القليلة التي نشرت ولكنه أبدًا لم يعلق عليها أو يذكرها. زوجته سكينة هي التي كانت تقول لي. تقول إنه يقرؤها لها أحيانًا.. وهي لا تفهم منها أي شيء.

وهو بعيد عني. أبني معه حوارات طويلة. وأتخيل حديثًا حميمًا طويلًا لا يحدث أبدًا. عندما نلتقي سرعان ما يتوتر الجو، غالبًا ما ينتهي بخلاف فأغادر غاضبًا أو يختفي هو في مكان من البيت بعيدًا متشاغلًا بشيء عارض.

وجدته يتشاجر مع واحد من سائقي المقطورات، وصوتهما يملأ الدنيا. كان يشتمه ويتهمه بإهمال جسيم، وبأنه لا يقدر النعمة التي يعيش فيها، وأنه يعض اليد التي تساعده وتفتح بيته. كان غاضبًا مهتاجًا كما لم أره من قبل. عندما حاولت التدخل أسكتني وكأنه يهش كلبًا غريبًا. غادرت البيت مسرعًا رغم محاولات سكينة استبقائي للصباح. تركت البيت ورائي يتصاعد حوله غبار كثيف تثيره الجرارات والمقطورات التي تقتحم الطرق الضيقة بين الحقول.

في بركة السبع كان الوقت متأخرًا والنداءات تتصاعد في ميدان المحطة: مصر.. مصر.. واحد مصر.

(١١)

ضوء عينيها البنفسجيتين تحت النجفة الخشبية القديمة في شقة شوقي عامر، يظل هو المدخل الملكي لعالمي الذي أعيشه مع كارين.

الكلمات التي كان يجب أن تقال لا تزال حارقة، وما قلته يبدو دومًا ناقصًا وليس كما ينبغي.

في الصالة الواسعة، حول المنضدة المربعة الكبيرة، راقبتها تتحدث مع شوقي عامر. كانت تقول له: إن تحول المشاعر الغائمة في مسائل الفن إلى كلمات محددة واضحة صعب، ولكنه ممتع مثل التعبير عن الحب.

ابتسم الرجل العجوز الجميل موافقًا، وقام ليتركنا وحدنا إلى المنضدة. سحر كارين يكمن في أن عندها دائمًا شيئًا حقيقيًا تقوله أو تفعله يجعلها دومًا مختلفة عمن حولها. في الشقة ثلاثة شبان يحومون حول كارين ويحاولون شد انتباهها، خاصة ذلك المخرج المسرحي الذي اسمه عبداللطيف، والذي تقول هي عنه إنه يذكرها بفرشاة الأسنان. أخذ يشرح لنا في وسط الصالة صعوبة تدريبات الممثل التي كان يدرسها في برلين: يسير على أربع، ثم يرقد على البلاط، ثم ينتفض فجأة قافزًا في الهواء حتى تحولت الصالة إلى سيرك سيريالي، حول شوقي عامر الذي ظل مشغولًا بتخطيطات مبدئية للوحة يعمل فيها منذ سنوات لا شيء يفاجئه أو يزعجه. يرفع عينيه المندهشتين ثم يعود إلى ما كان فيه.

يذكر لي تفاصيل قديمة عن علاقته بأبي، فكأنني أراهما صديقين معًا. وأرى قاهرة الخمسينيات والستينيات. هو اعتقل لسنوات مع الشيوعيين. وخرج بلا تشوهات في فكره أو روحه. أظن أن علاقته الطبيعية بالفن والرسم هي التي ما زالت تحميه من كل شيء. لا أشعر أبدًا أنه عجوز، فقط عاش أكثر وعرف أكثر.

هو من القلائل الذين لا يكرهون أبي. يحمل له مودة تسعه مع مئات غيره من الذين تحولوا إلى حالات نفسية أو رمم متنطعة، يقول إنه ذهب مرة وأمضى معه ليلة طيبة في بركة السبع.

ليست كلماته الطيبة النادرة عن أبي، ولا نعمة البنفسج التي هبطت عليّ في شقته هما ما يربطاني به. أهم شيء هو سخريته الصامتة التي تكشف المتناقضات حولك فترى الدنيا وقد سادها نوع من العري المثير الأخاذ.

وجودها معي تشهد ما ينكشف ويتبدى في هذه الشقة ـ قلب القاهرة ـ كان يجعل الأمر مثيرًا مهمًا، ويستحق المتابعة.

هي ليست معي. كانت معي، ولم يعد للقاهرة قلب.

نزلنا متأخرين، بعد أن انتهى عرض عبد اللطيف العبثي. باركنا عم شوقي بلطف حتى الباب. ساحرًا كان الطريق معها إلى الكورنيش والكوبري. في طريقنا إلى غرفتها في أول الزمالك. قالت لي إنها قد تركت نافذتها مضاءة.

(١٢)

الجحيم الجديد بدأ منذ رحلة مرسى مطروح المشئومة: أول دخول هاني قبطان الحقيقي إلى حياتنا. لف حول أمي حباله. ودمر عائلتنا غير المقدسة من الداخل، قامته الطويلة المشدودة بلا جلال ولا مهابة، ألقت بظلها الكريه على كل لحظات حياتي.

كراهية الكون والوجود والذوق واللون والقمصان والحركات والإشارات والمعاني، والكلمات ـ خاصة الكلمات ـ احتفظت بها كلها له. وجوده كان يجعل جراحي تنزف ورأسي ينفجر.

خطواته الحادة، صوت مفتاحه في باب الشقة كانا كافيين لكي يجعلا مني حيوانًا جريحًا مستفزًا تحت التهديد.

كرهت أمي لأنها أصبحت من أشيائه. أرى وأشم ريحه في جميع ما تفعل أو تقول. ولا حيلة لي ولا مهرب. هي لبست له ملابس جديدة وخلعتني وخلعت كل شيء.

وأنا أعاني من حمى طويلة، وكانا لم يتزوجا بعد، أفتح عيني فأراه واقفًا على رأسي طويلاً حتى السقف مصنوعا من رخام بارد يقع ظله على صدري ويكتم أنفاسي. لم يفارقني هذا الشعور أبدًا.

استولى على كل المواقع وأنا محاصر أتراجع دائمًا إلى شرنقتي وأترك له أمي وأختي والمكان الذي أعيش فيه. انتقلنا من شقتنا القديمة في مدينة نصر. تم ترحيلنا إلى بيته في الإسكندرية. تخلصت أمي من كل نباتات الظل التي كانت تعتني بها، وأشياء أخرى كثيرة كانت تحمل بصمات عيني داستها أقدام حادة. مزقتها سكاكين. في البيت المريب الذي لم أجد أبدًا فيه مكانًا لروحي، كانت الليالي تبدأ متأخرة. ومع تقدم الليل كان هاني قبطان يتحول فعلاً إلى رئيس عصابة. مخيف وجبان وقذر، يجمع كل خصائص مسلسلات التليفزيون المتخلفة في ليلة واحدة. يبعثر حوله أشلاء قذرة تستيقظ في وسطها أمي وتعيش لكي تعد له يومًا جديدًا وليلة جديدة. كان البيت يبقى مفتوحًا طوال النهار، يدخل ويخرج خدم وصبيان، ومهربون وصناديق مغلقة، وهاني نائم أو غير موجود ولكنه يدير كل شيء.

تعددت حالات أمي، وارتدت عشرات الوجوه. لكنها كانت قد تخلصت إلى الأبد من الوجه الوحيد الذي أحبه وأعرفه. ومحاولاتها للتقرب مني كانت تجعلني أكرهها أكثر.

انشغلت دومًا بتدبير مؤامرات فاشلة لفضحه وضبطه متلبسًا عاريًا مفضوحًا، من دون ذلك القناع الذي يداري به كل حياته.

كل الوعود لم تكن تنفذ إلا برضا وموافقة منه. تأخذ هي أمامي موقف الزوجة التي لا تكسر لزوجها كلمة. الثانوية العامة، مرضي المتكرر، التحاليل وزيارات الأطباء، عشرات الحيل والأكاذيب كانت الخيوط التي أخذت أنسج منها مؤامرتي للحصول على شقة لاظوغلي التي أخذتها أمي من خالي الذي مات في كندا.

لم يوافق هو أبدًا وكان إعلانًا للقطيعة وإخلاء المسئولية وتحميلها هي للمرة الأولى وحدها كل العواقب.

موافقة مع اللعنات خرجت بعدها من جنته وجحيمه، لم أنظر أبدًا خلفي. اعتبرته ميلادًا جديدًا وحاولت حفره وتسجيله على كل المقاعد والمناضد والجدران.

لم أترك كراهيته تذوب في حياتي. هي كافية لكي تفسد بحار العالم. أبقيتها في صناديق مغلقة. لم أسحبها ورائي. المهم أن أعرف كيف أوقف كل شعور بالرثاء على نفسي. ألا أقابل الحياة بشعور امرأة مغتصبة.

ولكن في القاهرة كان جحيم آخر جديد.

(١٣)

مغامرة وخيمة العواقب كانت زيارتي للقرية التي ولد بها أبي كفر شوق في المنيا «رقصة الديك» ومخطوط المسرحية التي لم يكملها أبي، حركت كل هذه الكوارث التي تساقطت على رأسي.

ملكتني صور ذلك الكهف الذي يفتحه دم ديك بلدي يذبح أمامه، والهياكل العظمية للطامعين الذين دخلوا لكي يحصلوا على الذهب والمجوهرات فماتوا ومات غيرهم مئات: والمغربي البدوي الرحال يدور في القرى مطلقًا بخورًا ومغنيًا أغاني لا يفهمها أحد. ومحطة كفر شوق القديمة ورجب بائع «الدوم» الذي أشعل الحريق وأطلق الجنون وطاردته القرية.

حاولت أن أدخل برأسي إلى عالم هذه القصة وليتني ما فعلت. اتفقت أنا وصديقي حسين كاظم أن نسافر وراء هذا الحلم الملعون. كان سوء اختيار مني للرفيق وللطريق معًا. كأنني حدقت في بئر فارغة بلا قرار.

كانت مواجهتي الحقيقة الأولى لفكرة أن أبحث لي عن وطن. مسقط رأسي في الخليج. ولكن هنا الوطن. أليس كذلك؟ استحوذت عليّ محاولة فهم هذه البديهة، كما استحوذت عليّ صور مبعثرة من قصة أبي وحياته. أنكرني هناك المكان والناس. لم أتعرف على أحد ولم يعرفني أحد. كنت أخوض في زحام من الفقر والتخلف. يصيبني

مرة بالقرف ومرة بالفزع، يتركني مشدوهًا أقرب إلى الأبله، أغلق خلفي تمامًا طريق الفرار. بعضهم يقول «آه.. ابن الدكتور منير.. الله يسامحه بقه» وبعضهم لا يقف حتى ليدلني على الطريق. لا أحمل معي سوى نظرات الاستنكار والريبة.

طابور الناس والميكروباصات الممتد من المركز إلى القرية، خليط غريب من الصعايدة ولابسي الجينز والملتحين ولابسي الملابس الباكستانية، وجحافل من التلاميذ الصغار والفتيات المحجبات. الجميع منهمكون وسط الغبار لكي يلحقوا بشيء لا أعرفه.

لم يكن حسين من الناحية المادية أحسن حالًا من هؤلاء. بل لقد بدا وكأن كثيرًا منهم يخافون أن يظهر عليهم ما يملكون من نقود. مع ذلك كان حسين يعاملهم بتعال قاهري بغيض. كأنه سائح خايب رذيل كرر الإشارة إلى صور ومناظر موجعة أليمة، وكأنه عثر على ضالته وما يبتغيه. يستعرض عليهم ليس تفوقه العقلي فقط بل والطبقي أيضًا. يريد أن يقول دومًا: أنا أحسن منكم.

كان هذا أكثر مما أحتمل. فوق ارتباكي وضياعي الذي أحسست به وأنا أتلمس في ظلام تام أطلال أحلام أبي، ومهابط الوحي والإلهام الذي كان ينزل عليه.

لم أجد رسمًا واحدًا من الرسوم التي اشتعلت في خيالي المحموم. حتى الشجرة القديمة التي حكى عنها على رصيف المحطة. لم أجد لا شجرة.. ولا رصيفًا أطبقت على المحطة من الجانبين ظهور بيوت بنيت على عجل بالطوب الأحمر.

ليس في القرية كلها ولا إنسان يؤوينا لليلة واحدة. نوافذ وأبواب مغلقة. وعواقب وخيمة لو واصلت الطرق والسؤال. لا وقت ولا رغبة عند أحد في أن يتكلم أو يتذكر.

يضيع مني الشيء مرتين.. الحياة ـ وحتى الشعر ـ قبض الريح. خارج أنا وحسين من القرية ليلًا عبر مستنقع يقود إلى الطريق السريع.

في غرفة عالية السقف، عارية تقريبًا من الأثاث، أمضينا ليلة ثقيلة على النفس.

نام حسين لكن ـ أنا ـ لم أنم.

(١٤)

عطشان دومًا ـ لحبها الصافي ـ لا أريد أن أفارقها أو أتركها تنشغل عني بشيء آخر. أجد معها حلًا لوجودي. أشرب ضوء عيونها البنفسجي الذي يبدل كل ما حولي ويطلق روحي. أتعلم منها وأسمع عن شعراء ورسامين وموسيقيين لم أسمع بهم. وإن سمعت فلم أكن أعرف ما يفعلون وهي تحبني أدخلت هؤلاء إلى حياتي. كأنني أعرفهم أو كأنني واحد منهم. البيت الخشبي القديم المحشور وسط العمارات الجديدة على الكورنيش. تقول «إنه يذكرها بديكور مسرحية بيت الأشباح»، أوافق على كلامها فتقول:

هل تعرف كل شيء.. يا حصاني الجميل؟

مسافات طويلة بيننا.. واقع ولغة ودين. كاثوليكية وأنا مسلم. أحبت المصحف المرتل. سمعته ساعات طويلة معي. سمعت أم كلثوم، وسمعت موسيقى «باخ» معها حتى أدمنتها. غالبًا ما كانت تكتب كل ليلة خطابًا لوالدتها بالبولندية. أسمع منها موسيقى غريبة تحرك الروح.

لم يكن هناك حلم ولا واقع.. لا شيء على الإطلاق مستحيل. كنت لا أرى ما يمنع من أن يتم زواجنا فورًا، نتزوج في الشهر العقاري وننتقل معًا إلى شقة لاظوغلي. النقود التي أحتاجها لن تزيد. هذان النذلان. أبي وأمي يملكان أطنانًا منها. ثم إن لكارين طريقة غريبة في التعامل مع النقود. تصرف، ونقودها لا تنقص.

يمتعها اندفاعي هذا للزواج، تتأمله وتثيره وتبقي القرار معلقًا كأنها تملك كل شيء في يديها.

في الصيف طلبت في نهار حار أن تزور المقابر التي تمر بها كثيرًا وهي في السيارة. لم تفلح الزهور والخوص المتناثر في أن تقاوم في روحي ذلك الفناء الترابي المخيف الذي أخذنا نخوض فيه. السيدات البدينات اللاتي يحملن ألوانًا من الطعام ويتحركن به فوق الموت الأصفر، يدفعن الغثيان إلى مداه، كانت تحتمل الحرارة والتراب والموت الأجرد في صلابة مثيرة للدهشة. محدقة في صمت، تكاد تكتم أنفاسها. حدقت أنا الآخر في الأشباح التي تراقصت على ضوء الشمعة التي أشعلتها هي ليلًا، وأخذت تحكي عن قصص «المسلماني» الذين كانوا يحكون لها عنه وهي طفلة: «المسلماني» الذي

يقفز من نوافذ البيوت ليخطف الأطفال، أو يذبحهم. سكنت المربعات والمستطيلات التي نمت من الصمت في الليل أشباح غريبة بيننا.

عندما نامت وسكنت إلى صدري كنت أحس أن أمامي طرقًا وأسفارًا تحملني إلى آفاق غريبة وحدي.

(١٥)

الخدم الذين عرفتهم في الخليج كانوا أغرابًا من سيريلانكا أو الفلبين، ألوان مختلفة، كأنهم بشر ركبوا من مواد أخرى، أما «حلمي» فقد كان ابن الخادم الذي اخترعته أمي لكي ينظف الشقة مرتين في الأسبوع، في عهود ما قبل داداة نجية وقبل جحيم هاني قبطان.

«حلمي» مرجعي وملاذي في هذا العالم الجديد الذي قذفوني إليه. أعرف أن سن الثامنة والتاسعة سن الاكتشاف والدهشة، لكنني كنت أكتشف الأشياء مرتين، وأفقدها مرتين، عمليات تحويل عملات غريبة تدور دائمًا في ذهني. حضور وغياب. لا أعرف ما هو المكان الحقيقي. ولا ما هو الشيء الذي لن أراه بعد ذلك أبدًا. علاقتي مع «حلمي» كانت أول شيء حقيقي أصنعه بنفسي وشروطي. الاثنين.. والخميس عندما يأتي مع أبيه لتنظيف الشقة كانا اليومين اللذين أعيش من أجلهما طوال الأسبوع. أعد البرامج وأرتب المفاجآت، وغالبًا ما أتمارض حتى لا أذهب إلى المدرسة وأمضي النهار كله معه.

خليط فريد من الحب والامتلاك والخوف والرغبة في المجاهل والمعارف الواسعة والآفاق الجديدة التي تفتحها علاقتي به.

هو في نفس سني أو أصغر قليلًا. وجوده في الدنيا ومجيئه مع أبيه كان الشيء الوحيد الذي يجعلني أرى الأشياء تترابط وتصبح حقيقية. كنت أجعله يفعل أي شيء ويتحمل أي شيء. أبقيه دائمًا مندهشًا من أشيائي وألاعيبي وقصصي الحقيقية والمخترعة التي أنسجها له على هواي.

شيء وحيد كان يملكه ولا أملكه أنا. كان موجودًا طبيعيًا وضروريًا له مبرر، بينما أنا زجاجي. أنا بكل ما أملكه في غرفتي المزدحمة باللعب والأثاث المختبئ في عمق شقة مدينة نصر المزدحمة بنباتات الظل، كنت زائدًا على الحاجة، لست ضروريًا ولا مبرر لي، الشيء الوحيد الذي يشغل ذهني غير «حلمي» كان التصوير بالكاميرات الغالية الجديدة التي أطلبها من أمي بلا حدود.

إدمان مبكر، سلوك استحوذ على روحي ومتعة سرية خاصة: أن ألتقط صورًا ثابتة من وراء عدسة، أمسك باللحظة الوهمية الخاطفة المدهشة. المسألة أنني لم أكن أحب أن يرى أحد صوري، لا أمي ولا لمياء، ولا أحد من الزوار القلائل، لماذا ـ وأنا لا أحبهم ـ أجعلهم يقتحمون عليَّ لحظاتي الخاصة التي رأيتها وحدي.

«حلمي» ـ فقط ـ كنت أتركه يقلب في كل الصور ويفعل بها ما يشاء ويسألني عنها.. أغلب الصور خالية من الوجوه أو الأشخاص، كلها لأوراق النباتات أو حديد الشباك، أو أرجل المقاعد، أو أدوات المائدة. دهشته بالصور، وتأمله لها سعادة هائلة لي. أحيانًا يخترع لها أسماء ويرى فيها كائنات أو يرتبها ليصنع منها حكاية.

لم يكن يذهب إلى المدرسة لأنه مصاب بالصرع، تصيبه نوبات متباعدة ويقتضي مصاريف كثيرة يتحملها أبوه من أجل أمل غامض في الشفاء. للرجل من أجل ذلك عدد هائل من الأعمال وعالم مشغول واسع من العلاقات والبيوت التي يذهب إليها، ومعه دائمًا «حلمي» هو عند بعض الناس أعجوبة أو طفل معجزة. له وجه هادئ جميل، عينان تشعان ذكاء صامتًا وحزنًا بعيدًا، أهله رغم الفقر يعتنون به جدًا، ويبقونه دائمًا نظيفًا، النوبات ليست شيئًا خطيرًا. يضغط بقوة على الحائط خلفه، ويفرك يديه في بعضهما البعض بشدة، ويتصاعد ألم يغير ملامح الوجه الجميل ثم يفقد وعيه ويسقط على الأرض.

عودته من النوبة كانت شيئًا جميلًا، كأنه الصباح يعود من جديد. حياة حلمي حية واسعة مليئة. كأنه يعيش في قلب خلية نحل أو في مدينة بناها النمل تحت الأرض. بادلنا أنا وهو حياتي بحياته، أحب حياته جدًا، ويومه المزدحم، أحب ـ أيضًا ـ أن يبقى معي طوال الوقت يحكي ويتفرج على الصور. عندما أكون أنا مريضًا ويبقى هو معي في الغرفة كنت أشعر بدفء وضوء غريبين يملآن المكان، وعندما يذهب كانت الغرفة تعود باردة كأنها قبر من رخام.

لم أعرف أبدًا من دبر المؤامرة الكبرى ضدي، ولا من بدأها، الذي أعرفه أني قاومت وأضربت واعتصمت وامتنعت عن الطعام، لكي لا تفصل أمي بيننا وتمنع حلمي ووالده من المجيء.

ذبحت أمي، في قسوة باردة وبلا مبرر، أيامي، لم أمسك بعدها كاميرا، ووضعت الصور في صندوق أسحبه. دائمًا ورائي. حرمتني أمي من العالم الواحد الوحيد الذي أحببته.

(١٦)

نظهر متلازمين أنا وحسين كاظم في أغلب الندوات الأدبية، أشعر أن وجودنا معًا يثير أسئلة بلا إجابات، فلا أحد يعرفنا، ولا أحد يعرف إلى من ننتمي ولا مع أي الشيوخ نعمل. نشرنا قصائد قليلة جدًا ولسنا بأي مقياس كائنات يلتفت لها. نتخذ لأنفسنا موقعًا استراتيجيًا نراقب منه المقدمة والمؤخرة ونختلط بالجمهور العادي الذي جاء بالمصادفة أو لتمضية الوقت. مع هؤلاء يكون الجو أفضل من الاختلاط بالمجموعة المألوفة دائمة الحضور التي تتحرك حول المنصة والمقاعد الأمامية لقضاء مصالح صغيرة أو تصفية حسابات وهمية.

نادرًا ما يقال شيء حقيقي، عرض للمعارف المكررة، واستعراض ماهر أو سخيف للنفس. نادرًا ما يقنعني أحدهم أو يفاجئني بتفكير خاص أو اهتمام صادق أو اقتناع بما يقوله أو يتحدث عنه. نتبادل أحاديث جانبية متقطعة أو نقول نكتًا قديمة لنسأل بعد فترة: «هي إيه الحكاية!».

الليالي تدبر نفسها.. في كل مساء يولد شيطان جديد يتحكم في الليل ويقوده. شياطين صغيرة تنتجها حالة الضياع الذي ألقاه في كل طرقات حياتي. تمر أيام طويلة وليال دون أن أشعر بوميض الوجود الحقيقي أو تعتري جسدي رجفة الحياة.

بعد أن تنتهي الندوة يخرج الجمهور العادي متثاقلًا يحمل خيبة الأمل، بينما تنشط جماعات الصفوف الأولى لمواصلة مبارزات السيوف الخشبية في أي مكان.

يدفعني لكي أظل أتردد على هذه الأماكن جوع حقيقي لأن أعثر على شيء. قصيدة ربما، أو مفتاح الحياة.. وغالبًا ما تنتهي بي الليالي وحيدًا غريبًا على طاولة ممدودة مزدحمة بكلمات كاذبة، وأحلام داستها أقدام. اندفعت في البداية أحضر كل الندوات التي أسمع عنها هنا وهناك كأنني أبحث عن أبي أو بعض منه. عرفني واحد أو اثنان من كبار السن ليسألا عنه. بسؤال عابر وانتهى الأمر. قابلت بعض تلاميذه الذين لا يذكرون له شيئًا. الرأي السائد أن الذين سافروا إلى الخليج خونة لا يحق لهم أن يعودوا إلى الساحة. فرصة للتصنيف والحكم والإدانة وممارسة كراهية مكتومة ورغبة دائمة في ممارسة الجرح والتشريح. الأستاذ الكبير اكتفى بنا نحن الاثنين، حسين وأنا، بعد أن فشل في أن يحصل في ليلته على مستمعين أكثر أهمية منا. ذهبنا معه ونحن نحسب حساب الكوارث التي يجلبها إسرافه في الشراب. والصداع الأبدي الذي يصيبنا إذا بدأ الحديث عن نضاله السياسي وعن الثمن الذي دفعه من أجل «القضية».

على مائدة منعزلة في محل تسكنه رائحة قديمة استعاد الرجل شبابه وأخذ يصب في جوفه متسارعًا شرابه القوي، اختار مدخلًا جديدًا وأخذ يقول إنه لا يفهم سر انفصال المثقفين، وعزلتهم عما يتحقق، عن الإنجاز الذي يتم. أخذ يكرر أن كل شيء نسبي.. الديموقراطية نسبية والعدل نسبي، وأن المشاركة في الفعل هي التي تعطي حق النقد أو الاعتراض.

كنا قد سمعنا أنه مرشح لرئاسة تحرير مجلة جديدة. رجع بكرسيه إلى الخلف وقال: أنت مثلاً موهوب.. لماذا تكتفي بالفرجة.. لماذا لا تضع نفسك في قلب عمل ثقافي؟ لماذا لا تشارك؟ أم إنك تريد الهرب مثل أبيك!

يبدو أن الشراب القوي الرخيص قد ضخم كلمة الهرب في رأسي. رأيتها معنى بشعًا كريهًا. لم أرغب في أن أراها تلتصق بأبي. حاول أبي قدر ما استطاع. هو الهارب ذلك الفأر اللامع، هارب إلى دهاليز السلطة ومكاتب المسئولين هارب إلى محفظته التافهة وملابسه السابقة التجهيز.

قلت له في كلام أثقله الغضب والشراب إنه هو الهارب في كل ما يفعل أو يكتب أو يقول. وإنه لا يرى شيئًا ولا يدافع عن شيء، وإن كان يتصور أن ما يفعله أو يكتبه هو مشاركة في خدمة ثقافية تقدم للناس فهو واهم؛ لأن ما يفعله حقيقة هو استرزاق بذيء من مال ناس في حاجة إلى رغيف ومدرسة نظيفة وأن الديموقراطية النسبية التي يتحدث عنها ليست سوى ستار يختفي وراءه النهابون أمثاله.

في لحظة اكتشفت أن الأستاذ الكبير جبان، وأن غضبي الذي انفجر أرعبه، وأنه مستعد للموافقة معي إلى حد البكاء. لم يبق على المائدة سوى الفتات ككل ليلة، واستطرد الأستاذ في تراجعه يستعمل كل المصطلحات القتالية من الساحة حتى المواجهة والصمود.

كوميديا هذه الألفاظ كانت تثير ضحكي أنا وحسين. أراهم جميعًا جيوشًا من النمل اجتمعوا حول جلد ثعبان فارغ، الثعبان في الحقيقة خلع جلده وتركه، وراح هو إلى مكان آخر. هم مشغولون

بالجلد الفارغ الملون. المصيبة الماثلة فوق رأسي دومًا أن كلا منهم يعيش حياته وحده. متصورًا أنه كون وحده أو جزيرة. عندما يقتنص «لقمة صغيرة» يرفع رايات النصر ويتوقع أن يشارك كل الناس في الاحتفال.

كان على حسين أن يسرع لكي يندس في الميكروباص الذاهب إلى إمبابة حاسبًا حساب رائحة الخمر في فمه. حاسبًا حساب الدخول إلى عرين أبيه الضيق. بعد أن ضمن في جيبه ثمن السجائر وساعات الصباح.

بقيت وحدي في الشوارع مع جلد الثعبان الفارغ. مررت على الشحاذين الثلاثة المتكومين مع نفاياتهم في شوارع باب اللوق الجانبية. أطبق عليهم الليل. أما بقية الناس فقد دخلوا إلى البيوت وأغلقوا أبواب الشقق والنوافذ. يبقى الحال ـ دومًا ـ على ما هو عليه.

(١٧)

اليوم الذي عقدنا فيه الزواج في الشهر العقاري حار جدًا. كارين ترتدي «تاييرا» إنجليزيًا فاتحًا وبسيطًا. رغم الزحام وضيق الغرفة وسخافة الإجراءات، فقد ساعدنا المحامي الماهر الذي دلنا عليه شوقي عامر. كانت كارين قد سافرت إلى أمها لتأخذ موافقتها وعادت. احتفلت بيني وبين نفسي كأنني ملكت نجوم السماء أنجزت هي في سرعة وبساطة، وبتكاليف قليلة، ترتيب شقة لاظوغلي

وإعدادها للحياة. لم تمض أيام حتى صارت مكانًا مختلفًا نظيفًا خارج فوضى العمارة والمكان. لم تكن سهرة الليلة ظريفة، فقد اجتمع ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء حول زجاجات خمرة كثيرة وطعام غريب جلبوه معهم.

أغلب أحاديثهم تدور باللغة العربية، وأكثر الإشارات والنكت جنسية ولا تترجم. بعد ساعة اشتكت لي كارين من أن الدخان كثير، وأن أصواتهم العالية تشبه السعال، وآثرت أن تأخذ صداعها الخفيف إلى غرفتها وتحاول أن تنام.

غيرت هي تفاصيل العمل في رسالتها «الفنان يعمل» واكتفت بالفنانين والكتاب المصريين حتى تبقى معي في مصر كل الوقت المتاح. ترتيب الحياة وتخطيطها الذي ناقشناه مئات المرات، كان يقتضي أن أنهي الدراسة في الجامعة، وأنتظم في العمل والكتابة يوميًا في استمرارية مقدسة، تلم الوقت المشتت والأيام الضائعة، محاولة لزرع نظام في أرض وروح تلوثت بداء الفوضى والضياع.

كارين قادرة على خلق إيقاعها الخاص ونظام يومها المشحون دون تزمت ولا جهامة، ولكن في صرامة متحضرة. حبها لي نهر تحت الصَخْر لا هو مبتذل ولا مصنوع، حاضر يحيط بي من أول ساعات الإفطار في الصباح حتى هبوط الليل.

مرت شهور وأنا أصارع بقعًا سوداء تولد بين اللحظات، فتجعل الوقت حائلًا لا طعم له، يضيع في التحديق والاجترار.

لم تكن تتحمس لفعل الحب لتمضية الوقت. لا يكون مصدرًا للسعادة إلا إذا تم في لقاء جسدي ومزاجي متكامل، تتصاعد في

اتزان وتصل قمتها في انتشاء كامل مريح. أما أنا فقد كان الجنس معها يبقيني غالبًا أسير مشاعر حائرة مرتبكة. نهر حبها يتجدد بفعل الحب.. أرى ذلك واضحًا في وجهها في الصباح أما أنا فقد كانت شرنقتي القديمة تطبق دومًا على أراض جديدة في روحي وحياتي. لم أعرف كيف أعيشه حرًا منعشًا.

الأصدقاء والأشياء الطارئة كانت تخترق اليوم وتتركني أدور حول خيالات متعلقة بالكتابة أو الشعر دون إنجاز يذكر أو تقدم. بينما أراها إلى جواري ينتظم عملها يومًا بعد يوم، وتتوالد الأفكار في صحة ونماء تراقبني دون حكم أو إدانة، يتولد عنها بالنسبة لي نوع من الإشفاق والاستغراب الحقيقي. أبحر دون أن أدري في بحار وحدتي وضياعي المطلق.

لم أكن رأيت أمي منذ فترة طويلة، منذ أيام أزمة وفاة هاني قبطان، وما صاحبها من فضيحة، حاولت أمي مع الجميع كتمانها ومنع السبب الحقيقي للوفاة من أن يتسرب إلى الصحف التي تتشمم أخبار الهيروين ومتعاطيه من البسطاء والمشاهير.

بعد الزواج طلبت أن تراني وتتعرف على كارين أكثر من مرة. لكنني كنت أدفع المواجهة بعيدًا عني كما أفعل في أشياء كثيرة. أسمع أن حالتها تزداد سوءًا مع الحبوب المهدئة والشراب.

قمنا بالزيارة بعد أن ألحت كارين وقالت إنها ضرورية. يوم تعس مر المذاق. البيت الذي تقيم فيه تحول بسرعة إلى فيللا مهجورة وسط فيللات أخرى مزدهرة منتعشة في منطقة رشدي.

هذا هو المكان الذي تمنيت دائمًا أن أراه كوم تراب أو رمادا.

في الصباح المتأخر كانت السيدة العجوز تبذل مجهودا كبيرًا لكي تبدو متماسكة مفيقة، دخلنا إليها متوجسين. ارتدت بعض ثيابها الكلاسيكية، وشدت نفسها على مقعد وحيد يحيطه فراغ بعد أن صففت شعرها ووضعت ماكياجًا ثقيلًا، جمعت كفيها في توتر، وكانت يداها عجوزين.

بذلت مجهودًا كبيرًا لكي أتم عملية التعارف في سلاسة، أخذت هي تتكلم في إنجليزية متكلفة وتحكي لكارين عني.. وعن حياتي. يستطيع الإنسان أن يبرر لنفسه كل شيء.

هو قادر على أن يرى فقط ما يحب أن يراه.

أعطت كارين في إصرار قطعتين من مجوهراتها القديمة، وراقبتها كما أراقب ممثلًا متوسطًا يؤدي دورًا لا يصلح له.

في الليل ذهبت أنا وكارين إلى مطعم «سانت باربرا» الضوء أصفر شاحب وعلى صدري كآبة لا حل لها.

طلبت كارين النبيذ المصري الذي تحبه، لم أعرف له طعمًا. أبعدني النبيذ عنها وجعلني أسقط وراء الحقيقة في وحدة مرة.

(١٨)

تركت كارين وحدها في الشقة لأكثر من أسبوع، أجمع في «بركة السبع» شتات نفسي بعد الوفاة المفاجئة للدكتور منير فكار، انتزعتني

كلمة «تعيش أنت» من فوضى القاهرة وارتباكها وسحبتني لكي تلقي بي في مستنقع «بركة السبع» في الفراغ الذي خلفه رحيل الرجل الكبير. لم أدرك لحظاته الأخيرة. كشفت الملاءة البيضاء، حدقت للحظة في الوجه الصارم البعيد. انطبعت خطوطه الخارجية الحادة على القماش بعد أن أعدت الغطاء. لن يقول لي أبدًا شيئًا بعد الآن.

للحزن طعم جديد طازج كأنه مذاق الدم. ولم يكن حولي على الإطلاق من يشاركني. ضوضاء العزاء وكل الترتيبات تولتها زوجته سكينة وأهلها الذين ملأوا المكان بملابسهم البيضاء النظيفة، كتيبة تستولي على قلعة سقطت. لم يكن لي في كل ما يفعلون رأي ولا شأن.

لمياء حضرت مع بعض زبانية زوجها وانصرفت بعد ساعات. من أمي لم أسمع أي خبر. في ليالي العزاء كان الحضور من أهل الناحية قليلًا. ولم يحضر من أهله الصعايدة أو القاهريين إلا أربعة أو خمسة وظل السرادق منصوبًا شبه خال. يدوي فيه صوت قرآن لا يستمع إليه أحد.

ليالي شتاء ريفي بارد ينفذ إلى العظم. البيت الداوي سكن تمامًا. حط في غرفته وفي الأماكن التي يجلس فيها فراغ الموت الجديد. أحسنت زوجته سكينة استقبالي في بيتها ورعايتي دون إزعاج. المرحوم رتب كل شيء منذ فترة قبل موته. كل شيء هنا باسمها. لي أنا ولمياء ودائع نقدية في بنوك. أوراقه الخاصة لي أن أنظر فيها وأفعل بها ما أريد. هكذا قالت وهي تعطيني مفتاح الغرفة الفارغة التي أعيد ترتيبها وتنظيفها بعد الدفن. جوار السرير حقيبة جلدية قديمة، مغلقة ومفتاحها صغير، فيها أوراق وكراريس قديمة كتب عليها

«وزارة المعارف العمومية». ما أحلى خطك يا أبي وما أجمل رائحة الأوراق القديمة.

الليالي والأيام التي أمضيتها هنا صنعت من مادة مختلفة. تحديقي عن قرب في حقيقة موته وغيابه، غير طبيعة الوقت والزمن. شيء ما جذبني وغاص بي إلى قاع سحيق صامت. الضجة كلها انتهت إلى سكون.

تركتني سكينة أقضي أيامي في غرفته. وحيدًا صامتًا لا أكاد أفعل شيئًا سوى التحديق في السقف أو من نافذته المفضلة التي تطل على الحقول وأشجار بعيدة.

عرفت من سكينة أنه في الأيام الأخيرة لم يكن يغادر هذه النافذة إلا لكي يستحم مرات متعددة في النهار والليل. يغسل جسده مرات ومرات بأنواع مختلفة من الصابون المعطر.

ذهبت إلى المقبرة الجماعية في التل الترابي الكبير الكائن جنب الحقول. أمضيت وقتًا طويلًا معه هناك. عرفت وحدي أن دموعي قد تحجرت وأنني لم أعد قادرًا على البكاء. المقابر هنا أكثر رحمة من مقابر المدينة. لكن رائحة الغياب والفناء واحدة.

النقود، والنجاح وكل أنواع الطموح تسكن هنا مع هؤلاء الرفاق الذين أدوس على ترابهم الآن وأشم رائحتهم تختلط مع الهواء الجديد. نافذته جميلة حتى في الليل. تطل على كتلة من الظلام تتراقص فيها قمم الأشجار كأنها رءوس بشر يحاولون العودة إلى الحياة.

ودعت سكينة. عرفت أنني لن أراها أبدًا بعد الآن. حملت حقيبته الجلدية القديمة ورجعت إلى القاهرة يتيمًا.

(١٩)

حضوره صار كاملًا في حياتي بعد موته. كأننا عشنا العمر معًا، لم نفترق يومًا. لم أكن في حاجة لأن أقلب في أوراقه كثيرًا. كنت أعرف أغلبها سوى بضع خطابات مفاجئة قد كتبها لي وللمياء. خطابات حزينة وحيدة فيها رغبة حارقة في أن نبدأ معًا حياة جديدة. نجتمع كلنا حول أمي نحبها ونغفر لها. «نبدأ من جديد» كلمة مكتوبة ومشطوبة عشرات المرات في خطابات لم ترسل أبدًا. لم يرد ذكر سنوات الخليج في أوراقه كأنه محاها أو أسقطها عمدًا. بدايات ومشروعات يوميات يتحدث في أغلبها عن الندم على هجر الكتابة، والتصميم على العودة إليها في انتظام.

صدى كلماته يطاردني في إيقاع ثابت كأنه دقات القلب. لم أدع أحدًا يطلع على الأوراق، ولا حتى كارين، أخفيتها تحت مكتبي أنظر إليها من بعيد وكأنني أقلبها وأقرأ فيها.

حواري الدائم يتسرب إلى داخلي، أسئلة عامة لا أجد من أحملها إليه، أسئلة عن وجودي، عن نقودي الموجودة، والتي ضاعت، عن جدوى الطموح، والهمة ومعنى النجاح.

صارت هذه الحوارات والأسئلة تملأ ساعات تحديقي واجتراري للصور والعبارات التي لا تكتمل.

وجدت في الحقيبة أيضًا بعض الصور القديمة له في شبابه هالني الشبه بيني وبينه. خاصة في الجبهة والشفتين. صرت أرى

صورته دون ضوء ولا مرآة، بقيت صامتًا ثقيلًا طوال المساء والليل. وحاولت كارين أن تخرجني مما أنا فيه. لكنني أعود إلى حالي القديم. استأنفت طقوسها الليلية ودخلت إلى الفراش. حملت همي وخرجت إلى الشوارع متأخرًا على غير العادة عندما تكون معي. تركت المكان الوحيد الذي سكنت إليه وكاد يحتويني، لم أكن قادرًا على أن أنطق كلمة إنجليزية واحدة أخرى. بدا لي المكان غريبًا.

في الشارع كان سواد فارغ ممدد ينتظرني. مجردًا من الرغبة غير قادر على المقاومة، مررت في الشوارع الجانبية أتفقد الشحاذين الثلاثة وجدتهم في أماكنهم المعتادة، حولهم نفس الأقمشة الخلقة وزجاجات البلاستيك الفارغة.

طرق الحياة بدت متساوية كلها تؤدي إلى لا شيء.

في سوق الخضار المجاورة يرتبون في الفجر العربات عليها أكوام الفواكه والخضراوات الطازجة الجميلة. صافية مكتملة تحت الأضواء. بعد قليل يمزقها البيع والشراء وتفترسها ضروس الماكينة التي لا ترحم. عبرت أكوام الزبالة المحيطة بالسوق واندفعت هاربًا حتى لا أشهد بداية المعمعة.

وصلت إلى ضوء نافذة شوقي عامر لم أصدق أنني رأيت النور اندفعت أقفز درج السلم.

تأخر كثيرًا في فتح الباب جاء يجر أقدامه في الشبشب. الشقة خالية إلا منه. أمسك يدي وراح يزحف صوب غرفته البعيدة قال: تامر، أخيرًا جئت، ابق معي أنا متعب جدًا هذا الصباح.

(٢٠)

المحبة الصافية التي أحملها لشوقي عامر أندر ما في حياتي. عاطفة تجعلني أنتمي إليه دون قرابة أو حسابات أو مخاوف وبلا شروط. لم يكن قدوة أو مثالاً. فقط جناحان مفتوحان في نهاية العالم.

كأنني نشأت معه هنا. كل ما سببته لي نشأتي في الخليج وطفولتي المرتبكة في أسرة مدمرة، أجد عنده هنا قدرة على النظر إليها من مسافة ملائمة. أرى الامتيازات التي أعطيت لي دون عناء. وأرى ما حرمت منه دون سبب. أحس الارتباك القومي والفوضى في الكلام والأفعال حولي. الكل يتدافع ويكذب ولا يمكن توقع حركتهم التالية. معه وجدت حقائق بسيطة وبدهيات تستحق أن تعاش. أشعر معه بندية واستقلال، لم يسمح لي أبدًا أن أتكئ عليه أو أذوب فيه. كان يجعلني أشعر بأنني مستقل، بأنني واقف على قدمي. كانت هذه أهم عطاياه.

عرفت معه أن الإشفاق على النفس والرثاء لها أسخف النقائص. وأن القدرة على رؤية الآخرين والاهتمام بهم مصدر قوة للنفس، وتجديد حقيقي للدم الفاسد. ضاعت أيامه كلها بين الاعتقال الطويل الذي لا مبرر له، وعمل سياسي انتهى إلى لا شيء، وأصدقاء تسربوا كالماء. ومع ذلك فقد ظلت قامته منتصبة، وما يؤمن به في داخله أخضر متجددًا، ترى ذلك في وجهه، وفي سخريته التي لا مرارة فيها من تناقضات اليوم وارتباك الواقع. لم يكن يشكو أبدًا.

اليوم طرحته أرضًا نوبة برد شديد، جلست إلى جوار فراشه بعد أن أعددت له شرابًا ساخنًا وأعطيته قرص أسبرين. لم يكن الصمت معه أبدًا مزعجًا، بقينا صامتين نراقب ضوء النهار يقتحم الحجرة مع أصوات المدينة التي تستيقظ، عندما عرف أن أبي قد مات ضمني إلى صدره في قوة ونادرًا ما يفعل، ولم يقل شيئًا. أعطاني وأنا أغادره يومها كراسة قديمة جميلة.

أراه جالسًا في شقته ـ قلعته الأخيرة ـ يشرب قهوته في بطء كأنه واحد من الآثار الطيبة التي تجلب الخير والتي تركها القدماء على أرض هذا البلد المتعب. يدور حوله الحديث، وتحدث التغيرات والوقائع وهو ثابت واثق من شيء لا أعرفه. لا تصدمه التغيرات السياسية ولا يندفع في تحليلات أو نظريات عرجاء. لكن يضع يده في أغلب الأمور على نقطة ضوء منطقية لم يكن يراها الجميع. هل هي الحتمية التاريخية التي قام عليها فكره وحياته؟ أم هو العمل السياسي القديم الطويل الذي قام به وسط بسطاء الناس هو الذي جعله يتعامل مع الجوهري ويسقط الحشو والزوائد. وسط كل نماذج اليساريين الكذبَة والمسترزقين، يبقى شوقي عامر اليسار نظيفًا حقيقيًا. يبقيه أملًا حتميًا في ضرورة التغيير، عندما تطبق عليه الخناق جماعات المتسيسين ومحترفي الكلام كان يقطع الحديث ويقوم واقفًا يمد يديه أمامه كأنه يستنجد بالناس أو برب العالمين.

للمثقف الفنان عنده دور واحد هو الذي يبرر وجوده. الاعتراض وعدم قبول ما هو قائم، والبحث الدائم عن إمكانية تغييره. الذين

يدورون حوله وحولنا من فنانين وسياسيين كانوا حلقة وطابورًا طويلًا من خدم السلطة والباحثين عن مكاسب أو حلول شخصية لحياتهم. لم يكن يهتم كثيرًا بالصور الفردية أو التطورات الشخصية فقد كان يراها حالة عامة وإصابة وبائية أصابت الكل فحولتهم إلى جلد ثعبان فارغ لامع وبراق ولكن بلا وظيفة ولا فاعلية ولا تأثير.

رحت أقلب في اسكتشات وتخطيطات قديمة بالرصاص والفحم، لفلاحين عاش بينهم في طفولته، ووجوه من المعارف والأصدقاء حولنا، وشخصيات عامة تصنع وجهًا غريبًا للتحول الذي يجري ويدور. في الرسوم عناية فائقة بالتفاصيل وبالتنفيذ وغنى تعبيري مذهل، تلفها موسيقى وإيقاع بعيد واحد. نداء لحلم قديم ببلد رائع. وواقع متناسق لم يعد موجودًا، لكنه مهم وضروري، ويجب استحضاره.

النهار يتقدم وأنا أسمع تنفسه المتعب العالي. حسبته راح في النوم. لما تحركت قال لا تذهب. أحضرت له شرابًا ساخنًا جديدًا. تحامل على نفسه وجلس في الفراش وطلب أوراقه والإناء المليء بالأقلام وقال: قد تجعلني الحمى قادرًا على تبين خط يجمع كل هذه الأجزاء المبعثرة. قد أستطيع أن أرى لها معنى أو سياقًا.

عندما انخرط في العمل عادت إلى وجهه بعض الحيوية. تحت أشعة الشمس الواهنة التي تسللت إلى سريره العالي الوحيد.

(٢١)

وجه أمي الأسطوري الذي أحمله معي، انطبع في عيني وروحي وأنا أراها عندما كنت طفلًا صغيرًا في الخليج. واقفة هناك تبكي جنب المستنقع، قمر شاحب ينعكس جنب وجهها في الماء الساكن. هواء ثقيل ورائحة سمك ونفط وسفن بعيدة لا تتحرك.

أقدم ذكرياتي على الإطلاق. مركبة من مادة كأنها الأحلام ومن حوارات متعددة مع أمي وقت أن كان بيننا حديث. أراه يومًا ماثلًا بعيدًا أحاول جمع تفاصيله، كأنه قافلة تاهت وتشتت في صحراء. العائلات المصرية الثلاث التي كنا نعرفها وبعض المعارف وزملاء العمل خرجوا في يوم عطلة إلى رحلة خلوية في صحراء تطل على بحر ساكن مخنوق. الرائحة أقوى ما أذكره. سمك، ونفط، ورائحة العرق كأنه رائحة نقود جديدة.

قالت لي أمي: هي تذكر جيدًا تلك الرائحة. معهم تلال من الأطعمة والمشروبات وحشد من أولاد لا أعرفهم في سن متقاربة.

تلك كانت أيام الحريق الذي ظل مشتعلًا بين أمي وأبي. هي محبوسة قلقة عصبية مصممة على الرجوع إلى مصر. هو الآخر بعيد عنها مصمم على البقاء. متمسك بمشروع غامض لا يشرك فيه أحدًا. أنا ولمياء تائهان نتعثر وسط غابة سيقانهم. نساء بدينات افترشن الرمل كأنهن غرف مربعة مغلقة. ارتدين ملابس غريبة، وقطعًا من

ذهب وأحجار حمراء. يتكلمن بصوت عال ولهن ضحكات بذيئة لا أطيق أن أسمعها حتى الآن. أبي وسط الرجال في حلقة مستديرة، عندما ألمحه لا أعرفه، يتكلم ويضحك بطريقة غريبة. أنا وسط حشد الأولاد والبنات أختنق بغربتي التي لا تفارقني أبدًا.

الوقت أبدًا لا يتحرك. عشرات الشموس في كبد السماء. لا يقطع صفرة الكون حولي سوى ذباب يلسع ودموع تنهمر لتخنقني ثم تجف. عندما يلتفت إليَّ أحدهم أو إحداهن يصر على أن يحشوني بالطعام أو أن يداعبني في غلظة لا أفهم لها مبررًا.

نمت تحت ظل خيمة نصبوها واستيقظت في نفس الكابوس بحثت عن أمي بينهن. لكنني وجدتها منفردة وحيدة. جلسنا صامتين. هدأ رعبي قليلًا في ظل صمتها. عندما عدت وفقدتها مرة أخرى، وضاعت وسط الغرف المربعة المغلقة. انتابني رعب وكأنني أصارع وحشًا له ألف ذراع. كل ما أعرف ومن أعرف بعيد مستحيل لا يمكنني الوصول إليه.

عندما بدأت الشموس المائلة تغرب ويهبط الليل مع نسيم لزج. دبت في الجميع حركة نشطة يجمعون متاعهم وأولادهم ويتصايحون في سعادة كاذبة. لمحت أمي بعيدًا تقف وحيدة وقد دخلت إلى الماء الذي امتد حولها كأنه مستنقع لا نهائي.

جريت ناحيتها. وجهها مسطح بارد من الضوء الشاحب. وعيناها تائهتان ضائعتان لا محالة، ألقيت نفسي عليها وبللنا ماء. ما زلت أشم على جسدي رائحته.

حكت لي أمي ـ وما زلت أذكر ـ غضب أبي علينا، وصوته الصارخ

بعد أن رجعنا إلى البيت. نمت ليلتها في حضنها على الأرض، كان ملمس الموكيت المفروش خشنًا ولونه أخضر. كلما تحركت يداي لامست بلولة أحسبها دموعها أو دموعي.

ذكرى مرة أليمة كأنها بئر مفتوحة.

(٢٢)

تسعة أشهر كأنها فترة الحمل، أنجبت بعدها هواء. اختفت كارين. رحلت وخلفت لي ميراثًا ضخمًا من القصائد المجهضة والأماني الهشة التي ارتطمت بالجدران. حدث كل شيء في دورة صغيرة من دورات الزمن التي أحاول أن أفهم كيف يتسرب كرمال من كف عجوز، تحدث الأحداث صغيرة متتالية، عميقة أو على السطح، ثم فجأة يتغير وجه الدنيا، فإذا بي وحدي معها عجوز شمطاء لا مهرب منها ولا فكاك.

هل بدأت الأمور تتداعى في الفراش، أم على مائدة الإفطار، أم بدأت المأساة وأنا عاطل أحدق في فراغي الداخلي حيث لا تواصل بل غربة وانحسار. اندفعت كارين تعمل. تملأ اليوم باللقاءات والقراءة وتدوين الملاحظات، ثم تجلس لكي تكتب حتى وقت متأخر في الليل، وأنا أدور في دوائري الجهنمية نفسها: المقهى والشوارع، والأصدقاء. أقف على أعتاب العمل، ولا أقدم! أخلف المواعيد والأنظمة التي نضعها. أجد لنفسي دومًا عذرًا داخليًا أو

خارجيًا لزجًا. أكسو وجهي عندما أضبط متلبسًا، بابتسامة بريئة أو غضب طفولي نفور. مرات تحدثت عن قيمة الوقت. ليلًا تحدثت عن مسافة تولد ومكان لا يمكن منه الرجوع. أمسكت وجهي بين يديها، وحدقت فيّ برجاء وابتهال. هل كانت تريد أن توقظ شيئًا مستحيلًا. ما أثقل اللحظات الماضية والكلمات عندما نعرف أنها ستظل معلقة فوق رءوسنا إلى الأبد! كيف لم أسمع ساعتها ما تقول؟

ليته كان عراكًا أو شجارًا. كان خمودًا باردًا قاسيًا للشيء الحقيقي الذي ولد بيننا بلا ميعاد، عيناها تعبرانني كشيء، لا ضوء فيهما يبرق لي. لا تنتظر، مشغولة. عيناها علي ولا تراني. صارت مثل أي شي آخر. لا توقظني عيون البنفسج. أسحب ورائي اللحظات التي كانت. صرنا نهم بالشيء ولا نفعله.

هناك شروخ أو كسور لا تجبر ولا تلتئم أبدًا. تظل دائمًا تجرح الأصابع والروح. حاولت أن أتدارك الأمر. أن أتراجع. أن أعد بأن أكون مفيدًا، كل هذا كان يزيد الأمر سوءًا. تساقط الضوء الرومانتيكي الذي كان يكسو المكان والزمان معها. كما كان سيف الحب باترًا، كذلك نزلت مقصلة الغربة قاطعة لا ترحم. اكتفت هي بمكان صغير في حجرة النوم تعمل فيه في صمت وبلا توقف، تأكل قليلًا وهي واقفة في المطبخ. واكتفيت أنا بسماع شرائط المصحف المرتل أو الموسيقى أو التدخين. تركبني غربة وضيق وأنا أسمع حديثًا طويلًا بالإنجليزية على شريط أو في تليفون. أجد أي سبب يدفعني للخروج، عندما أعود أجدها مشغولة بعيدة لا تنتظرني. خرجت من بين شقوق الساعات عشرات التفاصيل البشعة الصغيرة التي لم تكن موجودة من قبل: في الخروج والدخول والطعام والشراب، في طريقة

النوم وارتداء الثياب، تفاصيل من الرأس حتى أطراف الأصابع. أحسبها غالبًا على حق، وعليّ أنا أن أعتذر في ضيق وبلا اقتناع.

تحصنت وراء التصرف الصحيح، لم ترتكب حيالي خطأ ما، وبذلك تحملت وحدي الذنب والتقصير. لم يعد هناك لي عذر ولا عزاء. عندما قمت من الفراش لكي أدخن سيجارة رجعت فوجدتها قد استدارت، كانت تبكي. لم يكن الأمر مفاجأة فقد كانت ذابلة مهمومة منذ أسابيع. قالت ووجهها مدفون في المخدات إنها حاولت وإنها لم تعد تستطيع. قالت في حياد بعد أن هدأت إن ما سيحدث بيننا معًا بعد الآن بغيض، إن لم نعرف أن نصنع بحياتنا معًا ما نريد، فلنعرف على الأقل متى ننسحب. حدقت في سقف الغرفة، ينعكس عليه ضوء فجر كاذب وتصلني أجراس خيول السوق البعيدة، لم أجد في روحي أي كلام منطقي أرد به.

بعد نوبة غضب عبثية قمت بها ذات صباح كي أمتحن ما بقى من حياتنا، قالت وهي تضع رأسها بين يديها على مائدة الإفطار: أنت قادر على أن تضيع حياتك، وأنا لا أملك ذلك ولا أستطيعه، لم أكن أعرف أنك تقف على أرض بعيدة، لا تطولها يداي ولا حبي. سأفتقد دومًا الأمل الذي عرفته معك.

كان فراقًا متحضرًا أليمًا راقبتها وهي تقوم بإجراءاته تتوقف عند أشياء عزيزة للحظة ثم تزيحها دون تردد. أراها عادلة قوية، وأستعذب إحساس الغريق. بدا التداعي قويًا لا أحد يقدر أن يوقفه. من أي مادة صنعت أيامنا الطيبة معًا حتى تحولت هكذا إلى صمت طيني. أحلام الشعر المستحيلة. الحرية والفن آفاق ليست لي. ظهرها

نهاية العالم. بذوري في الأرض ميتة، تبقى الحياة بعدها خرابة أو أرضًا جرداء. أركب سمكة وأنزلق من على ظهرها وسط المحيط. راحت من حياتي عيون البنفسج.

قالت معزية: معك رأيت العالم في ضوء لم أكن أعرف أنه موجود. معك سمعت المعنى والصدى الحقيقي للكلمات. اللحظة وحدها مفردة لا تكون سوى حلم، الحقيقة في الاستمرار. قالت لي كثيرا هذه المعاني، وبصيغ مختلفة. كتبت أوراقًا كثيرة متناثرة تقول فيها إن كل هذا لا يعني أنها قد توقفت عن حبي. لكنني كنت أكتشف في ألم وذهول، وللمرة الأولى، أن لها مشروعها الخاص.. وأنا لم يعد لي مكان فيه.

تخلصت من أوراق كثيرة، مزقتها في ضيق وغضب إلا الورقة الأخيرة التي تركتها لي على المنضدة في الصالة يوم أن سافرت. لم أمزقها لكنني لا أدري أين ذهبت. مكتوبة بحروف كبيرة بقلم أخضر. أحفظ ما كتب فيها لكنني لا أجدها في أي مكان: «وداعًا حصاني، لا داعي لأن تذهب معي إلى المطار. الحصان لا يذهب إلى المطارات».

(٢٣)

رقصة الديك المذبوح أمام الكهف الذي يبتلع الناس في «كفر شوق» ظلت هي الصورة التي تسكنني. تشد روحي وعيوني. ويشرد فيها دومًا خيالي. قصة أبي، ومشروع حياته الأدبية الذي لم يتحقق.

انتقل الحلم إليّ، مسيطرًا من الأوراق الكثيرة التي وصلتني، مشاريع القصائد التي حاول كتابتها، ولم يكملها أبدًا. كل مرة تتركب لها معان جديدة، في محاولة مستديمة ـ مني ومنه ـ للقبض على معنى لواقع حياتنا. الجحيم الذي عاشه وأعيشه.

جاء الطوفان فعلًا، ولم يبق إلا أنا وحدي أسرع الخطو في الشوارع الجانبية، وأتعثر في الشحاذين الثلاثة الرابضين لي دومًا جنب الجدران.

ماذا فعل بأبي ذلك الفقر الموجع الذي عاشه في صباه وشبابه؟ رحلة البحث عن النقود في كل الكهوف التي قابلها. النقود التي حرقت روحه وأيامه ثم ضاعت منه. هل كان يهمه حقا أن يترك لي شيئًا. وأي شيء! دائرة جهنمية ندور فيها كقدر محتوم. مع ذلك العناء الروحي الذي ورثته، لا أعرف أن أعيش كبقية خلق الله. مع الشقة والنقود المودعة في البنك أدور في شعور حارق دائم بعدم الانتماء لشيء. وبأن جسدي يفتقد الخطوط الخارجية. أضيع دومًا في الموقف والمكان. كيف يمكن أن أظل أواجه هذا الفراغ الداخلي الذي يشبه الجوع الذي لم أجربه أبدًا.

عندما أرى المؤامرات ومشاريع الحياة الصغيرة التي تحيط بي في كل مكان. أراها تدور بشكل أو آخر حول النقود أقف ساكنًا لا أفهم. كان جنب يدي دائمًا ما أحتاج من نقود من أمي أو أبي.

كان عليّ فقط أن أطلب. أضيق بها وأكره الطلب. أكتفي بأن أظل يوما أو يومين صامتًا ساكنًا، ثم تأتي النقود التي لا تشتري لي شيئًا مما أريد. وحدي حقًا بلا طموح ولا رغبة في نجاح أو مقاومة.

سادت شقة لاظوغلي حالة بشعة كئيبة بعد سفر كارين، أصبحت مكانًا مهجورًا ـ لكنني أعيش فيه. في ركن منه. الشيء الوحيد الذي ينبض فيه هو تلك الحقيبة الجلدية التي تحوي أوراق أبي. أتنفس هواء متربًا ودخان سجائر راكدًا أو أخرج. أحيانًا أخط على الورق كلمات لا تحمل سوى الفراغ الذي يسكنني. وأرى الحياة كلها لحظات فاتت.

أرتدي ثيابًا واحدة لا أغيرها. أخلعها لأرتديها هي مرة أخرى. أدافع بها عن نفسي. وأمسك بما تبقى مني. صبري على الوجود يثير استغرابي، ولأنني كرهت الغوص في رخاوة الإشفاق على نفسي والرثاء لها، صرت كقاتل محترف، أتعمد إيذاءها وقطع كل وسائل الاتصال. أدخل أكثر فأكثر في شرنقتي التي لا يثيرني في داخلها شيء. وأستغرق في نوع من الوعي المؤلم بتفاصيل لا تهم أحدًا. مر بي زمن سائب لا أعرف كيف أحسبه. تتغير الحوادث حولي والفصول. والوعي الحارق المؤلم يتزايد مؤكدًا لي انفصالي وعدم قدرتي على المشاركة، كأن حياتي انتهت قبل أن تبدأ. كل الضوضاء والعنف حولي والزحام.. أضواء تنير وتنطفئ وأنا جامد كصنم.

الألم الكبير يصنع الشعراء. هل يمكن أن أصبح الآن شاعرًا. الشعراء ينتحرون. العباقرة منهم يموتون مبكرًا. أنا أدب على الأرض وآكل الطعام. لا شعر ولا غياب. حضور ـ فقط ـ بلا مذاق. في الركن الذي يضيق حولي يوما بعد يوم بحثت عن أشياء بديلة غير النقود والطموح والرغبة في النجاح فلم أجد. الشعر ضوء في نهاية النفق. لكنه ضوء مستحيل كما صار البنفسج مستحيلًا.

(٢٤)

سفر حسين إلى الخليج الذي يتم بعد أيام كان هو ما أخرجني من الشرنقة. اختلط علي الأمر والزمن كأنني أغيب في لحظة من لحظات حلم، أنزل من رصيف الشارع فتقع قدماي في بئر سحيقة.

عندما سمعت الخبر فكرت في نفسي أولًا وقلت لقد تم الحصار الآن أصبحوا كلهم أعدائي.

دق الباب بعنف. لم أكن في الأيام الأخيرة أفتح أو أرد على أحد. سحبته إلى ركني المترب وأشعلت سيجارة. لم أكن أرتاح للاقتحام حتى من حسين كاظم. أجد صعوبة في الهبوط المفاجئ من وحدتي التي تتصنع الاكتفاء. فتح النافذة المطلة على القاهرة القديمة ففاجأني الضوء العفي وطنين الحياة الشرسة. خبط بكوب الشاي على الزجاج المترب إلى جواري وأعلن الخبر. يسافر بعد أسبوع. التذكرة في جيبه. العمل في سوبر ماركت كبير. الأجر تقريبًا ما يقبضه أبوه في سنة.

فارق كبير بين ما نفكر فيه وما يمكن أن نقوله. وقع قلبي في هوة سحيقة وانتصبت جالسًا في السرير. في الفترة الأخيرة كان حسين قد مل من اكتئابي ومزاجي المتقلب. ولم نعد نلتقي إلا نادرًا. كنت أسمع أنه دخل مؤخرًا في علاقات ودوائر مدمرة تأكل كرامته ولحمه الحي. لكنه ظل دومًا عندما نلتقي متمردًا على كل شيء وأي شيء. حكاء بارع، قريب الدموع والضحكات، وبقيت أعطيه أمانًا لا أعطيه لأحد غيره.

في البداية عندما كان موضوع سفره مطروحًا من الناحية النظرية قلت له كل شيء. تحدثت كثيرًا، عندما كان الشرح ممكنًا عن المصائب التي شكلت حياتي. وعن الهم المقيم الذي أثقل قلبي من جراء الخليج ونقود الخليج. حدثته عن سرطان النفط وما فعله في عائلتي وفي قدرتي على الرؤية وإحساسي بالناس، قلت له في ليالي السير الطويل على كورنيش النيل إن هذا الطريق مرعب، وإن من يستطيع الهرب من السير فيه فقد فاز بنفسه وبحظ عظيم. من الواضح أن الكلام كله يسقط قبل أن يصل إليه، لأن ضيقه بالفقر وبالحياة مع أبيه كان عظيماً.

الآن وقد خاض لشهور أهوالًا إدارية وعملية ناهيك عن الأهوال المادية فلم يعد من الممكن الحديث عن شيء أو مناقشة أي قضية. الشروط التي سافر بها ونوع العمل وظروفه كانت كما عرفت مجحفة ومهينة، لكنه لم يعد يستطيع الصبر يومًا واحدًا واحتمال بخار الغضب والضيق الذي يعيش فيه. فلم يبق سوى الاحتفال بتوديعه. بسهرة مفتوحة في مقهى «الاستقلال».

ذهبت يومها إلى المقهى في الموعد ثقيلًا مهمومًا حزينًا عليه وعلى نفسي. كالعادة كانت السهرة حمقاء وزادتها المناسبة التهابًا ودموية. اجتمع خمسة من الشباب غيرنا. ولم يكن أحد يسمع لأحد. كلهم «أسياخ» متشددون لا تستطيع أن تفهم في النهاية على ماذا يعترضون. ولا إلى أي حد يعتقدون فعلًا فيما يقولون.

بعد عدد من زجاجات البيرة كادوا يلتهمون أطراف حسين كاظم. بدا لي هو غريبًا هذه الليلة. متماسكًا يخفي سعادة داخلية، وثقة

جديدة عليه. كان يدلي بتصريحات عن مشاريع وخطط، ويستشهد بي لدعمه وتأييده. أكثر الزملاء تشددًا كان هو في الحقيقة أكثرهم حسدًا لحسين على فرصة السفر. فقد كان فقره أشد وظروفه أصعب.

عندما سكر وأفلتت منه نفسه، سحبه الجرسون بعنف خارج المقهى، كان يصيح فينا مهتاجًا «ألأنه ليست هناك قبور في مصر تأخذوننا لنموت في الصحراء».

آخر الليل تركني حسين وقفز في الميكروباص ولم أشاهده بعد ذلك.

حاشية

حقيبة جلدية جديدة، صغيرة مغطاة بالتراب، بها قصاصات ورق كثيرة، بعضها رسائل قصيرة من كارين. بعضها عليه رسوم بالرصاص غير مفهومة، أغلبها لأوراق شجر أو صبار. وصور ممزقة لتامر وكارين، وقطع شمع، وحبة رمان صغيرة جافة وأشياء أخرى. هذه بعض الأوراق التي كانت في الحقيبة.

رجفة الجسد

ليته يرتجف
مرة واحدة أخيرة،
كي أعرف أنني حي.
هزة واحدة من الرأس للقدم.
لا دبيب.
لم يعد جسدي ـ أبدًا ـ يرتجف.
حزن صامت، معقم، عازل.
حط على أطراف الأعصاب
قطع عني كل اتصال.
واقفًا فوق قبر أبي.
جسدي لم يرتجف.
لا دموع ولا ألم.
كنت ـ فقط ـ أريد أن أدخل.
أجلس إلى جواره.

هكذا الآن

ذبحت مئات من كلاب ميكانيكية.
داخل عربات فاخرة ثابتة.
ليس بداخلها أحد.
رعب الشحاذين الجوعى.
في قلب قرية سياحية فاخرة.
يا أولاد الشوارع اتحدوا.
لم يبق وقت لكي تغطوا عوراتكم.

عيون البنفسج

تحت ضوء نجفة خشبية
رأيت حبي في وجهها والأصابع.
قالت لي العروق تعال.
سكنت عندك في بيت.
أشم فيه نفحة الجبل.
يا نفحة الجبل.
صدرك وسادتي الحرير.
في داخلك مقعدي المريح.
عيونك مقدسة.
ألف جرو حديث الولادة.
يبتسمون في حضورك.

القرآن .. والشعر

يسقط الشاعر منا صريعًا بين إيقاع الشعر العربي القديم الذي يدوي في روحه، بين معارفه ومشاعره الحديثة، وفي ضميره أيضًا الإبداع الذي حققه شعراء العالم. بين فخامة أسطورية، وحميمية الصورة والتفاصيل. بين المعرفة العلمية الحديثة التي أحالت الكون إلى صراع وحشي داخل نواة الذرة. صريعًا يسقط الشاعر، يصرخ في أرض غريبة. لا هو يفصح ولا يسمعه أحد.

من يسمع الشعر الآن؟ لماذا يتوقف أحد للحظة واحدة أمام أجمل أبيات الشعر.

يا سحر القرآن.

كيف تماسكت آياتك!

كيف قادت «قل هو الله أحد» إلى «الله الصمد» أي راحة وسعادة منحتها آياتك لملايين البشر.

أبيات للشاعر علي منصور

«من دل أحزاني عليكم
يا فرادى
في الزحام»

أبيات للشاعر عماد أبو صالح

يدفعون الأبواب خلفنا

يرفضون ـ حتى ـ أن يرموا لنا رائحتنا

من الشرفات.

يصر قمرهم أن يتبعنا

رغم أننا نختفي منه في حارات جانبية

ظهر القرية

بلدي لا تعرفني
داست حوافر البلدوزر
أشجار أبي القديمة.
تفرس الناس في وجهي
قالوا: من، وابن من، وبكم؟
شاهدت في التليفزيون
مذبحة ومقبرة جماعية
وأطفالاً لا يتنفسون.
أحسن ما في التليفزيون
أنه عابر.
صورة تحدث في مكان بعيد.

شرنقة

شرنقتي
هشة جدًا. وضعيفة جدًا
لكنها أعجوبة في إحكام النسيج
شرنقتي، ولدت بها
لا يسكنها غيري
لا يدخل إليها أحد.
وحيد فيها ومشغول جدًا
حتى إنني لا أعرف
ميعاد الخروج.

عن المؤلـف

وُلد علاء الدين حب الله الديب بالقاهرة عام ١٩٣٩، وحصل على ليسانس كلية الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠. صدر له ثلاث مجموعات قصصية: القاهرة (١٩٦٤)، وصباح الجمعة (١٩٧٠)، والمسافر الأبدي (١٩٩٩)، وخمس روايات: زهر الليمون (١٩٧٨)، وأطفال بلا دموع (١٩٨٩)، وقمر على المستنقع (١٩٩٣)، وعيون البنفسج (١٩٩٩)، وأيام وردية (٢٠٠٠)، وترجمات عديدة لصموئيل بيكيت وهنري ميلر وبيتر فايس وإنجمار برجمان ومن أهمها كتاب الطاو: الطريق إلى الفضيلة للفيلسوف الصيني لاو تسو (١٩٩٢)، وأعد الحوار العربي لفيلم شادي عبد السلام المومياء (١٩٦٥).

أصدر علاء الديب سيرته الذاتية عام ١٩٩٥ بعنوان: وقفة قبل المنحدر.. من أوراق مثقف مصري، وحصل عام ٢٠٠١ على جائزة الدولة التقديرية في الآداب.

تدور ثلاثية علاء الديب الرائعة حول غربة أسرة؛ غربة مكانية وغربة نفسية.. تتبع الأب منير فكار، أستاذ الأدب العربي، في الجزء الأول(رواية أطفال بلا دموع)، ثم تتبع الأم، سناء فرج، في الجزء الثاني (رواية قمر على المستنقع)، وأخيرا حياة الابن تامر فكار الشاعر التسعيني (رواية عيون البنفسج).. وفي الروايات الثلاث يغوص علاء الديب بعيدا في أعماق الصراع الأسري والإنساني، وكيف ينظر كل من الأبطال لنفسه وللآخرين، كل هذا بلغة شديدة الصفاء والشعرية تضفي طابعا فلسفيا يمس كل من يقرأ هذا النص.

ولد «علاء الديب» في المعادي عام ١٩٣٩. صدر له حتى الآن خمس روايات تعد علامات بارزة في مسيرة الرواية العربية «زهر الليمون»(١٩٧٨)، و«أطفال بلا دموع»(١٩٧٩)، و«قمر على المستنقع»(١٩٩٣)، و«عيون البنفسج»(١٩٩٩)، و«أيام وردية»(٢٠٠٢). ومجموعتان قصصيتان. بالإضافة إلى ترجمات عديدة أهمها كتاب الطاو للفيلسوف الصيني «لاو تسو»، كما قدم واحدة من أفضل ماكتب في فن السيرة الذاتية عنوانها «وقفة قبل المنحدر»(١٩٩٠). وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠١.

6 221102 022941

دار الشروق
www.shorouk.com